روايات الهلال

قصص وروايات قصيرة



الجزء الثاني

تشيكوف

روايات الهلال

Rewayat Al - Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال

العدد ٣٤٤ – أغسطس ١٩٧٧ – شعبان ١٣٩٧
No. 344 — August 1977

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد
نائب رئيس مجلس الإدارة : صبري أبو المجد

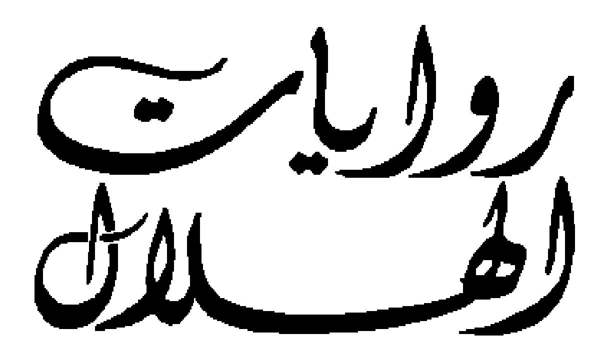
سكرتير التحرير : موسى عيد
المدير الفني : أحمد فاضل
المشرف الفني : جمال قطب

بيانات ادارية

ثمن العدد : في جمهورية مصر العربية ١٥٠ مليما • عن الكميات المرسلة بالطائرة – في سوريا ولبنان ٢٠٠ قرشا ، في الاردن ٢٠٠ فلسا ، في العراق ٣٠٠ فلسا – في الكويت ٣٠٠ فلسا – في السعودية ٢٫٥ ريال سعودي

قيمة الاشتراك السنوي : « ١٢ عددا » في جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادي البريد العربي والافريقي ١٥٠ قرشا صاغا – في سائر انحاء العالم ٦ دولارات أمريكية أو ٢٫٥ جنيه والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : في جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • وفي الخارج بشيك مصرفي قابل للصرف في جمهورية مصر العربية • والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادي – وتضاف رسوم البريد الجوي والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب •

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بالقاهرة
التليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »



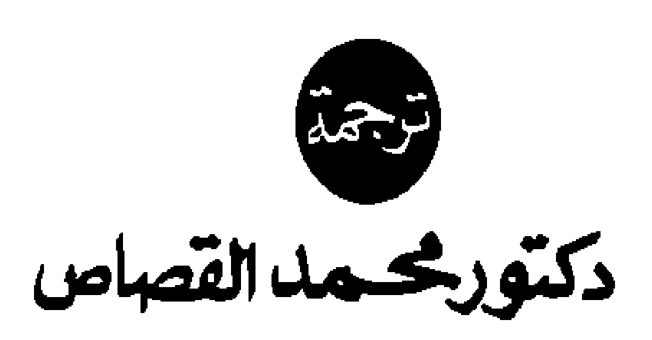
مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الغـــلاف بريشة
الفنان جمال قطب

قصص وروايات قصيرة

الجزء الثاني





•

دار الهلال

المنزل ذو الغرفة العلوية



المنزل ذو الغرفة العلوية

- ١ -

حدث كل ذلك منذ ستة اعوام او سبعة حينما كنت اقطن اقليم « ت » فى عزبة احد الملاك الزراعيين اسمه بيلوكوروف . وكان بيلوكوروف هذا شابا يستيقظ فى ساعة مبكرة من الصباح ، ويروح ويجيء فى جاكتة ريفية مطرزة حواف الذيل ، ويحرص على شرب بيرة المساء ، ولا يكف عن الشكوى من انه لا يقابل بالود فى اى مكان . وكان يعيش فى مبنى ملحق بالقصر مقام بالحديقة ، اما انا فكنت احتل من القصر العتيق قاعة فسيحة ذات اعمدة كانت معدة للرقص، ولم يكن فيها من الاثاث الا اريكة عريضة كنت انام عليها ، ومنصدة كنت استخدمها للقيـــــام ببعض العاب الورق الفردية . وكانت النار تحتدم فى المواقد العتيقة دائما حتى حينما يكون الجو ساكنا . وفى اثناء العواصف كان المنزل كله يهتز كما لو كان على وشك الانهيار . وكان ذلك مما يدعو الى الخوف ، ولا سيما فى الليالى العاصفة حيث كان البرق يضيء الشبابيك العشرة الفسيحة .

ولما كنت قد اعتدت حياة الكسل . فقد كنت اقضى وقتى دون اى عمل . فكنت انفق الساعات الطوال فى النظر من خلال الشباك الى السماء والطيور وممرات الحديقة ، وفى قراءة كل ما كان يحمله الى البريد وفى النوم . وفى بعض الاحيان كنت اغادر المنزل لأطوف فىارجاء شتى ولا اعود الا فىساعة متاخرة من الليل.

وحدث ذات مرة لدى عودتى من احدى هذه السهرات ان وصلت الى عزبة لم اكن قد رايتها من قبل . وكانت الشمس فى سبيلها الى الغروب ، وظلال الاصيل تنعكس على حقول الشعير .

وكان هناك صفان من اشجار الصنوبر الباسقة ، متقاربان أحدهما من الآخر ، حتى صارا يكونان حائطين متماسكين يحصران بينهما ممرا قائما جميلا . وقد جال فى خاطرى ان اتخذ من هذا الممر طريقا لى فتسلقت احد الأسيجة بسهولة . وواصلت السير فيه ، وأخذت قدماى تنزلقان على بساط سميك من ابر الصنوبر كان يغطى ارض الممر . وكان الوقت ساكنا معتما الا من بعض اشعة الشمس الذهبية الضعيفة التى كانت تنعكس على انسجة العنكبوت المنبثة فى كل مكان على الاشجار وفيما بينها ، وكانت تنبعث من اشجار الصنوبر رائحة حادة قوية صارخة . ولكنى عرجت بعد قليل فى ممر واسع محاط بصفين من اشجار الزيزفون . وهنا ايضا كان كل شىء يتحدث عن الاهمال والتقادم .

فكانت اوراق السنة الماضية تبعث بازيزها تحت أقدام العابرين، والظلال تتراقص فى الفسق بين جذوع الاشجار . وقد لمحت فى خميلة على يمينى طائرا من طيور البطريق يغرد تغريدا ضعيفا متثاقلا ، ولعله هو الآخر كان موغلا فى الهرم ككل شىء فى هذا المكان . وما لبثت اشجار الزيزفون أن انتهت أمام منزل به شرفة . وتعلوه غرفة محدبة السقف .

وهناك لمحت فناء فسيحا وبحيرة واسعة على شاطئها مكان للاستحمام ومجموعة من اشجارالصفصاف الخضراء ، وفى الجانب الآخر من البحيرة احدى القرى التى يطل من وسطها برج جرس لايزال الصليب الذى يتوج قمته يعكس آخراشعة للشمس الغاربة.

وبقيت مدة تحت اسر شىء مألوف لى ، شىء عرفته منذ زمن طويل ، كما لو كنت قد رايت هذا المنظر من قبل فى وقت ما أثناء طفولتى .

وكانت هناك بوابة من الحجر الابيض مزينة ببعض تماثيل الاسود وتصل بين الفناء والحقول الممتدة ، وقد وقفت فتاتان فى مدخل هذه البوابة ، كبراهما فتاة شاحبة اللون رائعة الجمال تعلو راسها خصل غزيرة من الشعر الكستنائى الباهت ، وتبدو على فمها الصغير علائم العناد والاصرار ، وفى نظرتها شىء من القسوة ، ولم يكن يبدو عليها انها تعيرنى كبير التفات ، وكانت الاخرى فتاة صغيرة السن جدا حيث لم تكن تتجاوز السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمرها ، وكانت هى الاخرى نحيلة الجسم

شاحبة اللون ولكنها واسعة الفم يبدو عليها الخجل وقد اخذت تنظر الى بعينين واسعتين تعبران عن الدهشة ، ثم فاهت ببضع كلمات باللغة الانجليزية حينما راتنى امر بها . وقد بدا لى أيضا انه قد سبق لى رؤية هذين الوجهين الساحرين منذ زمن بعيد . وعدت الى البيت وانا اشعر كأنى فى حلم جميل .

وبعد ايام قلائل كنت اسير مع بيلوكوروف فى ساعة الاصيل امام هذا المنزل نفسه ، واذا بنا نسمع أزيز عشب طويل ينبعث من تحت عجلات عربة صغيرة ، وما كدنا نصل الى المنحنى المؤدى الى الساحة حتى رأينا العربة نفسها وقد جلست فيها كبرى الفتاتين اللتين قابلتهما بالامس وما ان لمحتنا حتى اقبلت علينا تحمل قائمة اكتتاب لضحايا حريق . واخذت تكلمنا فى صوت رزين النبرات ودون أن توجه بصرها نحونا عن ضحايا الحريق ، وتمدنا بتفاصيل عديدة عن عدد المنازل التى احترقت وعدد الرجال والنساء والاطفال الذين اصبحوا لا مأوى لهم ، وعن الاجراءات المؤقتة التىاعتزمت اللجنة التى هى عضو فيها أن تقوم بها لمساعدة هؤلاء الضحايا . وبعد أن قدمت الينا القائمة لنوقع عليها ، همت بالاستئذان فى الرحيل ، ولكنها توقفت ومدت يدها نحو بيلوكوروف وهى تقول :

« لقد نسينا تماما يابيوتربتروفتش ، أرجو لو اتيت لزيارتنا ؛ واذا أراد السيد (وذكرت اسمى) أن يتعرف ببعض المعجبين به ، فستسر والدتى وأنا برؤيته » .

وشكرتها على تحيتها بايماءة من راسى .

وبعد أن ذهبت بدأ بيوتر بتروفتش يحدثنى عنها . فقال أنها تنحدر من أسرة طيبة وانها تسمى ليديا فلشانينوف ، وان الضيعة التى تقطنها هى وامها والقرية الواقعة على الشاطىء الآخر من الغدير تسميان باسم واحد وهو شلكوفكا . واخبرنى ان اباها كان يشغل مركزا مرموقا فى موسكو وقد مات وهو يحمل لقب « مستشار خاص » . وكان فلشانينوف بالرغم من ثرائهما يعيشان فى الريف طوال العام ، كما كانت ليديا تقوم بالتدريس فى مدرسة المجلس الاقليمى مقابل خمسة وعشرين روبلا فى الشهر . وقد رتبت امرها على أن يكفى هذا المبلغ نفقاتها الشخصية ، وكانت فخورة بأنها تكسب عيشها بكدها .

ثم اردف بيلوكوروف قائلا : « انها اسرة جديرة بكل اجلال . ويجب علينا أن نزورها . واعتقد انك لو ذهبت معى لطاروا سرورا برؤيتك » .

وفى يوم الاحتفال بمولد احد القديسين تناولنا طعام الغداء ، واخذنا نتجاذب أطراف الحديث ، فمر بخاطرنا ذكر آل فلشانينوف وقمنا من فورنا لزيارتهم فى شلكوفكا. فوجدنا الأم والابنتين بالبيت. ولابد أن الأم بيكاكترينا بافلوفنا ، كانت وسيمة المنظر فيما مضى ، ولكنها فى ذلك الحين اصبحت اكثر بدانة مما يسمح به سنها ، وتبدو مبهورة الانفاس كثيرة السهو . وقد حاولت أن تكلمنى عن الرسم وكانت ابنتها قد اخبرتها بانى ربما زرتهم ، فالممت على عجل بمنظرين اوثلاثة مناظر من لوحات لى كانت فى احد معارض موسكو، واخذت تسألنى عما اريد ان اعبر به . اما ليديا ، او ليدا كما يدعونها فى البيت ، فكانت تكلم بيلوكوروف اكثر مما تكلمنى. فراحت تسأله بوجه عابس لايعرف الابتسام عن الاسباب التى تدعوه الى عدم العمل فى المجلس الاقليمى ، ولماذا لم يحضر اجتماعا واحدا من اجتماعاته . ثم قالت له فى صيغة اللوم :

« هذا غير صواب ، يابيوتربتروفتش . انه غير صواب حقا ، ولابد ان تكون خجلا من نفسك » .

ووافقتها امها على رايها بقولها : «هذا صحيح . انه غيرصواب».

ثم التفتت ليدا نحوى وواصلت كلامها تقول : « ان الاقليم كله فى قبضة يد بالاجين ، فهو مقرر المجلس المحلى ، وقد ملأ وظائف الاقليم بأولاد اخوته اصهاره ، واصبح يفعل ما يحلو له ، فيجب علينا أن نقاوم ذلك . يجب علينا معشر الشباب أن نكون جبهة قوية . ان الأمر اصبح فى غاية السوء ، يابيوتربتروفتش ! » .

وأما جينيا ، الاخت الصغرى ، فقد ظلت صامتة طول الوقت الذى كان فيه المجلس الاقليمى موضوعا للنقاش . وذلك انها لم تكن تشترك فى المناقشات الجدية باعتبارها لازالت صغيرة السن ، ولذلك كان افراد الاسرة ينادونها باسم التدليل « ميس » وهو الاسم الذى كانت تطلقه هى ، فى طفولتها ، على مربيتها . وقد ظلت « ميس » طول الوقت تنظر الى باستطلاع وتحدثنى عن اصحاب الصور الملصقة بالسجل العائلى الذى كنت أتصفحه . كانت تشير باصبعها الى كل صورة وتقول مثلا : « هذا خالى...

هذا عرابى » وفى هذه الاثناء كانت كتفها تحتك بكتفى من غير قصد، مما جعلنى اتأمل بامعان صدرها الصغير الذى لم يكتمل نموه وكتفيها النحيلتين ، وجدائل شعرها ، وكل قوامها النحيل الذى احاطت وسطه بحزام عريض محكم الشد .

وقد قضينا الكثير من الوقت فى لعب الكروكت والتنس ، ثم تناولنا الشاى ، وبعد ذلك جلسنا وقتا طويلا على مائدة العشاء . وهناك لاحظت بعد تلك القاعة الشاسعة الخالية التى اسكنها ، انى على راحتى فى هذا المنزل الصغير الذى يحرص اهله على عدم رفع الكلفة بينهم وبين الخدم لدى مخاطبتهم . وكان من شأن وجود ليدا ، وميس فى المنزل أن يشيع فيه جو من الطهر والشباب ، حتى ان كل ما فيه كان يوحى بالاستقامة . وفى اثناء العشاء عادت ليدا الى الكلام مع بيلوكوروف عن المجلس الاقليمى وبالاجين والمكتبات المدرسية . وكان يبدو عليها الحماس والصدق وشدة الايمان بآرائها . والحقيقة انها محدثة لبقة ، وان كانت تتكلم كثيرا وبصوت عال ، ولعل ذلك يرجع الى ممارستها التدريس . ومن جهة اخرى كان صديقى بيوتربتروفتش لايزال متشبثا بعادة الطلبة فى الايام الماضية ، وهى تلك العادة التى تحيل كل محادثة الى نوع من الجدل . فكان يتابع نقاشه فى تراخ وتكاسل وانهماك فى آن واحد مع رغبة واضحة فى ان يظهر ذكاءه وآراءه التقدمية . وكان يشير بيديه ويقرع اناء الحساء حتى تكونت على غطاء المائدة بقعة كبيرة من الحساء ، ولكن يبدو انه لم يلاحظ ذلك احد غيرى .

وحينما انصرفنا فى سبيلنا الى المنزل ، كان الظلام والسكون قد خيما فى كل مكان .

وفجاة اخذ بيلوكوروف يتنهد ويقول : « ان حسن التربية لا ينحصر فى عدم اراقة الحساء على المائدة ، بل فى تغاضى المرء عما اذا كان احد آخر غيره قد فعل ذلك . والحقيقة انها اسرة مثقفة تشرح الصدر، ومما يؤسف له اننى قطعت صلتى بمثل هذه الأوساط اللطيفة - وكنت أنا الخاسر. والواقع ان هناك الكثير مما يجب أن يفعل ، هناك كثير جدا !.. »

وبدا يتكلم عما يجب على المرء فعله ، اذا اراد ان يكون صاحب املاك نموذجى . أما أنا فكنت افكر فى كسله وصعوبة توجيهه نحو اى عمل مجد . فهو حين يتكلم عن أمور جدية يضمن كلامه

الـكثير من التفاصيل التى يلوكها لسانه فى تراخ وفتور ، واذا أراد القيام بعمل ما سار فيه على نمطه فى الـكلام ، أعنى ببطء واهمال ودون أن يتمه فى الموعد المناسب قط . ولذلك لم اكن اعتقد انه شخص عملى ، وكانت كل تصرفاته تؤيد هذا الاعتقاد ، ومن ذلك مثلا انى كنت اذا أعطيته خطابا لوضعه فى صندوق البريد تركه فى جيبه عدة اسابيع .

وبعد انأفاض فىحديثه عما يجب أن يعمل وما لايجب ان يعمل، ختم كلامه بقوله : « واسوأ من كل ذلك ان المرء يعمل ويعمل ، ثم لا يلاقى تقديرا من أى شخص . لا يلاقى تقديرا أيا كان . »

– ٢ –

اعتــدت زيارة آل فلشـانيـنوف . وكانت الدرجـة السفلى من السلم المؤدى الى الشرفة هى مكانى المعتاد فى هـذا البيت . وفى ذلك الحين كنت فريسة للندم ووخز الضـمير والاسف على ايام حياتى التى كانت تنقضى بسرعة فى غير ما جدوى ، وكثيرا ما كنت أحدث نفسى بانه من الخير لى ان انتزع قلبى من بين جوانحى ، لأنه كل ثقيلعلى . وكانت الشرفة عامرة دائما بالحديث ، وحفيف الاثواب النسـوية ، وتقليب الصفحات . وسرعان ما تعودت على العلم بأن ليدا تقضى نهارها فى استقبال المرضى واعارة الـكتب والذهاب الى القرية وهى تحمل مظلة على رأسها العارى ، وتقضى مساءها فى الـكلام بصوت عال عن مجلس الاقليم والمدارس . وكانت هـــذه الفتاة النحيلة الوسيمة ذات النظرة القـاسية والفهم الدقيق الرقيق كلما بدأت تتكلم عن بعض الامور العملية ، مهدت لـكلامها بقولها : « هذه امور لا تهمك » .

انها كانت تنفر منى . تنفر منى لأنى رسام مناظر طبيعية ، ولا احاول أن اظهر حاجات الشعب فى لوحاتى . وايضـا لأنها كانت تشعر بانى لا اعبأ بجميع الاشـياء التى كانت هى تؤمن بها ايمانا لا يتزعزع . واذكر انى كنت ذات مرة اسير بجوادى على شواطىء بحيرة بيكال والتقيت بفتـاة من البوريات تلبس قميصـا وسروالا مخططا وتمتطى صهوة جواد . فسألتها أن تبيعنى غليونها . ولكنها نظرت باحتقار الى قبعتى وملامحى الاوربية ، ثم شعرت بأن وقتها اقوم من ان تنفق منه أكثر من دقيقة فى محادثتى ، فانطلقت تعدو

بوادها باقصى سرعة . كذلك كان حال ليدا ، فانها كانت تشعر بان فى مسلكى شيئا من الغرابة .

ومع انه لم تكن تصدر عنها اية علامة خارجية تدل على ذلك ، فانى كنت أشعر به ، وحينئذ كنت اجلس على الدرجة السفلى من سلم الشرفة ثم ارخى لسخطى عليها العنان ، واقول فى نفسى ، ان علاج الفلاحين دون معرفة بالطب يعد تغريرا بهم ، وانه من اليسير على اى شخص يملك عددا كبيرا من الافدنة ان يكون محسنا.

ولكن اختها ميس لم تكن تهتم بامور هذا العالم ، وكانت مثلى تقضى يومها فى البطالة التامة . كانت تستيقظ من نومها فى الصباح لتبدأ القراءة فتجلس على فوتيل عميق فى الشرفة وتستند بظهرها على مسنده حتى تكاد قدماها تمسان الارض ، أو تنفرد بكتابها فى ممر اشجار الزيزفون ، او تعبر البوابة الى حيث الحقول الشاسعة ، وتواصل قراءتها طول النهار حيث ترى تلتهم الصفحات بنهم شديد ، ولولا تلك النظرة المجهدة المتثاقلة التى كانت تند عنها من حين لحين ، وهذا الشحوب المفرط الذى يبدو دائما على وجهها ، لما ظن من يراها تقرأ انها تبذل فى القراءة مجهودا عقليا ضخما . وحينما كنت اصل ، كانت تعلو وجهها حمرة خفيفة ، وتسارع بترك الكتاب بمجرد ان يقع بصرها على ، ثم لا تحيد عن النظر الى وجهى بعينيها الواسعتين ، وتشرع فى اخبارى بكل ماحدث منذ رأتنى لآخر مرة فتقص على مثلا أن النار كانت قد اشتعلت فى مدخنة جناح الخدم ، وان العمال اصطادوا سمكة كبيرة من الغدير ، وهكذا . وكان من عادتها أن تلبس فى ايام العطلة الاسبوعية صدرية ملونة وتنورة زرقاء قاتمة ، ثم تخرج معى للتسلى بجنى الكرز من اجل المربى او التجديف فى الغدير ، وكانت اذا قفزت لالتقاط احدى ثمار الكرز أو انحنت على المجداف ابانت عن ذراعيها النحيلتين من خلال رداءيها الفضفاضين . وفى بعض الاحيان كنت اجلس لرسم أحد المناظر وتقف هى بجانبى وتشاهد ما افعل باعجاب شديد .

وفى اواخر شهر يولية ذهبت نحو الساعة التاسعة من صباح يوم الاحد لزيارة آل فلشانينوف . ورحت اطوف فى ارجاء البستان مبتعدا عن المنزل بقدر الامكان ، باحثا عن الفطر الذى كان غزيرا فى هذا الصيف بوجه خاص ، واخذت اشير الى الأماكن التى يتوافر

فيها ببعض العصى حتى أعود لجنيه مع جينيا . وكانت تهب ريح دافئة فى هذا اليوم. وبينما انا فى طوافى لمحت جينيا وامها مقبلتين من الكنيسة فى ثياب صيفية زاهية، وكانت جينيا تمسك قبعتها حتى تمنع الريح من حملها . وبعد ذلك بقليل سمعت اصواتا فى الشرفة تشير الى انهما تتناولان الشاى .

ومن داب الاشخاص الذين لا عمل لهم مثلي ان يبحثوا دائما عن عذر لكسلهم . ولا شك ان صبح الاحاد فى ضيعاتنا يمتاز بالسحر والجمال فى فصل الصيف. فحين تكتسى الحديقة بالخضرة وتفيض الحياة وتلمع على اعشابها واشجارها قطرات الندى ، وتستقبل اشعة الشمس بسعادة وابتسام ، وحين ترى الازهار المختلفة الالوان فى احواضها المحيطة بالمنزل تنشر شذاها فى كل مكان ، ويعود الشباب المرح من الكنيسة فى ثياب الآحاد الفاتنة فيجلسون لتناول الشاى فى الحديقة ، وتنفجر السعادة والانشراح من كل الوجوه . وحين اتذكر انا ان كل هؤلاء الاشخاص الاصحاء المرفهين الوسيمى الوجوه سيقضون نهارهم دون اى عمل ، اتمنى ان تكون الحياة كلها على هذه الوتيرة . وقد كنت فى هذا الصباح بالذات اردد تلك الافكار فى خاطرى وادور حول الحديقة مستعدا ان اهيم على وجهى دون اى عمل ودون اى هدف طوال اليوم ، بل طوال الصيف .

وظهرت جينيا تحمل سفطا معلقا على ذراعها . وكانت مخايل وجهها تدل على انها كانت تعرف ، او على الاقل كانت تشعر بانها ستلتقى بى فى الحديقة . وذهبنا سويا نجمع الفطر ونتجاذب اطراف الحديث ، وكانت كلما القت على سؤالا ، دارت على عقبيها ووقفت امامى لكى ترى وجهى .

وكان مما قالت لى : « بالامس وقعت معجزة فى القرية . فقد ظلت ليم بيلاجيا مريضة طوال العام ، وعجز الطب والاطباء عن شفائها . وبالامس جاءت امراة حكيمة وهمهمت قليلا فوق راسها ، فزال عنها المرض » .

فقلت لها : « هذا امر لا اهمية له ، اذ يجب علينا الا نبحث عن المعجزات حين يكون الناس مرضى اومتقدمين فى السن فحسب. اليست الصحة فى حد ذاتها معجزة ؟ والحياة نفسها ؟ ان كل شىء لا نفهمه يعتبر معجزة » .

ألا يعتريك الخوف أمام الاشياء التى لا نستطيع فهمها ؟
ـ « كلا ، ولكنى أواجه الظواهر التى لا افهمها بكل جراة ، ولا استسلم لها . يجب على الكائن البشرى ان يعتبر نفسه اعلى من الاسود والنمور والكواكب ، أعلى من الطبيعة بأسرها ، بل اعلى من الاشياء التى لا يفهمها ، وينظر اليها على انها معجزات ، والا لم يكن انسانا ، بل فأرا يخاف كل شيء » .

وكانت جينيا تفترض اننى لما كنت فنانا ، فلابد أن اعرف الكثير ، وانى استطيع الحدس الصادق بما لا أعرف . وكانت تود أن احلق بها فى جو علوى فائق ، فى ذلك العالم الاسمى الذى تؤمن بانى آلفه تمام الالفة ، فكانت تكلمنى عن الله ، وعن الحياة الابدية ، وعن المعجزات . ولما كنت لا أريد التسليم بانى انا وخيالى سنفنى معا بعد الموت ، فقد كنت أجيبها بقولى : « نعم ، ان الكائنات البشرية خالدة » أو « نعم ، ان حياة الخلد تنتظرنا ». وكانت تصغى الى وتصدقنى دون أن تطالبنى بالدليل .

وبينما كنا فى طريقنا عائدين الى المنزل ، رايتها تتوقف فجاة وتلقى على هذا السؤال :

« اليست ليدا رائعة ؟ اننى اعبدها ولا اتردد فى التضحية بحياتى من اجلها فى اية لحظة . ولكن لماذا ؟ » وهنا وضعت جينيا أصبعها على كمى ، واستمرت تقول :

« لماذا لا تكف عن جدالها ؟ لماذا أنت سريع الانفعال الى هذا الحد ؟ » .

ـ « لأنها على خطأ » .

وهزت جينيا راسها مستنكرة ، واغرورقت عيناها بالدموع وقالت :

« من العسير على المرء أن يفهم » .

وفى هذه اللحظة عينها لمحنا ليدا التى لابد من أنها قد عادت لتوها من مكان ما ، تقف أمام الباب وبيدها سوط لركوب الخيل، وكانت كعادتها نحيلة جميلة يسطع وجهها نورا تحت أشعة الشمس وتلقى بعض الأوامر الى أحد العمال . واستقبلت مريضتين او ثلاثة على عجل ، وتكلمت بعض الوقت بصوت عال ، ثم راحت تنتقل من غرفة الى غرفة وتفتح دولابا فى اثر دولاب ، وعليها سيما الاستغراق والانشغال وأخيرا صعدت الى غرفة السطح .

واخذوا يبحثون عنها لدعوتها لتناول الغداء ، ولـكنها لم تحضر الا بعد أن كنا قد انتهينـا من تنـاول الحسـاء . وربما كان من المستغرب ان اذكر كل تلك التفاصيل التافهة بهـذا الحدب . والواقع ان ذكريات هـذا اليوم قد بقيت حيـة فى خاطرى بـكل تفاصيلها ، بالرغم من انه لم يحدث فيه شيء يذكر .

وبعد الغداء جلست جينيا فى كرسى عميق تقرأ كتابا بيـدها ، وجلسـت انا على الدرجة السفلى من سلم الشرفة . وخيم الصمت على الجميع . وتغطت السماء بالسحب واخذ يتساقط منها رذاذ خفيف . وكان الجو دافئا والريح قد ركدت . وبدا كما لو كان هذا اليوم سيبقى الى الابد. واقبلت الى الشرفة بيكاترينا بافلوفنا التى كانت بقايا النوم لا تزال تثقل جفونها ، وبيـدها مروحة .

واقبلت عليها جينيا تقبل يدها وتقول : « اوه ، يا أمى ! انه مما يضرك ان تنامى اثناء النهار ! » .

وكادت جينيا وامها تكن كل منهما للأخرى حبا يصل الى حد العبـادة . فكانت اذا ذهبت احداهمـــا الى الحديقة ، وثقت من ان الاخرى ستظهر فى الشرفة وتفتش ببصرها بين جـذوع الشـجر وتنادى : « اوه جينيا » او : اوه ماما ! اين انت ؟ » وكانتـا تؤديان صلاتهما سويا وتتساويان فى درجة التـدين . وتفهم كل منهما الاخرى تمام الفهم حتى ولو لم تقل شيئا . وكذلك كانت آراؤهما فى الناس والاشياء واحدة . ولذا سرعان ما انست الى بيكاترينـا بافلوفنـا هى الاخرى . حتى انى كنت اذا انقطعت عن زيارتهم يومين او ثلاثة ارسلت الى من يطمئنها على صحتى. وكانت هى الاخرى ايضا تفحص لوحاتى بأعجاب وتخبرنى عن كل مايحدث بصراحة وحرية لا يقلان عما لدى ميس ، ولا تتردد عن مكاشفتى فى أسرار المنزل .

وكانت دائمة القلق على مستقبل ابنتها الـكبرى . ذلك ان ليدا لم تكن لينة الطبع ، لم تكن تتكلم الا فى المسائل الجدية . وكانت تحيا حياتها الخاصة الى حد ان أمها واختها كانتا تنظران اليها على انها كائن غامض مقدس على نحو ماينظر البحارة الى قبطانهم المعتكف فى قمرته .

وكانت الأم لا تفتأ تردد قولها : « ان ليدا شخصية رقيقة ، اليس كذلك ؟ » .

والآن ، بعد أن بدأ المطر في التساقط ، أخذنا نتحدث عن ليدا.

فقالت الأم : « انها تحفة من التحف » ثم تلفتت حولها في خجل ، واضافت في صيغة ملفوفة لها مغزاها : « انه لا يوجد من مثيلاتها الا القليلات ، ولكنى بدات اشعر بالقلق من اجلها ، كما ترى ، فالمدارس والمستوصفات والكتب ، كل ذلك على الرحب والسعة ، ولكن لماذا هذا التطرف ؟ انها توشك ان تبلغ الرابعة والعشرين من عمرها . واذن فقد آن الاوان لأن تفكر جديا في مستقبلها . ولا شك ان هذه الكتب والمستوصفات من شأنها أن تعمي المرء عن مرور الايام والليالي .. لقد آن الاوان لكي تتزوج » .

ورفعت جينيا راسها بشعرها المتهدل ووجهها الشاحب من كثرة القراءة ، وقالت ، كأنها تخاطب نفسها ، ولكنها كانت تنظر الى والدتها : « اننا جميعا في رعاية الله يا امي » .

وحينئذ ظهر بيلوكوروف في جاكتته الريفية وقميصه المطرز . وأخذنا نلعب الكروكت والتنس حتى اظلمت الدنيا فذهبنا الى مائدة العشاء حيث جلسنا حولها وقتا طويلا . وهناك عادت ليدا الى الكلام عن المدارس وعن بالاجين الذى وضع الاقليم كله تحت سلطانه . وحينما غادرت آل فلشانينوف في هذا المساء ، ذهبت وانا احمل في نفسي ذكرى يوم فراغ طويل مفرط في الطول ، وقلت لنفسي في شيء من الانقباض ، أن كل شيء في هذا العالم لابد أن يصل الى نهاية مهما طال مداه . وقد ودعتنا جينيا حتى الباب الخارجي . وبدات اشعر باني في حاجة الى البقاء وحدي دون صحبتها لكي ارى الى اى حد هذه الاسرة الساحرة عزيزة على ، وربما كان مرجع ذلك الى اني قضيت نهارى كله منذ الصباح الى المساء مع جينيا . ولأول مرة منذ هذا الصيف شعرت في نفسي برغبة في القيام برسم لوحة كبيرة .

وبينما كنا في طريقنا الى البيت سالت بيلوكوروف : « لماذا يجب ان تكون حياتك هكذا لا طعم لها ولا لون ولا رائحة ؟ ان حياتى انا قاتمة مملة رتيبة لأنى فنان . اى مريض ابلاني الحسد والندم والكفر بعملى نفسه منذ شبابي الاول . وسأظل دائما فقيرا ، لانى رجل بوهيمى — اما انت فرجل صحيح البدن طبيعي النفس . صاحب املاك . ولطيف المعشر فلماذا تتسم حياتك بهذا الجفاف

الذى لا تحاول الخروج من نطاقه الا فى القليل النادر ؟ ماذا يمنعك من الوقوع فى غرام ليدا أو جينيا مثلا ؟ »

واجابنى بيلوكوروف : « لقد نسيت انى احب امرأة اخرى » .

وادركت انه يعنى ليوبوف ايفانوفنا ، تلك المرأة التى تعيش معه فى المبنى الملحق . وكنت كل يوم ارى هذه السيدة البدينة المتورمة الخدين المنتفخة الاوداج التى تشبه فى كثير من امرها أوزة عيد القديس ميخائيل ، كنت أراها تسير حول الحديقة وترتدى الملابس القومية الروسية ، وتضع حول عنقها حزمة من عقود اللؤلؤ ، وتمسك فى يدها مظلة مفتوحة دائما . ولا يكاد المرء ينظر اليها الا ويرى خلفها احدى الخادمات تدعوها لاحدى الوجبات أو لتناول الشاى . وكانت قد جاءت الى هذا المكان منذ ثلاث سنين واستأجرت احد المبانى الملحقة بالقصر من بيلوكوروف ، وظلت معه منذ ذلك الحين ، ويبدو انها ستظل معه حتى آخر يوم من أيام حياتها . وكانت تكبر بيلوكوروف بخمسة عشر عاما ، ولكنها استطاعت أن تحكم عليه قبضتها ، حتى انه لم يكن يستطيع الذهاب الى اى مكان دون اذن منها . وكثيرا ماكنت أسمعها تنشج بصوت غليظ يشبه صوت الرجال ، حتى كنت اضطر الى ان أبعث اليها بمن يخبرها بأنها اذا لم تكف عن النشيج تركت غرفتى ورحلت ، وفى هذه الحال كانت تكف .

وحينما عدنا الى البيت جلس بيلوكوروف على أريكتى ، وراح يفكر وهو مقطب الحاجبين على حين أخذت أذرع أرض الغرفة جيئة وذهابا ، وأنا فريسة لنوع من الاضطراب العذب ، كما لو كنت قد وقعت فى حب . وشعرت بانى فى حاجة الى الكلام عن آل فلشانينوف .

فقلت : « ان ليدا لايمكنها أن تحب الا عضوا فى المجلس الاقليمى أوشخصا من هذا القبيل خبيرا مثلها بامور المستشفيات والمدارس . ولكن لايكفى بالنسبة لهذه الفتاة أن تقنع الرجل بعضويته فى المجلس الاقليمى ، بل لابد له من أن يوطن النفس على السير فى حذاء من حديد كما يفعل العاشقون فى قصص العفاريت . أما ميس فيالها من فتاة غريرة ! »

وانفجر بيلوكوروف بسيل من التأملات المسهبة عن التشاؤم ، وهو مرض العصر الذى نعيش فيه . فراح يتكلم بتمعن ويلقى

عباراته بطريقة توحي الى من يسمعه باني مشتبك معه في جدال وليس من شك في ان الصحراء الرتيبة التي لا نهاية لامتدادها والتي تسفعها الشمس باشعتها المحرقة ليست اشد املالا وقبضا للنفوس من فرد واحد يجلس في غرفتك ثم يتكلم ويتكلم ويواصل الكلام كأنه لاينوي قط أن يتوقف .

وقلت له في شيء من الضيق : « ليست المسالة مسالة تشاؤم وتفاؤل ، ولكن كل ما في الأمر ان هناك تسعين في المائة من الناس ليست لهم عقول مطلقا » .

ورأى بيلوكوروف في هذه الملاحظات تهجما شخصيا عليه ، فأخذ نفسه وانصرف غاضبا .

- ٢ -

كانت ليدا قد رجعت لتوها من احدى الزيارات ، فقالت لأمها : « ان الامير يقيم في مالوزيموفو ، وهو يبعث اليك بتحياته» واخذت تنزع قفازيها وهي تواصل كلامها قائلة : « أنه شخصية ممتعة . وقد وعدني بانه سيثير في جلسة المجلس القادمة مسالة انشاء مركز طبي في مالوزيموفو ، ولكنه يقول ان الامل ضعيف » . ثم التفتت الي وقالت : « لا تؤاخذني . فاني انسى دائما ان هذا النوع من الاشياء لايهمك » .

فاستولت على موجة من الغضب ، وسالتها وانا اهز كتفي : « ولم لا ؟ انك لا تحرصين على معرفة رايي ، ولكنني اؤكد لك ان هذه المسالة تهمني كثيرا » .

ـ « اهي تهمك حقيقة ؟ » .

ـ « نعم . انها تهمني . وفي رايي انه لا لزوم لوجود مركز طبي في مالوزيموفو » .

وانتقل الغضب مني اليها . فاخذت تنظر الي بعينين مذهولتين وقالت :

ـ « ماذا يلزم لها اذن ؟ صور مناظر طبيعية ؟ » .

ـ « والمناظرالطبيعية لا لزوم لها ايضا. لا لزوم لشيء مطلقا ».

واتمت انتزاع قفازها ، وبدات تنشر احدى الصحف التي كانت قد وصلت لتوها من مكتب البريد . وبعد دقيقة عادت تقول بهدوء ، وكان يبدو عليها أنها تحاول التحكم في مشاعرها :

« فى الاسبوع الماضى ماتت أنا وهى تضع طفلها ، فلو كان هناك مركز للمساعدات الطبية بالقرب منا لظلت تتمتع بالحياة حتى الآن. وانا لا استسيغ ان يكون هناك احد ، حتى بين مصورى المناظر الطبيعية ، يخجل من ان يكون له راى فى مثل هذه المسائل » .

فأجبتها : « أؤكد لك ان لى رايا فى هذه المسائل محددا كل التحديد » . ولكنها اخفت وجهها فى الجريدة ، كأنها لم تكن تريد أن تسمعنى . ومع ذلك فقد واصلت كلامى قائلا : « فى رايى ان مراكز المساعدة الطبية والمدارس والمكاتب والمستوصفات لايمكن ان تخدم فى الظروف الحاضرة الا اهداف الاستعباد . فالناس مكبلون باغلال ثقيلة ، وانتم لا تفعلون شيئا من أجل تحطيمها ، بل تضيفون اليها عرى جديدة ـ هذا هو رايى » .

ورفعت عينيها الى ، وعلت وجهها ابتسامة كلها تهكم ، ولكنى واصلت كلامى محاولا أن اوضح فكرتى الاساسية :

« ماذا يهم ان تموت انا وهى تضع ؟ ولكن انا هذه ومازنا وبيلاجيا يضطررن الى الانكباب على العمل من الصباح حتى الليل، ويصبن بالامراض من جراء عملهن الشاق ، ويقضين حياتهن كلها فى القلق على اطفالهن الجياع الضعفاء ، ولا يتوقفن عن تجرع الدواء طول حياتهن خوفا من الموت والمرض، ويذوين قبل الاوان ، ويهرمن قبل الأوان ، ثم يمتن فى القذارة والحما . وبمجرد ان يشب الأولاد يسلكون طريق امهاتهم . وعلى هذا النحو تمر السنين وتعيش ملايين البشر فى ظروف أسوأ من ظروف الحيوان ، لا لشىء الا لكسب كسرة من الخبز ومواصلة العيش فى خوف دائم . وتنحصر الشناعة الحقيقية التى يتسم بها موقفهم فى انهم لايجدون الوقت الكافى للتفكير فى ارواحهم ، وفى أنفسهم على اعتبار انهم قد برءوا على صورة الله . فالجوع والبرد والارهاب المادى ، من جبال الثلج ، من شانها ان تسد المسارب جميعها امام النشاط الروحى، وامام كل شىء يميز بنى الانسان عن بنى العجماوات وتجعل الحياة جديرة بأن يحياها الانسان . وانتم تساعدونهم بالمستشفيات والمدارس ، ولكن ذلك لا يخلصهم من الاغلال ، بل على العكس من ذلك يزيدهم عبودية على عبوديتهم ، اذ انكم بادخال هذه الخرافات الجديدة على حياتهم ، تزيدون مطالبهم فضلا عن انهم

يدفعون للمجلس الاقليمي ثمن دود العلق والكتب مما يضطرهم الى مضاعفة الكد » .

وقالت ليدا بعد ان اقصت الجريدة عن وجهها : « لن اتناقش معك ، فقد سمعت كل هذا من قبل . ولكني اكتفي بان اقول لك شيئا واحدا ، وهو ان الانسان لايستطيع ان يجلس دون ان يعمل شيئا . نعم اننا لم ننقذ البشرية ، وربما كنا نرتكب اخطاء كثيرة ، ولكنا نعمل مافي وسعنا ان نعمله - ونحن على صواب . والحقيقة ان اسمى واقدس عمل يقوم به الشخص المثقف هو ان يخدم جيرانه ، ونحن نحاول ان نفعل ذلك بقدر ما تتسع له طاقتنا وامكانياتنا . واذا كنت انت لا تستحسن ما تقوم بفعله ، فليس فى وسع اى انسان ان يرضى كل انسان » .

وعلقت والدتها على ذلك بقولها : « هذا صحيح ، يا ليدا ، هذا صحيح » .

وكانت الأم تبدو وجلة دائما فى حضرة ليدا ، واذا راتها تتكلم القت نحوها نظرة عصبية خشية ان يصدر عنها قول منتقد أو غير لائق . ولكنها لم تكن تعارضها قط بل توافق على رايها دائما بقولها : « هذا صحيح ، ياليدا ، هذا صحيح » .

وقلت : « ان الكتب التعليمية الريفية المحشوة بالمواعظ الخلقية والحكم الشعبية ، ومراكز المساعدات الطبية لم يعد فى استطاعتها ان تخفف جهلهم أو تقلل نسبة الوفيات بينهم باكثر مما يستطيع الضوء المنبعث من شبابيك غرفتك ان يضيء تلك الحديقة الشاسعة . فانتم لا تفعلون لهم شيئا الا مجرد التدخل فى حياتهم وخلق مطالب جديدة لهم وبواعث جديدة لزيادة الكدح » .

فاجابت ليدا فى شيء من السخط : « ولكن مهما كان الأمر ، لابد ان يعمل لهم شيء ما ! » وكانت نغمة ردها تدل على انها تعتبر حججى تافهة ولا تستحق غير الاحتقار . »

وقلت لها : « لابد من تحرير الناس من العمل الجسمانى المرهق لابد من تخفيف اعبائهم ، ولابد ان يتوافر لهم متنفس من الوقت حتى لايقضوا كل حياتهم امام المواقد او احواض الغسيل أو كدحا فى الحقول . وانما يجب ان يكون لديهم من الوقت ما يمكنهم ايضا ن التفكير فى ارواحهم وربهم ، وما يتيح لهم الفرصة فى اظهار مواهبهم العقلية . فكل فرد له استعداده الروحى ، وهو البحث

الدائم عن الحقيقة ومعنى الحياة . حررهم من العمل الجسماني المضني ، اشعرهم بانهم يتمتعون بنعيم الحرية ، وحينئذ سترين تفاهة هذه الكتب والمستوصفات ، فان الشخص اذا شعر برسالته الحقيقية في الحياة ، لم يعد يقنع الا بالدين والعلم والفن ، ولابد ان يطرح هذه الترهات وراء ظهره » .

فاجابت ليدا متهكمة : « احررهم من العمل ! كما لو كان ذلك من الأمور الممكنة ! » .

ـ « نعم . تحملي انت عنهم بعض عملهم . فلو ان سكان المدن والقرى جميعا ودون استثناء اتفقوا على ان يقوم كل منهم بنصيب في ذلك العمل الذي ينفق فيه سواد البشرية كل اعمارهم من اجل اشباع الحاجات المادية ، فربما لم يحتج الواحد منا الى العمل اكثر من ساعتين او ثلاث ساعات في اليوم . فكري فيما يكون عليه الحال لو انا جميعا اغنياء وفقراء على السواء ، اشتغلنا ثلاث ساعات يوميا فقط ثم اصبح ملكا لنا كل ما بقي من وقتنا ! فكري ايضا فيما يكون عليه الحال لو اننا عملنا على تخفيف اعتمادنا على اجسامنا اكثر من ذلك ، واختزلنا وقت عملنا الى اقل من ذلك ، فاخترعنا الآلات لتحل محل الجهد البدني وحددنا حاجاتنا المادية الى ادنى حد ممكن ! في هذه الحال يمكننا ان نقوي انفسنا واولادنا حتى لايحتاجوا الى ان يخافوا الجوع والبرد ، وحتى لا نحتاج نحن الى القلق الدائم على صحتهم كما تفعل انا ومارتا وبيلاجيا . فكري ايضا في مقدار الوقت الذي يمكننا اقتصاده ، لو اننا لم نحتج الى العلاج الطبي ولا الى الاحتفاظ بالمستوصفات ومعامل الطباق وتقطير الخمور ! وحينئذ يمكننا ان نكرس كل هذا الوقت للعمل الجماعي في ترقية العلم والفن ، ويمكننا ان نحذو حذو الفلاحين حين يقومون كتلة واحدة للعمل في اصلاح الطرق احيانا ، فنقبل كلنا معا وعن طريق التراضي التام على البحث عن الحقيقة ومعنى الحياة ، واني لواثق كل الوثوق من انا في هذه الحال سننجح في الكشف عن الحقيقة ، وان البشرية ستتحرر من الاحتضار الدائم والخوف المهلك من الموت ، بل ومن الموت نفسه» .

فقالت ليدا : « انك تناقض نفسك . فانت تدعو للعلم وترفض فكرة تعليم القراءة والكتابة » .

ـ « ان تعليم القراءة والكتابة الذي لايساعد الشخص على

اكثر من قراءة لافتات الحانات والاطلاع من حين لحين على بعض الـكتب التى لا يفهم منها شيئا ، كان موجودا دائما فى ريفنا منـذ عهد روديك ، وقـد كان بتروشكا بطـل جوجول يعرف القراءة والـكتابة منذ زمن طويل ، ومع ذلك فان ريفنا لايزال كما كان فى أيام روديك . فليست القراءة والـكتابة هما اللتان نحتاج اليهما ، بل نحتاج الى الفراغ لـكى تظهر كل أمكانياتنا العقلية والروحية . ولسنا فى حاجة الى المدارس ، بل الى الجامعات » .

ـ « نعم، يجب الا نحتاج الى الطب الا من اجل دراسة المرض باعتباره ظاهرة طبيعـية ، لا من اجل العلاج . واذا كان لابد من العلاج ، فليكن علاج أسباب المرض ، لا المرض نفسه . ازيلى السبب الاساسى ، وهو العمل الجسمانى الشاق ، وحينئذ ستزول كل الامراض . فانا لا اعترف بعلم غايته أن يجلب الشفاء » .

ثم واصلت كلامى قائلا ، وانا فى حالة هياج عصبى : « العلم والفن لا يهدفان الى الاجراءات الجزئية المؤقتة ، بل ما هو خالد وما هو عام . انهما يبحثان عن الحقيقة وعن معنى الحياة ، يبحثان عن الله وعن النفس ، واذا ربطت حبـــــالهما بحاجات اللحظة والمستوصفات والمكتبات ، لم يكن لهما من نتيجة الا تعقيد الحياة. ان لدينا الـكثيرين من الاطباء والـكيميائيين والقـانونيين كما ان لدينا الآن الكثيرين من رجال الادب ، ولـكن ليس لدينا بيولوجيون ولا رياضيون ولا فلاسفة ولا شعراء . ان عقولنا ومجهودنا الروحى تبعثر فى سبيل اشباع حاجات عابرة مؤقتة ... فالعلماء والكتاب والرسامون يعملون بارادة من حديد ، وبفضلهم ازدادت وســائل الرفاهية فى الحياة اليومية وتضاعفت مطالبنا ، ومع ذلك فاننـا لانزال بعيدين عن الحقيقة ولايزال الانـسان انهم الحيوانات واقذرها ، وكل ما لدينا يسير بالبشرية فى مجموعها نحو الانحلال وفقدان الحيوية الذى لايمكن له اصلاح . وفى مثل هـذه الظروف تعتبر حياة الفنان خالية من كل معنى . وكلما سمت مواهبه تعذر فهم وظيفته اذ انه يبدو فى الظاهر كانه يعمل للابقاء على حيوان دنىء قذر ، وذلك عن طريق مساندته لنظام الحياة الراهنة . فانا لا أريد أن اعمل ، لا أريد ... لا شىء يحتاج اليه ، فدعى العالم يتحطم الى فتات ... » .

ونظرت ليـدا الى اختها وقالت لها : اذهبى ، يا ميس ، من

هنا، ويبدو انها اعتبرت انه لايليق بفتاة فى سنها ان تسمع كلماتى.

واخذت جينيا تتنقل بنظرتها الحزينة بين اختها وامها ثم ذهبت واتجهت نحوى وقالت : « من المعتاد أن يقول الناس مثل هذه الكلمات اللطيفة حين يريدون ان يبرروا عدم مبالاتهم . ولاشك ان انكار فائدة المستشفيات والمدارس اسهل من ممارسة العلاج والتعليم ... »

وعلقت امها على كلامها قائلة : « هذا صحيح ، ياليدا ، هذا صحيح » .

وواصلت ليدا حديثها فقالت : « تقول انك ستهجر التصوير ، فيبدو من ذلك انك تضع عملك فى اسمى مكان . اذن دعنا من هذا النقاش فلن نستطيع الاتفاق مطلقا . وذلك لأنى اعتبر اقل هذه المكتبات والمستوصفات التى اشرت اليها فى كلامك بهذا الاحتقار اسمى من كل ما فى العالم من لوحات. ثم أدارت وجهها فجأة نحو امها ، وبدأت تحدثها بصوت يختلف عن صوتها السابق كل الاختلاف ، فقالت : « ان الامير قد نحف جسمه وتغير كثيرا عما كان عليه حين كان هنا آخر مرة . وهم الآن فى سبيل ارساله الى فيشى » .

واستمرت تكلم امها عن الامير لكى تتجنب الحديث معى . وكان الدم يكاد ينفجر من وجهها لشدة اضطرابها ، ولكى تخفى هذا الاضطراب ، قربت وجهها من المنضدة الى اقصى حد ، كما لو كانت مصابة بقصر النظر ، وتظاهرت بأنها تقرأ الجريدة . واصبح من الواضح أن وجودى غير مرغوب فيه . فاستأذنت وانصرفت الى بيتى .

- ٤ -

كان السكون يخيم على الفناء . وكانت القرية كلها على الشاطىء الآخر من الغدير قد استسلمت للنوم . ولم يكن يرى خيط واحد من ضوء اللهم الا بعض الاشعة الخافتة التى تنبعث من الكواكب وتنعكس على سطح الغدير بصورة ضعيفة لا تكاد تلمع ، وكانت جينيا تقف هناك ساكنة دون حراك امام الباب الخارجى مع تماثيل الاسود فى انتظار أن ترانى خارج المنزل . فقلت لها : « انالقرية كلها تغط فى النوم » وكنت أريد بذلك أن اجد الفرصة لاستجلاء

ملامحها في الظلام ، ولكني لم ار منها الا عينين قاتمتين حزينتين تحملقان في وجهي ، فواصلت كلامي : « حتى صاحب الحانة ولصوص الخيل قد ناموا في سلام . اما نحن ، الناس المحترمون ، فاننا نضايق بعضنا بعضا بالجدل والنقاش » .

وكانت ليلة مقبضة من ليالي شهر اغسطس ، مقبضة لان بشائر الخريف كانت تحوم في الجو . وكان القمر يبزغ من وراء سحابة قرمزية اللون . ولكنه لم يكن يقوى على اضاءة الطريق الذي كانت تحيط به حقول الخريف من كلا جانبيه . وكانت الشهب تتهاوى في السماء دون انقطاع . وسارت جينا بجانبي في الطريق محاولة الا ترفع بصرها الى أعلى حتى لا ترى الشهب المتداعية ، لأن ذلك كان يخيفها لسبب ما .

وقالت لي وهي ترتعد من رطوبة المساء : « اعتقد انك على حق . فلو اننا جميعا كرسنا انفسنا للنشاط العقلي متضامنين معا ، لما توانينا عن اكتشاف كل شيء »

ـ « بلا جدال . فنحن كائنات عليا ، ولو عرفنا كيف نقدر العبقرية البشرية حقا وعشنا من اجل الاهداف العليا وحدها ، لاصبحنا في نهاية الأمر مثل الآلهة . ولكننا لن نصل الى ذلك قط ـ فالبشرية في طريقها الى الانحلال والعقم ، وبعد قليل لن يبقى هنا أثر للعبقرية » .

وحين اختفى عن بصرنا منظر الابواب الخارجية توقفت جينيا وضغطت على يدي بسرعة وقالت : « ليلة سعيدة ولا تنس ان تأتي غدا » . وكانت ترتجف لأنه لم يكن عليها من الثياب الا صدرية خفيفة ، فكانت أسنانها تصطك من البرد .

وكانت فكرة تركي وحدي وانا في هذه الحالة من الاضطراب وعدم الرضا عن نفسي وعن غيري تزعجني الى اقصى حد ، وبدأت انا ايضا احاول الا انظر الى الشهب المتهاوية .

فقلت لها : « ابقي معي قليلا ، ارجوك ! » .

لقد كنت احبها . ويبدو اني وقعت في حبها من اجل طريقتها في استقبالي وتوديعي ، ومن اجل نظرات الحنان والاعجاب التي كانت تلقي بها الي ، وكان وجهها الشاحب وعنقها وذراعاها النحيلتان ورقتها وكسلها وكتبها ، كل ذلك كان يجذبني اليها جذبا قويا . وعقلها ؟ أما من هذه الناحية فقد قر في نفسي انها ذات عقل غير

عادي . وقد اعجبت بسعة افقها ، وربما كان مرجع ذلك الى انها تختلف فى تفكيرها عن ليدا القاسية الوسيمة التى لم تكن تحبني. اما جينيا فقد احبتنى باعتباري فنانا واستوليت انا على قلبها بموهبتي . وتمنيت من كل قلبي الا اصور الا لها وحدها ، واصبحت احلم بها باعتبارها مليكتي الصغيرة التي ستجلس معى على عرش هذه القرى والحقول والضباب ووهج الاصيل ، وهذا الريف البهيج الجميل الذى لازلت حتى ذلك الحين اشعر فى وسطه باني وحيد دون امل ، وعالة ليس من ورائه أى نفع .

وكررت رجائى لها قائلا : « انتظرى قليلا ، بضع دقائق ، لا اكثر » .

ونزعت جاكتتى والقيتها على كتفيها المرتجفتين .

وكانها خشيت ان تبدو مضحكة قبيحة فى جاكتة الرجل ، فضحكت والقت بها بعيدا عنها . وطوقتها بذراعى وامطرتها وابلا من قبلاتى على وجهها وكتفيها ويديها .

وهمست فى اذنى قائلة وهى تقبلنى بحذر كأنها تخشى أن تقلق سكون الليل :

« الى أن يحين الغد ساخبر امى واختى بكل شىء فورا . اذ ليس لدينا سر تخفيه احدانا عن غيرها ... اوه ، ياعزيزى ، انى فى غاية القلق ! اما امى فامرها معروف ، انها تكن لك كل تقدير ـ ولكن ليدا » .

وانطلقت تعدو نحو الباب الخارجى .

وصاحت بى : « الى اللقاء » .

ووقفت انصت لوقع خطاها القافلة لمدة دقيقة او دقيقتين . وتسمرت قدماى فى الارض ، فلم ارد الرجوع الى البيت . ولم يكن هناك ما يدعونى للرجوع اليه . وبقيت فى مكانى لحظة اخرى غارقا فى افكارى. وقفلت راجعا ببطء لألقى نظرة اخرىعلى المنزل الذى تعيش فيه . ذلك المنزل القديم العزيز البرىء بشبابيكه العلوية التى كانت كانها تنظر الى بعيونها ، وكانها تفهم كل شىء . وعبرت امام الشرفة وجلست فى الظلام على مقعد تحت شجرة صفصاف عتيقة بالقرب من ملعب التنس ، واخذت اتطلع الى المنزل. ورأيت فى شبابيك الطابق الاعلى ، حيث غرفة ميس ، ضوءا وهاجا ما لبث أن استحال الى اللون الاخضر القاتم ، ذلك أن يدا ما قد

وضعت على المصباح غطاء اخضر . ورايت ظلالا تتحرك ...
وشعرت بقلبى يمتلىء بالحنان والطمانينة والسرور، ويفيض بالبهجة
حين اكتشف انه قادر على الوقوع فى الحب ومع ذلك فقد كان
القلق يساورنى لعلمى ان ليدا تعيش فى احدى غرف المنزل على
بعد خطوات من هناك ، ليدا التى لا تحبنى ، ولعلها تبغضنى .
جلست هنالك منتظرا ظهور جينيا ، وارهفت اذنى للانصات حين
خيل لى انى أسمع كلاما فى الطابق العلوى .

ومرت ساعة او نحو ساعة . واطفىء النور الاخضر، واختفت
الظلال . وارتفع القمر فى السماء حتى تجاوز المنزل ، وجعل يبعث
بضوئه على الحديقة النائمة والممرات المهجورة . وكانت ازهار الداليا
والورود تطل متميزة من احواضها امام المنزل ، ولكنها كانت تبدو
جميعا فى لون واحد. ولم يلبث الجو أن اشتدت برودته. فغادرت
الحديقة ، والتقطت جاكتتى التى كانت لا تزال ملقاة فى عرض
الطريق ، وسرت هائما على وجهى فى بطء نحو المنزل .

وحينما عدت الى آل فلشانينوف بعد ظهر اليوم التالى ، وجدت
الباب الزجاجى الذى يؤدى الى الحديقة مفتوحا على مصراعيه .
فجلست فى الشرفة مؤملا ان ارى جينيا تظهر فجاة فى ملعب التنس
او فى احد المسارب ، وارهفت اذنى لعلى أسمع صوتها مقبلة من
داخل المنزل . وبعد ذلك ذهبت الى قاعة الجلوس ثم الى غرفة
المائدة . ولكنى لم المح احدا . فسرت من قاعة الطعام خلال الممر
الطويل حتى وصلت الى الردهة ، ثم قفلت راجعا. وفى هذه الاثناء
وجدت عدة أبواب مفتوحة فى الممر ، واستطعت أن أسمع صوت
ليدا فى احدى الغرف ، كانت تقول بصوت عال ، ونبرات واضحة
متميزة ، تاركة برهة من الصمت بين كل كلمة وأخرى .

« ... قطعة من الجبن ... الغراب ... » فلعلها كانت تملى
شيئا على احد امامها . ولما سمعت وقع اقدامى صاحت :

ــ «من هناك ؟ » .

ــ « انا » .

ــ « لا تؤاخذنى ، اذا كنت لا أستطيع المجىء الآن ، فانى القى على
داشا درسها » .

ــ « هل بيكاترينا بافلوفنا فى الحديقة ؟ »

فاجابت : « كلا . لقد ذهبت هى واختى منذ هذا الصباح لزيارة

عمتى فى اقليم بنزا . ومن المحتمل أن يقضيا الشتاء القادم خارج القطر » .

وبعد برهة صمت واصلت كلامها قائلة : « كان ... غراب ... قد وجد ... فى مكان ما ... قطعــة من الجبن ... هــل كتبت هذا ؟ » .

وذهبت الى الردهة حيث جلست هناك احملق فى الغــدير وفى القرية البعيدة وكانت هذه الكلمات لا تزال ترن فى أذنى « ... قطعة من الجبن .. كان .. الغراب .. قد وجد .. فى مكان ما .. قطعة من الجبن ... »

وغادرت الضيعة من نفس الطـــريق الذي اقبلت عليها منه للمرة الأولى ولكن فى اتجاه عكسى . فخرجت من الفناء الى الحــديقة . ودرت حول المنزل حتى وصلت الى ممر اشـــجار الزيزفون ... وهناك جرى خلفى غلام صـــغير . وناولنى ورقة مكتوبة . فقرات فيها : « أخبرت أختى بكل شيء وقد صممت على أن نسافر . ولم يطق قلبى أن أسبب لها الحزن بعصيانى اياها . أدعو الله ان يمتعك بالسعادة ـ واغفر لى ! آه . لشـد ما صحنا صياحا مرأ . انا وامى ! » .

وكنت قد وصلت الى ممر الصنوبر والسياج المتـــكسر ... اما الحقل الذى رايت فيه الشعير مزهرا والقبرة تغرد، فقد أصبح الآن مـرحا للبقر والخيل. وكانت المزروعات الشتائية تغطىقمم التلول ببساط أخضر ، وأخذت أحاسيس الحياة اليومية التافهة تسيطر على نفسي . وبدأت أشعر بالخجل من كل ما قلته لدى آل فلشانينوف . ومرة أخرى أصبحت الحياة بالنسبة لي مسألة رتيبة مملة . وماكدت أصل الى غرفتى حتى حزمت متاعى واستقللت القطار الى بطرسبورج فى المساء نفسه .

ولم أعد أسمع شـــيئا عن آل فلشـــانينوف . ولـكنى قابلت بيلوكوروف مصادفة فى القطار منذ وقت غير طويل . وانا فى طريقى الى القــرم . وكان لا يزال يلبس جاكتته الريفية وقميصه المطرز . وحينما سالته عن حاله اجابنى بقوله : « على خير ما يرام . بفضل صلواتك ! » واخذنا نتجـــاذب أطراف الحديث فعلمت منه انه باع ضيعته واشترى اخرى غيرها أصغر منها باسم ليوبوف ايفانوفنا . ولـكنى لم اعرف منه الشيء الكثير عن آل فلشانينوف : فليدا لاتزال

تقيم فى شلكوفكا وتقوم بالتدريس فى مدرسة القرية . وقد استطاعت بالتدريج أن تجمع حولها طائفة من الناس الموالين لأفكارها ، واصبحوا يكونون حزبا قويا امكنه فى آخر اجتماع للمجلس ان ينجح فى اسقاط بالاجين الذى ظل حتى ذلك الحين قابضا على أمور الاقليم بيديه .
أما جينيا فكان ماقاله لى عنها انها لم تعد تعيش فى المنزل ، وانه لا يعرف اين تقيم .

وبدأت أنسى المنزل ذا الغرفة العلوية ، ولكنى كلما جلست للرسم او للقراءة تذكرت — دون سبب واضح — ذلك الضوء الاخضر فى الشباك ، ووقع اقدامى يتردد صداه فى الحقول ، وتلك الليلة التى عدت فيها الى البيت أدفىء يدى المقرورتين ، وقلبى عامر بالحب . وما زلت حتى الآن استسلم فى بعض الأحيان لذكريات غامضة ولاسيما فى لحظات الوحدة والانقباض، حتى وصلت بالتدريج الى الشعور بانى أنا الآخر موضوع للتذكر والانتظار ، وأننا سنلتقى ...

فأين انت ... يا ميس ؟

يونيـــك



يونيك

كان الوافدون الجدد على مدينة « س » اذا شكوا من ملل الحياة ورتابتها فى المدينة ، انبرى لهم السكان القدامى للدفاع عن مدينتهم ، وذكروا من مزاياها انها خير المدن وان بها مكتبة ومسرحا وناديا ، وان حفلات الرقص تقام بها من حين لحين ، وأن بها ، فى نهاية الامر كثيرا من الاسر الممتازة الممتعة المرحة التى يمكن التعرف بها . وكانوا يذكرون اسرة تروكين على انها مثل أعلى للثقافة النادرة والمواهب الفذة ...

وكان آل توركين يقطنون الشارع الرئيسى بجوار مقر المحافظة ، فى بيت يملكونه . وكان رب هذه الأسرة رجلا انيقا ممتلىء الجسم اسود الشعر يطلق سالفيه . وقد اشترك فى الحفلات التمثيلية المخصصة للأغراض الخيرية ، حيث كان يقوم بدور القواد الهرمين ، ويتصنع السعال اذا اراد تسلية السامعين واضحاكهم الى اقصى حد . وكان لديه مستودع من النوادر والأحاجى والأمثال ؛ ويغرم بالسخرية والمزاح بل كان بهلوانا حقيقيا يقذف بالنكتة دون أن تعرف من قسمات وجهه ما اذا كان مازحا ام جادا . اما زوجته ، فيرا يوسيفوفنا ، فكانت سيدة نحيلة الجسم ، رضية الوجه تضع على عينيها نظارة مثبتة على الأنف . وتقوم بكتابة بعض القصص والحكايات التى كانت مستعدة دائما لقراءتها بصوت عال أمام الزائرين . وكانت لهما ابنة تسمى بيكاترينا تعرف العزف على البيانو . وقصارى القول أن كل عضو فى هذه الأسرة كان يتمتع بموهبة ما . وقد عرف آل تروكين بانهم مثال كرم الضيافة وانهم يعرضون مواهبهم ببساطة تامة ودون تدلل . وكان منزلهم المشيد بالأحجار الضخمة معتدل الجو دائما فى الصيف حيث كانت شبابيكه

الخلفية تطل على حديقة عتيقة وارفة الظلال يسمع فيها شــدو العندليب كلما اقبل الربيع . واذا كان لديهم بعض الضيوف امتلأ الجو بضوضاء السكاكين التي تشحذ في المطبخ وفاحت رائحة البصل المقلي في الدسم ايذانا بتقديم صفحة كبيرة من الحساء اللذيذ .

ولم يكد يعين الدكتور ديمتري يونيك ستارتسيف طبيبا بالمجلس الاقليمي ويستقر في مسكنه بدياليج التي تبعد عن « س » بنحو تسعة فراسخ ، حتى اخبر ان من واجبه ، باعتباره شــخصا مثقفا ، ان يبادر بعقد صلات المعرفة مع آل توركين . وقد قدم ايفان بتروفتش في الشارع في يوم من ايام الشتاء . وهناك تناقشا في الجو والمسرح والكوليرا الوبائية ، ثم تبع ذلك توجيه الدعوى . وحدث في يوم عطلة دينية من ايام الربيع . وكان يوم الاسراء ـ ان انتهى ستارتسيف من عيادة مرضاه في وقت مبكر ، فعقد العــزم على الذهاب الى المدينة بقصد الترفيه عن نفسه ، وانتهز فرصة وجوده فيها لشراء بعض الاشياء الضرورية . وانطلق على قدميه بخطا متباطئة (اذ لم يكن قد اعد عربته الخاصة بعد) ، ولكي يهون على نفسه وحدة الطريق ، راح يغني لنفسه بصوت خفيض :

« قبل ان اتعلم كيف اشرب الدمع من كأس الحياة » .

وتناول غداءه في المدينة ، ثم ذهب يتمشى نحو الحديقة العامة ، وفي هذه الأثناء طرأت على ذهنه دعوة ايفان بتروفتش ، فعزم على زيارة آل توركين ليرى اي نوع من الناس هم .

وصاح ايفان بتروفتش الذى قابله امام الباب : « هاو دى ! هاو دى ! » ثم قال : « اني في تمام الانشراح لرؤية مثل هذا الزائر العزيز ، تفضل بالدخول حتى اقدمك لنصفي الأحلى » . وواصل كلامه قائلا : بعد أن قدم الدكتور الى زوجته « كنت اقول له انه ليس له من حق ارضي في ان يلصق بمستشفياه ، وان من واجبه ان يهب فراغه للمجتمع . وانا على حق ، يا حبيبتي ، اليس كذلك ؟ » .

وقالت فيرايوسيفوفنا مشيرة الى المقعد المجاور لمقعدها : « اجلس هنــا ، وفي وسعك الا تتحرج ... فان زوجي في غيرة عطيــل ، ولكننا سنحاول ان يكون امرنا سرا مكتوما ، اليس كذلك ؟ » .

فاقبل ايفان بتروفتش على زوجته وطبع قبلة على جبينها ، ثم تمتم بصوت يفيض بالحنان « ايتها الساحرة الصغيرة ! » وبعدها اتجه من جديد الى الزائر ، وقال : « لقد احسنت اختيار اللحظة

أنتي تزورنا فيها ! فان نصفي الأحلي قد انتهت لتوها من كتابة قصة عظيمة ضخمة . وستقرأها بصوت عال هذا المساء » .

ونظرت فيرايوسيفوفنا الي زوجها ، وقالت بالفرنسية : « حبوبي جان ، اخبرهم بأن يحضروا الينا شيئا من الشاي » .

وبعد ذلك قدم ستارتسيف الى بيكاترينا ايفانوفنا ، وهي فتاة تقدمت بها السنون لا يقل عمرها عن الثامنة والعشرين ، صورة طبق الأصل من امها ، ونحيفة الجسم مليحة الوجه مثلها . ولكن ملامح وجهها كانت لا تزال تعبر عن الطفولة ، اما قوا فكان رقيقا ممشوقا وكان صدرها العذري في صحته وجماله يبدو في مستهل تدرجه نحو الكمال ويوحي بانبثاق فجر الربيع ، الربيع الحقيقي لا المجازي .

وبعد ذلك جلس الجميع لاحتساء الشاي مع شيء من المربى والعسل والحلوى ونوع غريب من البسكويت الذي كان يذوب في الفم بمجرد وضعه على اللسان . ولما اقبل الظلام بدأ الزوار يتوافدون ، وكان ايفان روفتش يستقبلهم بعينين ضاحكتين ، ويقول لكل منهم «هاودي هاودي !» وحين اكتمل عقدهم اتخذو أماكنهم في قاعة الاستقبال وعلى وجوههم سيما الجد والوقار واخذت فيرايوسيفوفنا تقرأ قصتها وكانت تبدأ بهذه الكلمات : « كان الجو باردا برودة مرة ... » وكانت شبابيك القاعة مفتوحة على اقصى اتساعها حاملة الى اسماع الحاضرين ضوضاء السكاكين التى تشحذ في المطبخ ورائحة البصل والدسم اللذين تعمل فيهما النار ...

وكان الجميع يجلسون هادئين مسترخين في مقاعدهم الوثيرة تحت اضواء الشموع الخافتة . وكان الجو صائفا جميلا ، واصوات الناس وضحكاتهم تتعالى في الشارع ، ورائحة ازهار البجل تنبعث في الحديقة خلال الشبابيك فتنتشر في القاعة عرفا شذيا. لذلك لم يكن في طاقة الحاضرين أن يتخيلوا أن « الجو بارد برودة مرة » وأن شمس الغروب ترسل اشعتها الباردة على السهل المغطى بالثلوج وعابر السبيل الوحيد . واستمرت فيرايوسيفوفنا تقرأ كيف أن الكونتيسة الجميلة الشابة قد شيدت المدارس والمستشفيات والمكتبات في قريتها ، وكيف وقعت في حب فنان ساحر ، وراحت تصف اشياء لم تحدث قط في عالم الواقع ومع ذلك فقد كانت الجلسة مريحة حالمة جعلت الحاضرين يقبلون على الانصات بسرور عظيم تاركين لأذهانهم العنان لكي تسبح بين عوالم وافكار اخرى حتى انه لم يدر بخلد واحد منهم ان يغادر المكان ...

فقال ايفان بتروفتش في صوت خافت : « لا بأس ! » .

ورد زائر كان ينصت وافكاره في مكان بعيد ، بعيدا جدا عن هذا المكان وقال بصوت لا يكاد يسمع : « نعم » ، في الحقيقة ... »

ومرت ساعة واخرى ، وكانت هناك فرقة موسيقية تغنى في الحديقة العامة القريبة من المنزل ومعها فرقة غناء جماعي . فلما اتلفت فيرابوسيفوفنا مسودتها مكث الحاضرون خمس دقائق في صمت تام ، لأنهم كانوا ينصتون الى « لتشينوشكا » التي كانت تغنيها الفرقة الجماعية ، وكانت تحدثهم عما لم يعثروا عليه في القصة . وعن الحياة الواقعية .

ونظر ستارتسيف الى فيرابوسيفوفنا وسألها : « وهل تنشرين اعمالك الادبية في المجلات ؟ » .

فاجابت : « كلا ، انا لا انشرها على الاطلاق . بل اكتبها واضعها في القمطر» . ثم اضافت على سبيل الايضاح : « ولماذا انشرها ؟ ان لدينا المال الكافي لكي نعيش عيشة رخية » .

ولأمر ما تنهد الحاضرون جميعا .

وقال ايفان بتروفتش لابنته : « والآن جاء دورك ، ياكتين لكى تعزفي لنا احدى المقطوعات » .

فرفع غطاء البيانو الكبير ، واعدت كتب الموسيقى على الحامل ، وفتحت الآلة الموسيقية . وجلست بيكاترينا ايفانوفنا على مقعدها ثم ضغطت على الازرار بكلتا يديها ، وضغطت عليها ثانية بكل قواها ، ثم ثالثة ورابعة . واخذ كتفاها وصدرها تتموج وتعلو وتهبط ، واستمرت هي تقرع الازرار في مكان واحد كما لو كانت تنوى الا تتوقف قبل ان تدك الازرار داخل البيانو . وامتلأت القاعة بالرعد ، فكان كل شيء يرعد ، الارض ترعد والسقف يرعد والاثاث يرعد ... ولعبت بيكاترينا ايفانوفنا قطعة معقدة تنحصر كل ميزتها في انها صعبة التنفيذ وكانت قطعة طويلة رتيبة ، حتى ان ستارتسيف كان يصغى اليها وهو يرسم في مخيلته صخورا تنهال من قمة جبل شامخ واستمرت تنهال وتنهال الواحدة بعد الاخرى وهو يود لو انها توقفت ، بالرغم من انه كان ينظر الى بيكاترينا ايفانوفنا في وضعها امام البيانو وقد تورد خداها من شدة المجهود وتهدلت خصل من شعرها على جبينها ، فيرى فيها جاذبية قهارة .

والواقع انه كان يشعر بمتعة وسرور اذ وجد نفسه ، بعد شتاء

طويل قضاه فى دياليج بين المرضى والفلاحين ، يجلس فى قاعة جلوس وينظر الى هذه الشابة الانيقة والمخلوقة البريئة وينصت الى تلك الاصوات الصاخبة التى وان كانت مملة ، فانها اصوات مثقفة على اية حال ...

وحين انتهت من العزف ونهضت من مكانها ، اقبل عليها والدها يقول لها والدموع تنحدر من عينيه : « حسن جدا ياكتين ، لقد تفوقت على نفسك فى هذه الليلة . لن تستطيع يادنيس أن تتجاوز ذلك ولو قضيت نحبك فى المحاولة » .

واحاط بها الحاضرون واخذوا يتبارون فى تقديم تهانيهم لها واظهار اعجابهم بها ، ويقسمون انهم لم يسمعوا مثل هذه الموسيقى منذ آماد وآماد ، على حين وقفت هى تصغى اليهم فى صمت وعلى وجهها ابتسامة خفيفة وكل ملامحها تعبر عن الانتصار . والكل يصيحون : « عظيم ! رائع ! »

وراى ستارتسيف نفسه يستسلم هو الآخر لموجة الحماس العام فيصيح : « رائع ! رائع ! » .

ثم سالها : « اين درست ؟ افى معهد الموسيقى ؟ » .

ــ « كلا ، انى فقط احضر لدخول المعهد . وفى هذه الفترة اتلقى دروسا على مدام رفلوفسكايا » .

ــ « هل تخرجت هنا من المدرسة العليا ؟ » .

فاجابت عنها فيرايوسيفوفنا بقولها : « أوه ، كلا لقد احضرنا لها المدرسين فى البيت . لا شك انك تتفق معى فى انه قد تقع تاثيرات سيئة فى المدرسة العليا او فى مدرسة داخلية ما . والواجب الا تقع البنت اثناء نموها تحت اى تاثير آخر غير تاثير امها » .

وقالت يكاترينا ايفانوفنا : « ولكنى اعتزم دخول معهد الموسيقى » .

ــ « اوه كلا . ان عزيزتنا كتين تحب امها . وعزيزتنا كتين لن ترضى بايلام ابيها وامها » .

فاجابت يكاترينا ايفانوفنا فى دلال يثير الضحك ، وهى تضرب الارض بقدميها « ساذهب ، ساذهب ! » .

وفى اثناء العشاء كان الدور على ايفان بتروفتش لكى يظهر مواهبه . فاخذ يبتسم بعينيه وحدهما وهو يقص نوادره ويمزح ويعرض مسائل هزلية ثم يحلها هو نفسه ولم يكن يتكلم فى كل ذلك

الا لغته الخاصة التي حصلها من طول ممارسته للمحاكاة الهزلية واصبحت الآن ، على ما يبدو ، عادة لا تفارقه . فكان يقول مثلا « راعاع لم بطال ، اشكرك بكل تواضعضع » .

ولكن ذلك لم يكن كل شيء . فحينما ذهب الأضياف مسرورين متجهين الى الردهة للبحث عن معاطفهم وعصيهم اخذ يحوم حولهم الغلام يافيل ، أو يافا كما كانوا يسمونه ، وهو خادم مستدير الراس فى الرابعة عشرة من عمره .

وهنا قال له ايفان بتروفتش : « هيا ، يا يافا ، هيا ! » .

فالقى الغلام بنفسه فى وضع ما ، ورفع احدى يديه ، وراح يقول فى نغمة مؤسية : « اهلكى ، ايتها الأنثى التعسة ! » .

وضحك الجميع .

وقال ستارتسيف فى نفسه ، وهو يغادر البيت : «شيء مسل !» .

وقصد أحد المطاعم لاحتساء البيرة ، ثم قفل راجعا الى دياليج ، وهو يتمتم طول الطريق بالأغنية : « تلك النبرات الذائبة من صوتك الحنون ... »

ووصل الى بيته بعد ان قطع ستة أميال على قدميه وذهب من فوره الى فراشه وهو لا يشعر بأدنى اثر للتعب ، بل كان يقول فى نفسه ان فى مقدوره قطع ستة اميال أخرى وهو على تمام راحته .

ثم اخذ يضحك وهو فى سبيله الى النوم ويقول : « لم بطال ! » .

- ٢ -

وقرر ستارتسيف فى نفسه أن يعود الى زيارة آل توركين . ولكن عمله فى المستشفى كان يستغرق كل وقته ، فلم يستطع تدبير ساعة او ساعتين من الفراغ . وهكذا مر عليه عام كامل فى العمل والوحدة ، وفى ذات يوم تسلم خطابا أزرق اللون مرسلا اليه من المدينة ...

كانت فيرايوسيفوفنا تتألم منذ وقت طويل من نوبات الصداع التى تصيبها، ولكن هذه النوبات صارت تتكاثر من جراء تهديد كتين بالذهاب الى معهد الموسيقى . وقد قام أطباء المدينة جميعا بزيارة آل توركين ، واخيرا جاء دور طبيب المجلس الاقليمى للقيام بهذه الزيارة . فكتبت اليه فيرايوسيفوفنا خطابا مؤثرا ترجوه فيه الحضور لعله يستطيع التخفيف من آلامها . واستجاب ستارتسيف لرجائها ثم تكررت

زياراته لآل توركين .. والواقع انه بذل مجهودا لمساعدة فيرايوسيفوفنا بعض الشيء حتى انها راحت تخبر كل زوارها بانه طبيب ممتاز وليس له مثيل . ولكن صداعها لم يعد هو الباعث له على تكرار زيارته لآل توركين ...

كان يوم عطلة . وبعد ان انتهت بيكاترينا ايفانوفنا من تمريناتها الطويلة المملة على البيانو ، جلس الجميع يتناولون الشاى فى قاعة الطعام . وكان ايفان بتروفتش فى وسط احدى حكاياته المسلية حين سمع جرس الباب يدق ، فاضطر الى الخروج لاستقبال احد الزائرين . وانتهز ستارتسيف الفرصة ليهمس فى اذن بيكاترينا ايفانوفنا . وهو فى حالة اضطراب شديد :

« استحلفك الله الا تتركيني فريسة لهذا العذاب ، فهيا بنا نخرج الى الحديقة » .

فهزت كتفيها كما لو كانت قد فوجئت بهذا الطلب ، ولم تفهم ما يريده منها ولكنها نهضت من مكانها وغادرت القاعة .

فقال لها ستارتسيف وهو يتبعها الى الحديقة : « انك تمارسين العزف على البيانو لمدة ثلاث ساعات او اربع. وبعد ذلك تجلسين مع والدتك ، ولذلك لا اجد امامى اية فرصة لأفضى اليكم ببضع كلمات فاتوسل اليك ان تمنحينى ربع ساعة فقط من وقتك ! » .

وكان الخريف فى سبيله الى القدوم ، واصبح يخيم على الحديقة العتيقة جو من السكون والانقباض ، وتفطت مساربها بالاوراق الميتة ، وبدأ النهار يقصر والليل يطول .

وواصل ستارتسيف حديثه قائلا : « لم ارك منذ اسبوع كامل ، وانت لا تعلمين مقدار الالم الذى اعانيه من جراء ذلك ! فهيا نجلس ، لانى اريد ان اتكلم معك » .

وجلسا فى مكانهما المفضل فى الحديقة ، وهو مقعد تحت شجرة عتيقة فرعاء ، والآن اصبحا جالسين معا على المقعد .

وسالته بيكاترينا ايفانوفنا بصوت فاتر يشبه صوت اصحاب الاعمال :

« ماذا تريد ؟ » .

ــ « لم ارك منذ اسبوع كامل ، ولم اسمع صوتك منذ آماد طويلة وهانذا اذوب شوقا واحترق ظما لسماع صوتك. فتكلمى!» .

والحقيقة ان ستارتسيف قد وقع اسيرا لنضارتها وبراءة نظرتها

وسذاجة خديها . فأصبح يرى كل مافيهـــا جذابا ، حتى طريقة ملبسها كان يرى فيهـــا حلاوة غير عادية ، ورقتها البسيطة كان يحس لهـا تأثيرا تذوب له القلوب . وفى الوقت نفسه كانت تبدو له ، برغم براءة نفسها ، مجتهدة ذكية ، على درجة من رجاحة العقل تربو على سنها . فكان فى مقدوره أن يتحدث معها فى الأدب والفن وكل مايعن له ، وأن يبثهـا شكواه من الحياة والناس ، وذلك بالرغم من انفجارها بالضحك فى بعض الأحيان او قيامهـــا دون سابق انذار وانطلاقها الى البيت عدوا أثناء انشغالهما بالحـــديث فى موضوع جدى ، ولكنها على كل حال كانت شغوفة بالقراءة كما هى العـــادة لدى معظم البنات فى مدينة « س » (كان الاقبال على القراءة ضعيفا جدا فى هذه المدينة حتى أن أصحاب المـــكاتب فيهـا كانوا يعلنون دائما أنه لولا البنات والشبان لاضطروا الى اغلاق مكاتبهم) وكان ذلك يغمر ستارتسيف ببهجة لا حد لها . فكان كلمـــا قابلها سألها عمـا قراته فى الأيام السابقة ، واخذ ينصت لجوابهـــا بشغف وسرور عظيمين .

وفى هذه المرة سألها : « ماذا قرات خلال هذا الاسبوع منذ أن تقابلنا آخر مرة . هيا ، حدثينى ! » .

ـ « كنت اقرأ بيسيمسكى » .

ـ « اى كتبه ؟ » .

ـ « الف نفس . وياله من اسم عجيب ، ذلك الاسم الذى يطلق على بيسيمسكى ، أعنى : الكساى فيوفيلاكتيس ! » .

وفجأة نهضت الفتاة متجهة نحو باب المنزل ، فصاح ستارتسيف مذعورا : « الى أين تذهبين ؟ انى أريد أن أحدثك ، لدى شيء أريد أن أقوله لك ... انتظـــرى ولو خمس دقائق ، أتوسل اليك أن تبقى ! » .

فتوقفت كما لو كانت تريد أن تتحدث ، والقت فى يده من خلفها ورقة مكتوبة ، ثم سارعت الى المنزل ، حيث جلست من فورها أمام البيانو من جديد .

وقرأ ستارتسيف فى الورقة : « اذهب الى المقبرة أمام قبر ديمتى فى الساعة الحادية عشرة من هذا المساء » .

ولما افاق من دهشته ، أخذ يقول فى نفسه : « والآن جاء دور السخف . لماذا فى المقبرة ؟ ولأى أمر ؟ » .

الأمر واضح كل الوضوح : فقد كانت كتين تحاول السخرية منه . اذ ليس هناك اى شخص يتمتع بكامل قواه العقلية يقدم على تحديد موعد ليلى فى مكان يبعد عن المدينة كل هذا البعد ، اذا كان من الممكن التقابل بكل سهولة فى الشارع او فى حديقة البلدية . هل وصل به الحال ، وهو طبيب المجلس الأقليمى والشخص الذكى الذى يجمع الكل على احترامه ان يتوله فى حب فتـــاة ويتلقى منها الخطـابات ويجوب المقابر بحثا عنها مرتكبا بذلك من الحماقات مايضحك منه اى تلميذ من تلامذة المدارس المعاصرة ؟ والام يمكن ان تؤدى به هــذه المسألة ؟ وماذا يمكن أن يقول عنه زملاؤه اذا وقفوا على جلية ذلك الامر ؟ هذه الأفكار التى كانت تدور فى خاطر ستارتسيف وهو يتسكع بين مناضد النادى نحو الساعة العاشرة والنصف حين راى نفســه ينطلق فجاة فى طريقه الى المقبرة .

وكان ستارتسيف فى ذلك الحين يمتلك عربة يجرها جوادان ولديه حوذى يسمى بنتليمون يلبس صدرية من المخمل . وفى هذه الليلة كان الجو ساكنا دافئا ولكنه دفء الخريف . وما كان ستارتسيف يقترب من المذبح فى اطراف المدينة حتى علا نباح الكلاب المتجمعة حوله فترك عربته هناك فى شارع جانبى وواصل السير الى المقبرة على قدميه وهو يقول فى نفســه : «كل شخص له اطواره الغريبة ! وكتين فتاة غريبة الاطوار . من يدرى لعلها جادة فيما قالت ، ولعلى اجدها هناك حقا واستسلم لتخدير هذا الأمل المضحك الضعيف .

وكان الجزء الاخير من الطريق يمر عبر حقل ، وكانت المقبرة تبدو من بعيد كالشريط الأسود كأنها قطعة من غابة أو حديقة كبيرة . وبعد مدة لمح ستارتسيف جدارا من الحجر الأبيض . ثم بابا كبيرا ... وفى ضوء القمر استطاع ان يقرأ على الباب هذه الكلمات : « ستدق ساعتك أنت ايضا » ودفع خوخة الباب فوجد نفسه فى ممشى فسيح تحف به الصلبان والشواهد واشجار الحور من كلا جانبيه ، وكان كل ما هناك اما أسود أو ابيض ، والأشجار الحالمة تنتشر اغصانها فوق الأحجار البيض وكان الضوء يبدو هنا اسطع منه فى الحقل ، وسعف النخيل يبدو كمخالب الوحوش ، فيتعارض اشد التعارض مع رمل الممرات الأصفر واحجار الشواهد البيضاء . وكانت الكتابات التى فوق القبور واضحة امام البصر تمام الوضوح . وقد احس ستارتسيف احساسا غريبا حين فكر انه يرى للمرة الأولى فى حياته شيئا ربما

لن يعود الى رؤيتــه مرة اخــرى ، ان يرى عالما يختلف عن غيره من العوالم ، عالما يبدو فيه ضوء القمر ناعما عذبا كما لو كان هــذا المكان مهدا له ، عالما يخلو من الحياة ، من كل حياة ، ولكن يحس المرء فى كل شجرة من اشجاره وفى كل قبر من قبوره بوجود سر ملىء بوعود الحياة الأبدية العذبة المطمئنة . وكان الحزن والسلام يتصاعدان كالشذى من شواهد القبور والأزهار الذاوية ورائحة اوراق الخريف الميتة .

وكان السكون يخيم فى كل مكان ، والنجوم ترنو من السماء الى الأرض وكأنهــا تغض من نظرتهــا استكانة وخشوعا . وكان وقع اقدام ستارتسيف يبدو كالنشــاز المزعج فى وسط هذا الائتلاف الشامل ، وكان ستارتســيف سابحا فى عالم الخيال يتصور انه قد مات ووورى التراب الى الأبد حين دقت اجراس ساعة الكنيســة ، فثاب من خياله وشعر كما لو كان احد ينظر اليه ، وجال بخاطره لحظــة ان ذلك ليس سكونا ولا سلاما ، ولكنه الانقباض العميق الذى يوحى به العــدم واليأس المكتوم .

وكان ضريح ديمتى فى صورة كنيسة على سطحها تمثــال ملاك . وذلك انه كان قد حدث فيما مضى ان زارت مدينة « س » فرقة أوبرا ايطالية وماتت احدى مغنياتها ودفنت فى المدينة ، فاقيم هذا الضريح احياء لذكراها . ولم يعد الآن احد فى المدينة يذكر عنها شيئا ، ولكن المصباح المعلق على مدخل قبرها يعكس ضوء القمر ويبدو كما لو كان فى سبيله الى الاحتراق .

لم يكن يبدو فى الافق اى انسان . ومن ذا الذى كان يتأتى له ان يأتى الى هنا فى منتصف الليل ؟ ولــكن ستارتســيف ظل ينتظر ، كما لو كان ضوء القمر قد الهب عاطفته ، فظل ينتظر ويصور فى نفســه ضروبا من القبل والعنــاق ... وجلس بجانب القبر نحو نصف ساعة ، ثم بدأ يتمشى فى الممرات الجانبية ، وقبعته فى يده ، ويقول فى نفســه كم من امرأة وفتاة من يثوين فى هذه الرموس ، كن جميلات فاتنات وقد احببن واحترقن بلهيب العاطفة فى هجوع الليل وهن يستسلمن لمداعبات عشاقهن . فيا له من دور محزن ذلك الذى تلعبه امنا الطبيعة تجاه الكائنات البشرية ! ويا له من اذلال ان نعترف بذلك ! وبعد ان انتهى ستارتســيف من وزن كل هذه الامور ، شعر فى نفسه برغبة ملحة فى ان يصيح بأعلى صوته بأنه

لابد له من ان يحب بأى ثمن ! ولم يعد يرى لافتات من الرخام الابيض ، بل يرى أجساما يلمح خيالاتها الجميلة تختفى فى استحياء تحت ظل الاشجار ويستطيع الشعور بحرارتها . واصبح تعطشه للحب امرا لا يطاق .

وفجاة انزلق القمر خلف سحابة كانها ستار أسدل على الوجود، فخيم الظلام على المكان . ولم يعد ستارتسيف يرى الباب الا بشق النفس ، لأن الليل اصبح الآن فى ظلامه اشبه الاشياء بليالى الخريف الحقيقية فظل يهيم على وجهه ساعة ونصف ساعة وهو يبحث عن الشارع الجانبى الذى ترك فيه عربته .

وحينما التقى بها نظر الي بنتليمون ، وقال : لا اكاد استطيع الوقوف على قدمى من شدة التعب ، ثم القى بجسمه على كرسيه الوثير وهو يقول لنفسه : « لم يكن لى ان اترك لجسمى العنان حتى يصل الى هذا الحد من البدانة » .

ـ ٢ ـ

وفى مساء اليوم التالى ذهب الى منزل آل توركين ، وفى عزمه الا يدع الفرصة تفر من يده . ولكن الوقت لم يكن مناسبا ، لأن مصففة الشعر كانت مع بيكالرينا فى غرفة نومها لكى تصفف لها شعرها ، استعدادا منها للذهاب الى حفلة رقص فى النادى .

ورأى نفسه مرة اخرى مضطرا الى تقضية وقت طويل حول مائدة الشاى فى قاعة الطعام . ولاحظ ايفان بتروفتش أن ضيفه يبدو مهموما مكروبا ، فاخرج من جيب صدريته خطابا مرسلا من خادم مقهى المانى ومكتوبا بلغة روسية محرفة مضحكة ، وأخذ يتلوه بصوت عال .

وكان ستارتسيف يقول فى نفسه ، وهو يتظاهر بالانصات : « ومن المحتمل أن يمنحوها مهرا لابأس به » .

وكان يبدو فى حالة شرود غريب بعد سهرة فى الليلة الماضية ، كما لو كان قد تناول شرابا منوما حلو المذاق ، فكان يشعر فى قلبه بشعور يجمع بين الحلم والبهجة والحرارة ولكن مكانا باردا ثقيلا من مخه كان يحاور على هذا النحو :

« توقف قبل أن يفوت الأوان . هل هى كفء لك ؟ انها مدللة صعبة المراس تنام حتى الساعة الثانية بعد الظهر ، أما انت فابن

شماس وطبيب في المجلس الاقليمي . » .

ثم تساءل : « حسن جدا ، وما الحل ؟ » .

وواصل كلامه قائلا : « هذا الى انك ان تزوجتها فسيضطرك اهلوها الى ترك عملك في المجلس الاقليمي والسكن في المدينة » .

واجاب على تساؤله : « حسن جدا ، وما المانع من السكن في المدينة ؟ انهم سيمنحونها مهرا ، وسنقيم لنا مسكنا ... » .

واخيرا اقبلت بيكاترينا ايفانوفنا في ثوب الرقص الطويل وعليها مسحة بارزة من النضارة والجمال ، واخذ ستارتسيف يحدق فيها بكل مشاعره ، ووقع في حالة انجذاب عجز فيها عن الكلام ، فاقتصر على النظر والضحك . ووقفت بيكاترينا تحيي الحاضرين قبل ان تهم بالخروج ، وراى هو الا فائدة من بقائه ، فنهض من مكانه معلنا بان الوقت قد حان للرجوع الى بيته ، وان مرضاه في انتظاره .

فقال ايفان بتروفتش : « هذا عمل غير صالح ! بعيدا نذهب ، اذن وفي مقدورك على الاقل أن تساعد كتين ! » .

وكان الظلام حالكا في الخارج ، والرذاذ يتساقط ، فلم يستطيعوا الاهتداء الى مكان العربة الا على صوت سعال بنتليمون الخشن .

ولم يكف ايفان بتروفتش عن المزاح وهو يساعد ابنته على الصعود الى العربة ثم ودعها بهذه التحية المازحة : « بعيدا معكما ، السلالالامة ! » .

وانطلقت بهما العربة .

وفي الطريق قال لها ستارتسيف : « لقد ذهبت الى المقبرة بالامس . ولكنك كنت شحيحة قاسية في عدم ذهابك » .

ــ « اذهبت الى المقبرة ؟! » .

ــ « نعم : وانتظرت هناك ما يقرب من ساعتين ، وقد تألمت .. »

ــ « هذا جزاؤك ــ الا تستطيع ان تفهم المزاح ؟ » .

وبدا البشر على وجه بيكاترينا ايفانوفنا حين رأت انها نجحت في السخرية من عاشقها ، وانه يحبها الى هذا الحد ، وراحت تقهقه باعلى صوتها ، ولكنها ما لبثت ان صاحت صيحة فزع لأن الجوادين دارا دورة مفاجئة لدى ابواب النادي الخارجية فمالت بها العربة . وسارع ستارتسيف بتطويق خصرها بذراعه . وقد دفعها الذعر الى الاعتماد عليه بكل جسمها ، فانتهز الفرصة وانهال

بالقبل الملتهبة على فمها وذقنها وزاد من ضغطه على خصرها .
فقالت بفتور تام : « كفى » .
ولم تمض لحظة حتى كانت قد غادرت العربة . واقبل الشرطى الذى يقف على باب النادى المضاء بالانوار الساطعة على بنتليمون ، وصاح به فى خشونة وغلظة :
« ماذا تنتظر ايها الغبى ؟ تحرك ! » .
وقفل ستارتسيف راجعا الى بيته ، ثم لم يلبث أن عاد ثانية. وفى منتصف الليل كان يجلس فى قاعة جلوس النادى وعليه حلة استقبال رسمية ليست له وحول رقبته رباط عنق ابيض مقوى يميل نحو أحد الجانبين ، وراح يقول لبيكاترينا ايفانوفنا فى حماس المحبين وتوله العاشقين :
« اوه ، ما أقل معرفة أولئك الذين لم يعرفوا الحب ! يبدو لى انه لم يتأت لأحد حتى الآن ان يصف الحب بصدق واخلاص ، والواقع أنه من المستحيل عمليا وصف هذا الشعور الحنون الطروب الأليم . ولاشك ان كل من عاناه ، ولو مرة واحدة ، لابد أن يأنف من صياغته فى كلمات . ولكن ما جدوى المقــــدمات والأوصاف ؟ لماذا كل هذه البلاغة الخطابية التى لا طائل من ورائها ؟ ان حبى لا حد له ... » .
ثم ختم ستارتسيف كلامه بالدخول فى صلب الموضوع دفعة واحدة فقال : « ارجوك واتوسل اليك ان تكونى زوجتى ! » .
وسكتت بيكاترينا ايفانوفنا برهة ، وبدا عليها الاهتمام الجدى ، ثم قالت : « يادميترى يونيك ، ان نفسى تفيض بالعرفان لك على هذا الشرف العظيم ، انى اكن لك كل احترام ، ولــكن ... » ثم نهضت من مكانها وواصلت كلامها وهى واقفة :
« ولــكن ارجو ان تسامحنى ، فانا لا استطيع ان اكون زوجتك. ودعنا نتكلم بصراحة فانت تعرف ، يادميترى يونيك ، انى أحب الفن اكثر من كل شىء واحب الموسيقى حبا جنونيا ، حب عبادة ، وقد وهبتها كل حياتى . اريد ان أكون موسيقية ، اريد الشهرة والنجاح والحرية ، وانت تريد منى ان اعيش فى هــذه المدينة ، وان أواصل تلك الحياة التافهة الموحشة التى أصبحت لا اطيقها . أأكون زوجة لشخص ما ؟
كلا وشكرا لك ! انه يجدر بالانسان ان يشرئب الى هدف سام

لامع . ولا شك ان الحياة العائلية ستكبلنى بالاغلال الى الابد .
انصت الى يادميترى يونيك .

(وهنا ظهرت على وجهها ابتسامة باهتة ، لأن نطقها باسم دميترى يونبك يذكرها دائما باسم « الكسان فيوفيلاكتيس ») ، انصت الى يادميترى يونيك : انك رجل رقيق ذكى كريم ، وخير من كل من عداك - ثم اغرورقت عيناها بالدموع ، ولكنها واصلت كلامها قائلة : « وانا اقدرك من كل قلبى ، ولكنى ... ولكنى ... واثقة من أنك تفهمنى ... » .

وبعد ذلك أدارت وجهها لتمنع نفسها من البكاء ، ثم غادرت قاعة الجلوس .

وكف قلب ستارتسيف عن الخفقان بصورة عصبية . ولم يكد يخرج من النادى الى الشارع حتى عجل بفك رباط عنقه المقوى واخذ يتنفس على راحته . وكان فى حالة ارتباك أن رأى كرامته تجرح على هذا النحو - اذ لم يكن يتوقع أن يقابل ملتمسه بالرفض - ولم يستطع ان يصدق بان أحلامه وعذابه وآماله تنتهى هذه النهاية التافهة على نحو ما يحدث فى مسرحية هزلية صغيرة يقوم بتمثيلها بعض الهواة .

وكان يأسى على ما حل بمشاعره وحبه ، حتى انه كان يشعر بانه يوشك على الانفجار بالبكاء ، أو بأن يهوى بكل قواه على أكتاف بنتليمون العريضة بمظلته .

وعاش أياما ثلاثة فى اسوا حال ، حيث كان لاياكل ولا ينام ، ولكن حينما ترامت اليه الاخبار بان بيكاترينا ايفانوفنا قد رحلت الى موسكو للالتحاق بمعهد الموسيقى ، هدأ روعه وبدأ يحيا كما كان يحيا من قبل .

وبعد ذلك كان اذا تذكر سعيه الى المقبرة وطوافه بالمدينة كلها بحثا عن حلة استقبال مد ذراعيه فى تكاسل ، وقال :

« يالها من مهزلة ! » .

- ٤ -

ومر على ذلك اربعة اعوام استطاع ستارتسيف خلالها أن يوسع من دائرة عمله فى المدينة ، فكان يفحص مرضاه فى دياليج على عجل ثم يستقل عربته لزيارة مرضاه فى المدينة ، وقد اصبح الآن

يركب عربة مطهمة تجرها ثلاثة جياد محلاة بالجلاجل فى اعناقها .
وكان لايعود الى منزله ، الا فى ساعة متاخرة من الليل . ولما كان قد صار على درجة كبيرة من البدانة والترهل ، فقد عمل دائما على تجنب السير على قدميه لأنه كان يؤدى به الى الانهيار. وكذلك كان الحال بالنسبة لبنتليمون ، فقد أصيب هو الآخر بالبدانة والترهل ، ولكنه كان كلما راى محيط خصره يزداد اتساعا ، انتابته الاحزان وندب حظه التعس وقال بنغمة مرة شاكية : «دائما ابدا فى حالة حركة » .

كان ستارتسيف يرتاد كثيرا من المنازل ويقابل اشخاصا كثيرين، ولكنه لم يوطد صلاته بأحد منهم على الاطلاق . اذ أن حديث أهل المدينة وآراءهم ، بل مجرد نظراتهم كانت تثيره وتغضبه . وقد علمته الايام بالتدريج بانه ما دام يقصرعلاقته بالشخص الذى يلتقى به على المشاركة فى لعب الورق أو تناول العشاء ، فانه يظل على اعتقاده بان هذا الاخير شخص وديع رقيق الحاشية بل يتمتع بقسط ما من الذكاء ولكن لايكاد يتطرق الحديث الى شيء آخر غير الطعام ، كالسياسة او العلم مثلا ، حتى يراه ينقلب الى وحش ضار او بدأ يثرثر بفلسفة حمقاء قاسية الى حد تحدثه نفسه بالانصراف وتركه وحده . فكان ستارتسيف اذا حاول الكلام ، حتى مع شخص متحرر العقل ، راح يقرر ان الانسانية ، بحمد الله ، تسير فى طريق التقدم بخطا وئيدة ، واننا سنستطيع يوما الغاء جوازات السفر وحكم الاعدام .

القى اليه محدثه بنظرة شذراء مفعمة بالريب ، وساله قائلا : « اذن سيكون الناس فى حل من قطع رقاب بعضهم بعضا فى الشارع انعام كما يحلو لهم ؟ » واذا كان فى احدى مآدب العشاء او الشاى ، وقال انه يجب على كل شخص ان يعمل ، وان الحياة دون عمل مستحيلة الاستمرار ، اخذ الجميع قوله على انه لوم موجه اليهم . واخذوا يجادلونه بكل عنف هذا فضلا عن ان أولئك الناس العاديين لم يكونوا يفعلون شيئا على الاطلاق . ولا يهتمون بأى شيء فى الحياة . فكان من المستحيل ايجاد موضوع يتحدث معهم فيه .

ولذلك كان ستارتسيف يتجنب الحديث معهم ويقصر همه على الاكل واللعب . وكان اذا حدث له ان دعى الى احدى

المآدب التى تقام للاحتفال بمناسبة ما ، يجلس فى مكانه بهـــدوء ويأكل فى صمت دون ان يحيد بنظره عن الطبق الذى أمامه . وذلك لان كل شيء كان يقوله فى هـــذه المناسباب لم يكن يمتع الآخرين ، بل كان يعتبر هـذيانا وحمقا . ولا يؤدى فى نهاية الأمر الا الى اثارته وتعكير دمه . ولذلك كان يعتصم بالصمت وينظر دائما الى طبقه فى قسوة مخيفة . ومن ثم عرف فى المدينـة كلهـا باسم « البولونى المتكلف » مع انه لم يكن يجرى فى عروقه نقطة واحدة من الدم البولونى .

وكان يتجنب الاجتماعات التى من قبيـل المسرح والحفـلات الموسيقية ، ولـكنه كان يقبل بكل ابتهاج على لعب الورق حوالى ثلاث ساعات فى كل ليلة . وكانت له متعة اخرى انســاق اليهـا تدريجيا وبصورة غير محسوسة : وهى أن يفرغ من جيوبه فى كل مساء الورق النقدى الذى تجمع فيها خلال زياراته . وكان هـذا الورق الذى تنبعج به جيوبه بعضه أصفر وبعضه أخضر . وبعضه يتضوع برائحة الطيب وبعضه يفوح برائحة الخل او البخور أو السمك ، ويصل فى بعض الاحيان الى سبعين روبلا وكان اذا تجمع لديه منها بضع مئات وضعها فى رصيده بجمعية التسليف التعاونية .

ولم يزر آل [illegible]ركين طوال السنين الأربع التى تلت رحيل يكاترينا ايفانوفنا الا مرتين اثنتين بناء على دعوة فيرايوسيفوفنا التى كانت لا تزال تعالج من صداعها .

وكانت يكاترينا ايفانوفنا تفد لقضاء الصيف مع والديها فى كل عام ولكنه لم يرها قط او لم تتح له هذه الفرصة على أية حال .

والآن بعد انقضاء اربعة اعوام ، وصله خطاب فى صباح يوم دافىء على عنوانه بالمستشفى ـ وكان من فيرايوسيفوفنا ـ تخبره فيه بانها تتوق لرؤيته وترجوه لو تفضل بزيارتها وتخفيف بعض آلامها . وفى أسفل الخطاب كتبت يكاترينا ايفانوفنا هذه الملاحظة : « اضم صوتى الى صوت والدتى .. « ك » .

وفكر ستارتسيف فى الأمر مليا وفى المساء ذهب الى بيت آل توركين حيث قابله ايفان بتروفتش بتحيته المعهودة : « هالو ـ الو ـ الو ! » وعلى وجهه ابتسامة لا تعبر عنها من ملامحه سوى عينيه . ثم أضاف قائلا : « بون جورسكى ! » .

وضغطت فيرايوسيفوفنا التى ظهرت عليهـا آثار السن وابيض

شعرها على يده بحرارة . ثم تنهدت من شدة التأثر وقالت :

« انت لا تريد التقرب منى ، يادكتور ، ولم تفكر فى زيارتنا قط والواقع انى عجوز جدا بالنسبة لك . ولكن الشابة هنا الآن . ولعلها الآن اصبحت أسعد حظا من ذى قبل » .

وكتين ؟ لقد صارت الآن اكثر نحافة وشحوبا من ذى قبل ولكن ايضا اكثر جمالا ورقة . صارت الآن « بيكاترينا ايفانوفنا . لاكتين » فقد اختفت منهما نضارة الطفولة . وسيما البراءة الصبيانية اللتين كانت تتميز بهما . وكان فى نظرتها شيء جديد ، شيء من الخجل والشعور بالاثم . وكما لو كانت تحس انها ليست فى بيتها وهى فى بيت آل توركين .

وقد وضعت بيكاترينا ايفانوفنا يدها فى يد ستارتسيف ، وكان من الواضح ان قلبها يخفق خفقانا عنيفا ، وقالت : « انا لم نتقابل منذ دهور » . ثم اخذت تحملق فى وجهه بكثير من الاستطلاع . وواصلت كلامها : « لقد ازددت سمنة وصرت أكثر سمرة واقرب الى الرجولة من ذى قبل ، ولكنك على وجه العموم لم تتغير كثيرا » .

وقد رأى انها لا تزال جذابة ، جذابة الى اقصى حد ، ولكنه وجد ان شيئا جوهريا ينقصها او شيئا غير جوهرى قد زاد عليها ، ولم يعرف كنه هذا الشيء بالضبط ، ولكنه عرف انه هو الذى يمنعه من الشعور نحوها بما كان يشعر به من قبل .

فقد احس بانه لا يحب شحوبها ولا تعبير وجهها الجديد ، ولا ابتسامتها الباهتة ولا صوتها ، ثم لم يلبث ان رأى نفسه لا يحب لباسها ولا الكرسى الذى كانت تجلس عليه ، لا يحب شيئا ما فى الماضى حين كان على وشك الزواج منها . وتذكر حبه لها والآمال والاحلام ، التى كانت تثيره منذ سنين مضت ، وشعر بانه كان متخلفا فى ذلك الحين .

وقدم الشاى والفطائر المحشوة بالقشدة . وقرات فيرايوسيفوفنا قصتها بصوت عال ، قرات عن امور لايمكن أن تحدث فى الحياة الواقعية . وجلس ستارتسيف ينصت اليها ، وهو ينظر الى رأسها الجميل المكلل بالبياض ، وينتظر ان تنتهى من قراءتها .

وما ان انتهت من قراءتها حتى كان يقول فى نفسه : « ليس الشخص الذى يعجز عن كتابة القصص هو الذى يعتبر تافها ، ولكن التافه هو الشخص الذى يكتبها ويعجز عن اخفاء ذلك » .

ولـكن ايفان بتروفتش صاح قائلا : « لم بطال ! »

وبعد ذلك عزفت بيكاترينا قطعة طويلة صاخبة ، وحينما انتهت اسهب الحاضرون فى شكرها وتقريظها .

اما ستارتسيف فقال فى نفسه : « على اية حال لقد كان من حسن الطالع انى لم اتزوجها » .

ونظرت هى اليه نظرة تدل على توقعها أن يسالها الذهاب الى الحديقة ولـكنه لم يقل شيئا .

فذهبت الى حيث يجلس وقالت له : « هيا نتكلم . كيف حالك؟ اى نوع من الحياة تحيا الآن ؟ لقد كنت افكر فيك كل هذه الايام» ثم استمرت تقول وهى فى حالة عصبية : « كنت اريد أن اكتب اليك ، وان اذهب لرؤيتك فى دياليج ، وقد صممت على ذلك ، ولـكنى عدلت ـ اذ لا يعلم الا الله نوع شعورك نحوى الآن. وقد انتظرت حضورك اليوم بفروغ صبر . هيا بنا الى الحديقة » .

وذهبا الى الحديقة وجلسا معا على مقعد تحت شجرة النخيل العتيقة كما فعلا منذ اربعة اعوام . وكان الوقت ظلاما .

وقالت بيكاترينا ايفانوفنا : « حسن جدا . والآن كيف حالك؟»

فرد ستارتسيف بقوله : « على ما يرام ، مع الشكر الجزيل».

ولم يستطع أن يجد شيئا آخر يقوله . فظلا صامتين .

فقالت وقد غطت وجهها بيدها : « لقد بليت . فلا تلق بالا الى ذلك ! لاشك انى مسرورة لوجودي بالبيت ، ومسرورة لرؤية من رايت جميعا ، ومع ذلك فليس فى مقدورى ان آنس لـكل ذلك . يالها من ذكريات ! كنت اظن انك وانا سنقضى الليل كله فى افراغ ما فى راسينا منها » .

وفى هـذه الاثناء استطاع ستارتسيف ان يرى وجهها وعينيها اللتين تشعان نورا ، وبدا له انها هنا فى الظلمة أصغر سنا مما كانت فى القاعة ، بل وان روح الطفولة ألتى كانت تكسو وجهها قد عادت اليها ثانية . واستطاع أن يرى انها تنظر اليه باستطلاع ساذج ، كما لو كانت تريد أن تزداد منه اقترابا وان تفهم ذلك الرجل الذى احبها فيما مضى بحرارة وحنان وبدون جدوى . وكانت عيناها تعبران عن عرفانها لهذا الحب . واسترجع هو أيضا ما حدث جميعه بكل تفاصيله وكيف انه سعى الى المقبرة وكيف رجع منهـا .

الى بيته بعد ان انهكته الساعات القليلة التى قضاها فيها ، وفجاة شعر بالحزن والاسف على الماضى . واومضت نفسه بنوع من اللهب وقال :

« اتذكرين تلك الليلة التى صحبتك فيها الى النادى ؟ كانت ليلة عاطرة حالكة الظلام ... »

واشتد اللهيب فى نفسه ، فاخذ يشعر الآن بالرغبة فى الكلام والرثاء لحياته ... فقال وهو يتنهد : « تسالينني عن حياتى .. فكيف لنا ان نحيا هنا ؟ اننا لا نحيا . اننا نهرم ونسمن ، ونترك أنفسنا لتيار الزمان ، وتتابع الايام ، وتمر الحياة مغبرة كئيبة دون خاطر بارز او فكرة بارزة ... وينقضى النهار فى تجميع النقود ، والليل فى النادى مع لاعبى الورق والسكارى والمدعين الذين ابغضهم جميعا . فاى حياة هذه ؟ » .

واجابت بيكاترينا ايفانوفنا : « ولكن لديك عملك ، وهو من اهداف الحياة النبيلة ، وقدكنت شديد الغرام بالكلام عن مستشفاك . وكنت انا فى ذلك الحين مخلوقة عجيبة ، أتخيل نفسى عازفة بيانو كبيرة واليوم تعزف الفتيات جميعا على البيانو ، وانا ايضا افعل ذلك ككل واحدة اخرى ، ولكنى لا أتميز بشىء خاص . فانا اعتبر عازفة بيانو بقدر ما تعتبر والدتى كاتبة قصة . ولاشك انى لم اكن افهمك فى ذلك الحين ولكنى بعد ذلك كثيرا ما فكرت فيك وانا فى موسكو ، ولم افكر قط فى اى أمر آخر . نعم ، أنها لمتعة معدومة النظير ان يكون المرء طبيبا بالمجلس الاقليمى وأن يساعد المتالمين ويخدم الشعب ! » ثم راحت تكرر بحماس حار : « انها المتعة المعدومة النظير ! وحينما كنت افكر فيك وأنا فى موسكو ، كنت تبدو لى مثلا اعلى وخلقا ساميا ... » .

وتذكر ستارتسيف أوراق النقد التى يفرقها فى جيبه فى كل ليلة راضيا مسرورا ، وانطفا اللهيب فى نفسه .

ونهض لكى يعود الى المنزل فاخذ بيكاترينا ايفانوفنا بذراعه ، واستمرت تقول : « انك خير شخص عرفته فى حياتى . وسيرى كل منا صاحبه ونتبادل الحديث معا ، اليس كذلك ؟ عدنى بذلك . فانا لست عازفة بيانو ، ولست مخدوعة فى نفسى باية حال ، ولن اتكلم امامك عن الموسيقى مطلقا » .

ولما دخلا البيت ورآها ستارتسيف فى القاعة المضاءة ونظر الى

وجهها ولاحظ النظرة الحزينة النفاذة العارفة بالجميل التى كانت توجهها اليه رجع يقول فى نفسه :

« على أية حال لقد كان من حسن الطالع الا اتزوجها » . واستأذن فى الانصراف .

فقال ايفان بتروفتش وهو يراه ينصرف : « ليس لك من حق ارضي فى أن تنصرف قبل العشاء » . ثم التفت الى بافا فى الردهة وصاح قائلا : « الدور عليك الآن ، فهيا مثل » .

فاقبل بافا الذى لم يعد غلاما صغيرا ، بل اصبح شابا مطلق الشارب ، واتخذ وضعا معينا ، ثم رفع يده وقال بنغمة المأساة :

« اهلكى ، ايتها الانثى التعسة ! » .

ولم يعد لشيء من ذلك نتيجة الآن غير اثارة ستارتسيف . فلما راى نفسه فى عربته القى نظرة على المنزل المعتم والحديقة اللذين كانا عزيزين عليه من قبل ، ومر بذاكرته مرا خاطفا على كل شيء ، من قصص فيرايوسيفوفنا وعزف بيكاترينا ايفانوفنا الصاخب على البيانو وفرديات ايفان بتروفتش ووضع بافا المؤسى ، وتساءل : اذا كان اكثر اهل المدينة ثقافة وذكاء على هذه الدرجة من التفاهة فماذا يمكن أن يتوقع من المدينة نفسها ؟

وبعد ثلاثة ايام احضر له بافا خطابا من بيكاترينا ايفانوفنا ، جاء فيه :

« لم تعد قط تاتى لرؤيتنا . فلماذا ؟ اخشى ان يكون رأيك فينا قد تغير ، اخشى فقط ، ومجرد هذه الفكرة يلقى الروع فى قلبى. طمئنى ، تعال واخبرنى بأن كل شيء على ما يرام .

لابد ان اراك . خادمتك ى . ت » .

فقرأ الخطاب وفكر برهة ثم قال لبافا :

« قل لها يابنى انى لا استطيع الحضور اليوم ، لان وقتى مشغول كله . وسأحضر بعد يوم أو يومين » .

ولكن مرت ثلاثة ايام ، ثم اسبوع ، ولم يذهب بعد . وحدث ذات مرة ان كان فى عربته يمر امام منزل آل توركين ، فجال فى خاطره انه يجب عليه أن يعرج عليه ولو لبضع دقائق ، ولكنه فكر قليلا ... ثم واصل سيره .

ولم يذهب الى بيت آل توركين بعد ذلك قط .

وانقضت بضعة اعوام اخرى . وازدادت سمنة ستارتسيف وأصبح منتفخ البطن مبهور الانفاس ، ولا يستطيع المشى الا اذا القى براسه الى الوراء . وكان من المناظر التى تستلفت الانظار ان يرى فى عربته بوجه الاحمر وخديه المتورمين ، وخيوله الثلاثة تجلجل باجراسها ، وامامه بنتليمون على مقعد الحوذى ، بوجهه الاحمر ، وخديه المتورمين ايضا ولفائف الشحم تتراكم على ظهر عنقه ، وذراعاه ممدودتان امامه فى خط مستقيم كما لو كانتا من خشب ، وهو لا يفتأ يصيح كلما قابل حوذيا سائرا فى المكان المضاد لاتجاهه : « خذ يمينك » فكان يبدو وكانه اله وثنى يمر ، لا كائن بشرى. وقد ازداد عمله فى المدينة وامتد بصورة لم تدع له متنفسا من الوقت واصبح يمتلك الآن عزبة ريفية ومنزلين فى المدينة ، وكان يزمع اقتناء منزل ثالث اكثر ربما من هذين . فكان كلما سمع فى جمعية التسليف التعاونى بأن هناك منزلا يوشك ان يعرض للمزاد سارع بالذهاب اليه ودخوله دون تكليف ، وراح يمر فى حجره ، حجرة حجرة دون ادنى مراعاة لشعور من فيها من السيدات المتخففات فى ملبسهن ، والاطفال الذين يأخذون فى النظر اليه بدهشة وارتياع ، ثم يقرع بعصاه على كل باب وهو يتساءل :

«اهذه هى حجرة المكتب ؟ وهذه قاعة النوم ؟ وما هذه الحجرة؟»

ويرى فى كل هذه الاثناء مبهور الانفاس لا يأخذ نفسه الا بكل عسر ويقطب حاجبيه المبللين بالعرق .

قد كان مرهقا بكثرة العمل ، ولكنه لم يرد التخلى عن وظيفته كطبيب فى مستشفى المجلس الاقليمى ، وذلك لأن بخله كان يدفعه الى جمع كل ما يستطيع جمعه من مال . وصار الآن لا يدعى الا باسم « يونيك » سواء أكان ذلك فى دياليج ام فى المدينة . فكان الناس يقولون مثلا : « اين ذهب يونيك ؟.. اليس من الافضل ان نستدعى يونيك ؟ » . . .

واصبح صوته حادا صاهلا بسبب طبقات الشحم المتراكمة حول حنجرته دون شك ، وكذلك الحال بالنسبة لطباعه فقد تغيرت هى الاخرى فصار سريع الغضب بغيض المعشر ، اذا اخذ فى فحص مريض اعوزه الصبر واظهر الضجر وجعل يضرب الارض بعصاه

ويكثر من التعجب والصياح بصوته الكريه :
« ارجوك ، اتوسلُ اليك ان تكتفى بالاجابة على اسئلتى . لا تتكلم الا بالقدر الضرورى » .

وهو يعيش وحده ، وحياته مملة رتيبة لا شيء فيها يستطيع ان يمنعه .

ولعلّ حبه لكتين كان المتعة الوحيدة والاخيرة التى شعر بها خلالَ اقامته فى دياليج . أما فيما عدا ذلك فكان يلعب الورق فى النادى مساء ، ثم يجلس وحده للعشاء امام منضدة كبيرة ، ويقوم بخدمته عادة خدم النادى الذين اصبحوا جميعا من اداريين ورؤساء خدم وخدم ، يعرفون ما يجب وما لا يجب ، ويبذلون جهدهم فى ارضائه ، والا ــ لا قدر الله ــ استشاط غضبه فجاة وبدأ يقرع الارض بعصاه .

وقد يحدث له فى اثناء العشاء ان يدير وجهه ويشترك فى بعض الاحاديث ببضع كلمات فيقول مثلا :

« عم تتكلمون ؟ هيه ؟ من ؟ » .

واذا تطرق الحديث حول المنضدة المجاورة عن آل توركين ، يسأل :

« هلْ تتكلمون عن آلْ توركين ؟ عن أولئك الناس الذين لهم ابنة تعزف على البيانو ؟ » .

وهذا على وجه التقريب كلّ ما يمكن أن يقال عنه .

وماذا عن آل توركين ؟ ان ايفان بتروفتش لم يهرم ولم يتغير فى شيء . فهو لايزال يمزح ويحكى قصصا مثيرة للضحك. وكذلك لا تزال فيرايوسيفوفنا تقرأ قصصها على مسامع زوارها بالولع وروح التحرر اللذين امتازت بهما دائما .

اما كتين فكانت تمارس العزف أربع ساعات يوميا . وقد بدا عليها الكبر بصورة محسوسة وكثيرا ما كانت تنتابها الامراض ، ولذلك كانت تذهب الى القرم فى كل خريف مع أمها . وكان ايفان بتروفتش يودعهما على المحطة دائما ، فاذا ما رأى القطار يتحرك بهما جفف عينيه وصاح بهما : « ما عا السلالالامة ! » .

وراح يلوح بمنديله .

الرجل الذى عاش فى قوقعة



الرجل الذى عاش فى قوقعة

راى المسافران الرياضيان ان الليل قد دهمهما بالقرب من قرية ميرونوستسكوى ، فعقدا العزم على قضاء الليل فى حظيرة يملكها بروكوفى عمدة القرية . وكانا اثنين : ايفان ايفانتش الطبيب البيطرى ، وبوركين الاستاذ بالمدرســة العليا وكان ايفان ايفانتش يحمل لقبا مركبا غريبا : شمشار هيمالايسكى ، ويبدو ان هذا اللقب لم يكن لائقا عليه ، فكان كل واحد يكتفى بندائه باسمه وكنيته : ايفــان ايفانتش . وكان يعيش فى ضيعة لتربيــة الخيل غير بعيــدة عن المدينة ، وقد خرج الآن للصيد ابتغاء التمتع بالهواء الطلق ، اما بوركين استاذ المدرسة العليا فكان من عادته أن يقضى الصيف فى ضيعة الـكونت (ب) وكان سكان هذه الجهات يعتبرونه واحدا منهم.

وكلاهما لم يناما . اما ايفان ايفانتش ، وكان رجلا كهلا طويل القامة نحيل الجسم ذا شارب طويل، فقد جلس امام الباب يدخن غليونه فى ضوء القمر . واما بوركين فقد اضطجع داخل المخزن على كومة من التبن يسترها الظلام .

وراحا يمضيان الوقت بتبادل قص الحكايات فيما بينهما . وكان جل كلامهما عن مافرا زوجة العمدة ، وهى امراة صحيحة البدن لاينقصها الذكاء ولم تغادر القرية التى ولدت فيها قط . ولم يتأت لها ان ترى مدينة او قطارا . وانما قضت السنين العشر الاخيرة داخل البيت امام الـكانون دون أن تغامر بالخروج منه الا ليلا .

فقال بوركين : « ومع ذلك ، فهذا أمر فى منتهى الغرابة . فهنالك فى العالم كثير من الناس الذين تضطرهم الطبيعة والكفاح الى حياة العزلة كالحيوانات القوقعية التى تنزوى داخل قواقعها . ولعل ذلك مجرد مظهر من مظاهر الوراثة والرجوع الى الازمان التى لم يكن فيها اسلافنا قد أصبحوا حيوانات إجتماعية بعد ، وكانوا يعيشون

ف كهوف منعزلة . أو لعل هؤلاء ألناس نوع قائم بذاته من انواع الجنس البشرى . من يدرى ؟ فأنا لست عالما من علماء التاريخ الطبيعى ، وليس فى مقدورى ان احاول حل مثل هذه المسائل : وكل ما اريد أن اقول هو ان الناس الذين من قبيل مافرا ليسوا من الظواهر النادرة ، فقد مات فى مدينتنا منذ شهر او شهرين فحسب زميل لى كان يقوم بتدريس اللغة الاغريقية اسمه بيليكوف. ولابد أن تكون قد سمعت به . فقد كان مشهورا بأنه لايتحرك من منزله قط ، حتى فى أصفى جو ، دون مظلة وخف ومعطف مبطن بالفراء . ومن عادته أن يحفظ مظلته فى صندوق ، وساعته فى صندون ايضا من الخشب السويدى الاشهب ، واذا اخرج مبراته لبرى القلم الرصاص اخرجها من صندوق كذلك ، وحتى وجهه كان يبدو هو الآخر وكأنه داخل صندوق ، اذ كان من عادته أن يرفع ياقة معطفه ليخفيه داخلها ، وكان يضع على عينيه منظارا قاتما ويلبس صدرية من الصوف السميك ويسد اذنيه بقطع من الصوف المندوف . وكان اذا خرج فى عربة غطى راسه ووجهه بقلنسوة . والحقيقة انه كان يكشف عن حرص لا يقاوم على وضع نفسه فيما يشبه ان يكون صندوقا عازلا وأن يعزلها ويقيها كل مؤثر خارجى. وكان الواقع المحيط به يثيره ويلقى فى قلبه الرعب ويجعله فى ذعر دائم ، ولم يكن يكف مطلقا عن امتداح الماضى والثناء على اشياء لم تكن لها وجود قط، ولعله كان يقصد بذلك تبرير الخوف والاشمئزاز اللذين كان يثيرهما الحاضر فى نفسه .

فكان يقول مثلا فى صوت يشبه صوت العاشق الموله : « ما اجمل اللغة الاغريقية واعذب موسيقاها ! » ولكى يبرهن على صدق ما يقول كان يسدل عينيه ويرفع اصبعه ويتمتم بنطق احدى الكلمات الاغريقية مثل : « ان ثرو — بوس (١) » .

« وكان بيليكوف يحاول ان يجعل افكاره فى صندوق عازل أيضا فلم يكن يفهم الا المنشورات ومقالات الصحف التى تنهى عن فعل ما او تحرم امرا ما . فاذا صدر منشور يحرم على الطلبة أن يكونوا فى الشوارع بعد الساعة التاسعة ، أو اذا نشرت مقالة تنهى عن التسامح فى الحب الجسدى اصبح الأمر فى نظره واضحا

(١) بالاغريقية « انسان » .

محددا تمام التحديد ، وهو ان هذين الشيئين قد حرما الى الابد ودون رجعة . وكان يبد له أن التصريح بشيء ما او التسامح فى شيء ما لابد ان يخفى وراءه امرا مريبا غامضا لم يصرح به . ولذا كان اذا سمع بأن تصريحا قد صدر بفتح ناد مسرحي او مكتبة عامة أو مقهى هز راسه فى حزن وقال بصيغة لطيفة :

« لاشك فى انه شيء جميل ولكن ... لنأمل الا ينجم عنه اى شر » .

وكانت اقل مخالفة للقواعد الموضوعة او انحراف عنها تسبب له اشد حالات النفور. حتى ولو لم يكن الأمر يعنيه فى شيء . وكان اذا علم ان احد زملائه لم يذهب الى الصلاة فى الوقت المحدد او وصلت الى مسامعه اشاعة بأن احد التلاميذ اتى بشيء من الشغب او قيل له ان احدى سيدات التعليم رؤيت مع احد الضباط فى ساعة متاخرة من الليل ، ثارت ثائرته وراح يكرر انه يخشى ان يؤدى ذلك الى ما لاتحمد عقباه . وفى اجتماعات مجلس الاساتذة كان لا يفتأ يقلقنا بحرصه وشكوكه وبمخاوفه واقتراحاته (وكلها تدل على عقل موضوع فى صندوق) ، فكان يكرر ان الشباب فى مدارس البنين والبنات على السواء يسلكون سلوكا غير كريم ، ويحدثون ضوضاء مزعجة فى الفصول ، وانه يأمل ، اذا فرض ان السلطات قد سمعت بذلك ، الا ينجم عنه شر ، وانه لا ضرر من فصل بتروف من السنة الثانية ويجوروف من السنة الرابعة ، والواقع انه كان ينجح عن طريق تنهداته وزفراته ومنظاره القائم على وجهه الابيض الصغير الباحث عن الاخطاء والآثام ، كان ينجح بذلك فى ارهاقنا الى حد نسلم له بمنح بتروف ويجوروف درجات قليلة من السلوك وبحبسهما ثم بفصلهما فى نهاية الأمر. وكان من عاداته الراسخة ان يزورنا فى منازلنا . فكان يذهب الى مساكن المدرسين حيث يجلس صامتا يراقب كل ما يقع أمامه ـ وبعد ساعة أو ساعتين ينهض ثم ينصرف . وكان يسمى ذلك « العمل على الاحتفاظ بعلاقات الود بين الزملاء » ومن الواضح انه كان يرى فى ذلك حملا ثقيلا ولم يكن يقوم به الا لاعتباره اياه واجبا يؤديه نحو زملائه . وكنا جميعا نخشاه ، حتى ناظر المدرسة نفسه كان يخافه . اتتصور هذا ؟ ..

والحقيقة ان مدرسينا كانوا فى عمومهم من الرجال الاذكياء

المهذبين الذين قراوا افكار تورجنيف وشخدرين، ولكن شبه الانسان هذا استطاع بمظلته وخفه الخالدين أن يعمل على جعل المدرسة كلها تحت سيطرته طوال خمسة عشر عاما ولم يكتف بذلك حتى اخضع المدينة باسرها ايضا . فقد عدلت سيداتنا عن حفلات يوم السبت المسرحية الخاصة خوفا من أن يسلقهن بلسانه . وكان رجال الدين يخشون اكل اللحم او لعب الورق فى حضرته . وبدأ اهل مدينتنا كلها تحت تاثير امثال بيليكوف ، يتوجسون خيفة من كل شيء . فكانوا يخافون الكلام بصوت عال وكتابة الخطابات واتخاذ الاصدقاء وقراءة الكتب ومساعدة الفقراء وتعليم الأميين ... » .

وسلك ايفان ايفانتش حنجرته كما لو كان يستعد للافضاء بملاحظة هامة ، ولكنه بدأ باشعال غليونه ، وحملق فى القمر بكلتا عينيه ، ثم اخذ يقول بنغمة هادئة بطيئة :

« نعم مجموعة من الرجال المهذبين الاذكياء الذين يقراون افكار تورجنيف وشخدرين وبوكل ، ولكنهم مع ذلك كانوا يستسلمون له ويتأففون منه ... كانت الحال على هذا النحو » . وواصل كلامه قائلا :

« كنا بيليكوف وانا ، نعيش فى منزل واحد ، وفى طابق واحد ، وكان باب مسكنه مواجها لباب مسكنى تماما ، ومن ثم استطاع كل منا ان يطلع على كثير من امور الآخر، وامكننى ان اكون لنفسى فكرة حسنة عن حياته البيتية ، التى كانت تجرى على نمط واحد لا يتغير : الروب دى شامبر ، وقلنسوة النوم ، والابواب المغلقة ، والاقفال ، والارتجة ، وقائمة كبيرة من المحرمات والنواهى ، وذلك القول المأثور عنه : لنامل الا ينجم عن ذلك اى شر ! ولم يكن بيليكوف يؤمن بفكرة الصيام ، ولكنه كان يمتنع عن اكل اللحم ؛ مخافة أن يقول الناس انه لا يحترم الصيام . فكان يقبل على اكل السمك المقلى فى الزبد . وبطبيعة الحال لم يكن هذا النوع من الطعام مما يتحقق معه الصوم ، ولكنه فى الوقت نفسه لم يكن لحما . ولم يكن يحتفظ لديه بخدم من الجنس النسائى قط ، مخافة ان يظن الناس به الظنون ، فكان يستخدم طباخا ذكرا ، اسمه افاناسى ، وهو رجل سكير مجنون هرم فى نحو الستين من عمره تعلم طهى الطعام من اشتغاله صبيا باحد النوادى فى فترة ما من حياته . وكان من عادته ان يرى دائما واقفا امام الباب

وقد شبك ذراعيه على صـــدره وراح يتنهد ويتمتم بتلك الجملة التي لا ... ها :

« آه في هذه الايام يمكننا أن نلمح منظرهم فيما حولنا ! » .

وكانت غرفة نوم بيليكوف الصغيرة تشبه الصندوق ، وكان يغطي سريره بمظلة كالقبعة . وقد اعتـــاد ان يجر ملاءات السرير حتى تغطي كل راسه . أما جو الغرفة فكان دائما حارا خانقا بالرغم من تنـــاوح الريح في الخارج خلف شبابيكها وازيزها في مدخنـــة مدفأتها . وكانت تـــسمع من المطبخ زفرات حزينة حارة ...

وكان يضطجع مرتجفا تحت غطائه ، لخوفه من أن يدهمه شر ما ، او أن ينقض عليه افاناسي فيقتله ، او أن يهاجمه اللصوص ، وكانت هذه المخاوف نفسها موضوع أحلامه الدائم . وفي الصباح كنا نسير جنبا الى جنب في طريقنا الى المدرسة ، فكان يبدو عليه الشحوب والقلق ، وكان من الواضح أن هـــــذا الرعب والقلق يرجعان الى اقترابه من المدرسة التي تغص بالتلاميذ ، وانه سيرى معه امرا مقززا وضربا من الحجر على الحرية .

وكان يقول كما لو كان يريد ايجاد تفسير لـكربته هـذه :

« انهم يثيرون ضوضاء لا تحتمل في الفصل ، وهذا امر كريه » .

« وهل يدور بخلدك ان مدرس الاغريقية هذا الحيوان القوقعي ، كان على وشك الزواج ذات مرة ؟ » .

فأدار ايفان ايفانتش راسه نحو المخزن بعنف وقال :

« لا اظن انك تمزح ! » .

ـ « نعم ، لقد اوشك أن يتزوج حقيقة ، مهما كان في هـــذا الامر من غرابة فقد اتفق انجاءنا بمدرس جديد للتاريخ والجغرافيا ، اسمه ميخائيل سافتش كوفالنكو من أهالي اوكرانيا . فجاء معه باخته فاريا وكان شابا حديث الســن طويل القامة أسمر البشرة ، ضخم اليدين ، وله وجه يليق بذوي الاصوات العميقة ، والواقع انه كان ذا صوت عميق مدو كأنه ينبعث من قاع دن .. اما أخته فلم تكن في حداثة سنه ، اذ كانت تبلغ نحو الثلاثين من عمرها ، ولـكنها كانت مثله طويلة القامة ، وكانت مسترسلة الشعر سوداء الحاجبين متوردة الخدين مرحة صاخبة موفورة الحيوية لا ترى الا وهي تضحك أو تغني بعض الاغاني الاكرانيـــــة ، اذ كانت اقل استثارة تجعلها تنفجر بالقهقهة .

وعلى ما أذكر كان أول تعرفنا بالاخوين فى الحفل الذى أقيم فى بيت الناظر بمناسبة عيده ، وهناك راينا «فينوس» جديدة تتصاعد من خلال الزبد بين طائفة المدرسين من القساة المتزمتين الذين يجاوزون من كل شىء يؤدونه واجبا حتى من حضور الحفلات ، واخذت فينوس الجديدة هذه تسير متبخترة ويداها على فخذيها ، وتضحك وتغنى وترقص ... وكان مما غنته باحساس فياض ، اغنية « الرياح تهب » ثم تبعتها باخرى واخرى . وعم السرور والمرح الحاضرين جميعهم ، حتى بيليكوف . فقد جلس بجانبها وجعل يقول بابتسامة معسولة :

« ان اللغة الاكرانية بعذوبتها وحلاوة رنينها مشتقة من الاغريقية القديمة » .

وسرت الفتاة لهذه التحية . وبدأت تحدثه من صميم قلبها عن ضيعتها فى اقليم جادياتشي حيث تعيش امها وحيث تنمو اجود انواع الكمثرى والشمام والقرع الأحمر الذى يسمى فى اوكرانيا بالنخاع ويصنع منه هناك طبق للذيذ باضافته الى شىء من عنب الذئب الازرق والفلفل الاحمر .

وجلسنا حولها نستمع اليها ، وفجاة نفذت فى اذهاننا جميعا هذه الفكرة فى آن واحد .

فقد قالت لى زوجة الناظر فى صوت منخفض : « لماذا لايرتبط هذان الاثنان بالزواج ؟ » .

ولسبب ما تنبه كل واحد من الحاضرين الى ان بيليكوف رجل اعزب ، ودهشنا من اننا لم نفطن الى ذلك من قبل قط ، واننا تغاضينا عن هذا الأمر الهام فى حياته وذلك انه لم يسبق لنا قط أن نتساءل : ما هو موقفه تجاه المراة ؟ وكيف يحل هذه المشكلة الحيوية فى حياته ؟ وربما كان ذلك لأنه لم يخطر ببال احد منا أن رجلا يلبس خفا طويلا فى فصول السنة جميعها وينام فى سريره تحت قباء غير أهل للحب .

وواصلت زوجة الناظر كلامها قائلة : « انه قد تعدى الاربعين من عمره وهى فى نحو الثلاثين . واعتقد انها قد تقبله » .

والواقع ان الاشياء التى تعمل فى الريف لمجرد السام اشياء حمقاء لا جدوى لها ! وذلك أن كل ما ينبغى ان يفعل لا يفعل . فلماذا ، لماذا نشعر جميعا بأن علينا أن نزوج بيليكوف الذى لا

يمكن لأحد أن يتصوره فى دور الرجل المتزوج ؟ ان زوجة الناظر وزوجة المفتش والسيدات اللائى تربطهن بالمدرسة أية علاقة قد أصبحن جميعا الآن مشرقات الوجوه مستبشرات كأنهن قد عثرن، فى نهاية المطاف، على هدف لحياتهن . وبادرت زوجة الناظر باحتجاز لوج فى المسرح جلست على أحد مقاعده فاريا تروح عن نفسها بمروحة ضخمة وعلى وجهها سمات الاشراق والسعادة، والى جانبها بيليكوف بضآلة جسمه واضطراب حاله كما لو كان قد اخرج من قاعة نومه بكلابات. وأقمت انا مادبة اصرت السيدات على أن ادعو اليها بيليكوف وفاريا . وهكذا بدانا لعبة الكرة الطائرة . وقد بدا أن فاريا لا تعارض فكرة الزواج بأية حال .

فحياتها مع اخيها لم تكن سعيدة ، اذ انهما كانا يقضيان يومهما فى شجار دائم . وهاأنذا اقدم لك منظرا معتادا من حياتهما : كوفالنكو يذرع الشارع بجسمه الضخم وعوده الفارع وعليه قميص مطرز وقد تدلت ذؤابته من تحت حافة قلنسوته وراحت تتأرجح فوق حاجبه ، وامسك باحدى يديه حزمة من الكتب وبالاخرى عكازة ضخمة . ومن خلفه تسير أخته متأبطة حزمة من الكتب ايضا ، وتصيح قائلة :

« ولكنك ياميشا لم تقراه ! قلت لك أنك لم تقراه ! انا واثقة من انك لم تقراه قط ! » .

ويصيح بها كوفالنكو ، وهو يضرب الارض بعصاه : « وانا اقول لك انى قرأته ! » .

وترد عليه بأعلى صوتها : « سبحان الله ، ياميشا ! لا أدرى لماذا يصل بك العنف الى هذا الحد ! ان المسالة مسالة مبدأ لا اكثر ولا اقل ! » .

ويجيبها كوفالنكو بصوت يغطى على صوتها : « وانا اقول لك انى قرأته ! » .

اما فى المنزل فلا يكاد يزورهما احد حتى يبدآ امامه فى الشجار .

ويبدو انها كانت متبرمة بهذه الحياة وتتوق الى ان يكون لها بيت خاص ، هذا بالاضافة الى السن . فحينما لا يكون هناك وقت للبحث والاختيار ، تقبل الفتاة الزواج من أى انسان ، ولو كان مدرسا للغة الاغريقية. والحقيقة ان هذه هى الحال بالنسبة لبناتنا

جميعا ، فانهن يقبلن الزواج من اى رجـل كان ، لا لشيء ، الا لينزوجن .
ومهما يكن من شيء ، فان فاريا بدات تبدى ميلا ملحوظا نحو زميلنا بيليكوف .
ولـكن ما بال بيليكوف ؟ الواقع انه كان يزور كوفالنكو على نحو ما يزور بقية زملائه ، يذهب لرؤيته ويجلس دون أن ينطق بشيء على حين تسترسل فاريا فى ترنيم اغنية : « الرياح تهب » وهى لا تكف عن النظر اليه بعينيها السوداوين ، او تنفجر بالقهقهة على حين غرة .
« ان للايحاء قوة فعالة خارقة فى كل المسائل المتعلقة بالقلب ، ولا سيما مسالة الزواج . وقد بدأ كل زملاء بيليكوف والسيدات جميعهن يؤكدون له انه يجب أن يتزوج ، وانه لم يعد ينقصه فى الحياة غير الزواج . ورحنا جميعا نزف اليه التهانى ونغدق الاقوال المتداولة عن ميزات الزواج ، وانه خطوة جدية لابد منها وما اشبه ذلك ، هذا الى ان فاريا لم تكن قبيحة المنظر ، بل كانت تعتبر على العكس من ذلك فتاة لطيفة . فضلا عن انها ابنة احد مستشارى الدولة ولها مزية خاصة بها ، واهم من كل ذلك انها كانت المراة الوحيدة التى اظهرت كثيرا من العطف والميل نحو بيليكوف . لـكل هذه الاعتبارات غلب بيليكوف على امره واقنع نفسه بأن من واجبه أن يتزوج » .
فقال ايفان ايفانتش : « كانت هذه هى اللحظة التى يجب عليه فيها أن يتخلى عن مظلته وخفه » .
ـ « آه ! لقد ظهر ان ذلك امر مستحيل . فقد وضع صورة فاريا الشمسية على مكتبه ، واخذ يتردد على ليكلمنى عن فاريا وعن الحياة العائلية وجدية الزواج ، واكثر ايضا من تردده على آل كوفالنكو ، ولـكن دون ان يغير من طريقة حياته ادنى تغيير . بل لقد كان العكس هو الصحيح ، فقد كان اعتزامه الزواج ذا أثر سيء عليه ، اذ ازداد نحافة وشحوبا عن ذى قبل ، وبدا كأنه يزداد تشبثا بقوقعته وتوغلا فيها .
وقال لى ذات مرة وعلى وجهه تلك الابتسامة الباهتة العوجاء : « انى اجد فاريا سافيشنا فتاة لاباس بها ، وانه يجب على كل شخص ان يتزوج . نعم ، انا اعرف ذلك جيدا ... ولـكن

المسألة جاءت فجاة كما ترى ... ولابد للمرء ان يفكر ... » .
فأجبته : « فيم تريد ان تفكر؟ تزوج ، وهذا كل مافى الأمر».
وقال : « كلا ، كلا ، ان الزواج خطوة جدية ، فلابد للمرء ان يبدأ بوزن واجباته ومسئولياته المستقبلة ... وذلك لكي يتأكد من انه لن ينجم عنه اى شر ... والواقع ان هذه المسألة تشغل بالي الى حد اني لا انام الليل . واذا اردت ان اقول لك الحقيقة فانى مذعور بعض الشيء ، فهى واخوها غريبا التفكير . غريبا المظهر كما لايخفى عليك هذا الى انها جمة النشاط كثيرة الحركة . فاذا فرضنا انى تزوجتها واشتبكت فى امر ما ... »
واخذ يؤجل طلب يدها ، ويؤخره من يوم الى يوم ، مما أحزن زوجة الناظر والسيدات الاخريات ، واستمر يزن واجباته ومسئولياته المستقبلة ، ويواظب على الخروج معها كل يوم تقريبا ، وربما كان ذلك ظنا منه ان الموقف يتطلب ذلك ، كما كان يكثر من زيارتي ليناقشني فى الحياة الزوجية من وجوهها جميعها . واغلب الظن انه كان سيتقدم بطلب يدها فى نهاية الأمر ليعقد زيجة من تلك الزيجات الحمقاء غير الضرورية التى تتم هنا بالآلاف لا لشيء الا لمجرد الملل من حياة راهنة والحاجة الى القيام بعمل افضل لولا ان فضيحة مدوية قد انفجرت فجاة فى المدينة . وبهذه المناسبة لابد ان اخبرك بان قلب كوفالنكو ، اخى فاريا ، قد امتلأ بكراهية بيليكوف منذ اليوم الذى عرفه فيه ، ولم يعد يطيق رؤيته .
« وكان يقول لى فى بعض الاحيان وهو يهز كتفيه : « انا لا استطيع ان افهمكم . كيف تطيقون هذا الحيوان القوقعى ، هذه الحشرة المتعفنة ؟ كيف تستطيعون العيش هنا ايها السادة ؟ ان هذا الجو خانق مسموم . وهل تجرءون على تسمية انفسكم مدرسين ومربين ؟ الواقع انكم لستم الا عصبة من الصيادين التافهين ، وأن مدرستكم ليست معبدا للعلم ، بل مجرد مؤسسة خيرية تفوح من حولها رائحة مريبة ، ككشك رجل البوليس . كلا ، ايها الاصدقاء ، انا لن أمكث معكم طويلا ، بل ساعود الى عزبتى لأشتغل بصيد السمك وتعليم اطفال اكرانيا . نعم ، ساذهب بعيدا عنكم ، ولكم ان تظلوا مع يهوذا هذا الذى حكم عليكم به ! »
« وكنت تراه مرة اخرى يزأر مقهقها بصوت عميق اجش فى

بادىء الأمر ، ثم لا يلبث أن يتحول الى صفير حاد حتى تسيل الدموع من عينيه ، ويقول :

« لماذا يجلس هنا ؟ ماذا يريد من جلوسه وحملقته ؟ » .

وقد اطلق على بيليكوف لقبا من عنده ، فسماه : « الخفاش العنكبوتى » .

وبطبيعة الحال كنا نتجنب اخباره بأن اخته على وشك الزواج من هذا « العنكبوت » وحينما لمحت اليه زوجة الناظر انه يكون من الخير ان نرى اخته تحيا حياة مستقرة مع رجل محترم قوى الخلق مثل بيليكوف ، قطب ما بين حاجبيه وقال :

« هذا امر لا يعنينى . وفى وسعها أن تتزوج ثعبانا . فلست انا بذلك الرجل الذى يتدخل فى شئون غيره من الناس » .

والآن ، اسمع ماذا حدث بعد ذلك . لقد رسم احد المصورين صورة هزلية : كان بيليكوف يرى فيها بخفه وحوافى سرواله مقلوبة الى أعلى ومظلته مفتوحة فوق راسه ، وقد تأبط ذراع فاريا ، وراحا يسيران جنبا لجنب . وتحت الصورة كتبت هذه العبارة : « الانثروبوس(١) عاشق» وكان تعبير وجهه حقيقيا يفيض بالحياة . ولابد أن يكون الفنان قد سهر على انجاز عمله هذا ليالى عديدة ، لان مدرسى المدرستين جميعا ، مدرسة البنين ومدرسة البنات . ومدرسى المعهد اللاهوتى وكل موظفى المدينة قد تلقوا نسخا من هذه الصورة ، كما تلقى بيليكوف نسخته ايضا. وكان لهذه الصورة الهزلية اسوأ الاثر عليه .

« ففى ذات يوم خرجنا من المنزل سويا . وتصادف أن يكون يوم احد وأول يوم فى شهر مايو ، وكان على المدرسة باسرها من طلاب ومدرسين أن يجتمعوا امام مبناها لكى يتجهوا الى غابة فى خارج المدينة . وذهبنا بالفعل وكان وجه بيليكوف يبدو اخضر ضاربا الى السواد كلما وقع بصره على البنات ، ثم نظر الى وقال وشفتاه لا تكفان عن الارتجاف .

« كم هناك فى هذا العالم من اناس قساة شريرين ! » .

ولم اتمالك الا ان ارثى لحاله . وواصلنا سيرنا ، ولم نلبث الا برهة حتى راينا كوفالنكو يمر بنا راكبا دراجته ، وتتبعه فاريا على ظهر دراجة ايضا ، وقد بدا عليها الانبهار وتورد خديها من

(١) الانسان بالاغريقية .

شدة المجهود ، ولكنها على أية حال كانت مرحة بفيض وجهـــــا بالسعادة .

وقد صاحت بنا قائلة لدى عبورها : « سنكون هنا قبلكم جميعا اليس هذا يوما مجيدا ! ؟ انه يوم ساحر ! » .

« ثم ما لبثا أن اختفيا عن البصر . أما زميلنا بيليكوف الذى تغير لونه من الخضرة الى شحوب الاموات ، فقد ارتج عليه لحظة ، ثم توقف عن السير وراح يحملق فى وجهى ويتساءل :

« ما معنى هـذا ؟ ايليق بمعلمى المدارس وبالنساء أن يركبوا الدراجات ؟ » .

فقلت : « ليس فى ذلك ما يتعارض واللياقة . ولماذا لايركبون الدراجات » .

وصاح محتجا : « ولـكن ذلك امر لايحتمل ! فكيف نستطيع ان نقول هذا القول ؟ » .

وكانت الصدمة التى تلقاها اعنف مما يمكن أن يتصور، فرفض مواصلة السير وعاد أدراجه الى البيت ..

وفى اليوم التالى ظـل طول الوقت مذعورا يفرك احدى يديه بالاخرى ، وكان من اليسـير ان يرى على وجهه انه فى حالة سيئة . وقد غادر المدرسة قبل انتهاء الدروس ، وهو ما لم يحدث له من قبل قط . ولم يتناول اى طعام . وقرب المساء ارتدى ملابس ثقيلة ، بالرغم من ان الجو كان صـائفا ، ثم اتجه الى بيت آل كوفالنكو . ولم تكن فاريا هناك ، فقابله أخوها ، وقال له بصوت فاتر وجبين مقطب : « تفضل بالجلوس » . وكان كوفالنكو قد استيقظ لتوه من قيلولة الظهيرة والنوم لايزال يقفل جفونه ويخامره شعور بالخوف .

وبعد ان ظل بيليكوف معتصما بالصمت التام نحو عشر دقائق ، بدا يقول : « جئت الآن لـكى اريح ضميرى اذ انى اشعر بتعاسة لا حد لها . فقد قام هجاء مجهول برسم صورة يسخر فيها منى ومن شخص آخر تربطه بنا نحن الاثنين بعض العلاقات . واعتقد ان من واجبى ان اؤكد لك انى لست انا الملوم فى ذلك . فانا لم اقم باى فعل يبرر هذه السخرية ، ولـكن سـلوكى كان ، على العكس من ذلك ، ســـلوك رجل نزيه امين لم تشبه شائبة فى يوم من ايام حياته » .

وبقي كوفالنكو صامتا مطرقا . وبعد فترة قصيرة استأنف بيليكوف كلامه بصوت خفيض شاك ، فقال :

« وهناك شيء آخر أريد أن أحدثك عنه . فأنا رجل قديم ، وانت لاتزال في مستهل حياتك الوظيفية ، ومن واجبي ، كزميل هرم من زملائك ، ان احذرك . انك تركب الدراجة ، وهذه تسلية ممنوعة منعا باتا على كل من يتصدى لتعليم الشباب » .

فسأله كوفالنكو بصوته الاجش العميق : « ولماذا ؟ » .

ــ « وهل يحتاج ذلك الى توضيح ، يا ميخائيل سافتش؟ لقد كنت اظن انه أمر بديهي. فلوسمح المدرس لنفسه بركوب الدراجة لما بقي أمام التلاميذ الا أن يسيروا على رءوسهم . وما دام لم يصدر اي منشور باباحة ذلك فانه يظل محظورا . والحقيقة اني ذهلت بالامس ؟ بل كدت أن يغمى على حين رأيت اختك . آنسة فوق دراجة ، يا للشناعة ! » .

ــ « ماذا تريد مني بالضبط ؟ » .

ــ « لا اريد الا ان احذرك ، يا ميخائيل سافتش . انك شاب في مقتبل العمر ، وامامك حياتك كلها فيجب ان تكون في غاية الحذر . ولكنك مستهتر ، مستهتر جدا ! فهانت ذا تروح وتجيء ، في اقمصة مطرزة ، ولا ترى في الشارع الا ومعك انواع مختلفة من الكتب ، ثم جئتمت بالدراجة . ان واقعة ركوبكما ، انت واختك على دراجتين ستبلغ للناظر ، ستصل الى مسامع الرئيس ... وليس هذا من الصواب في شيء » .

فقال كوفالنكو وهو يكاد يتميز من الغيظ : « ان ركوبنا الدراجات أو عدم ركوبنا اياها لا يعني أحدا سوانا ! واذا كان الناس سيدسون أنوفهم في مسائلي الشخصية والعائلية ، فليذهبوا الى جهنم الحمراء » .

وهنا امتقع لون بيليكوف ، ونهض على قدميه ثم قال : «مادمت تخاطبني بهذه النغمة ، فلن استطيع أن أواصل كلامي. وارجوك ان تكون حذرا حينما تتكلم عن رؤسائنا في حضوري . اذ لابد ان تعامل السلطات بكل احترام » .

فسأله كوفالنكو وهو يلقي عليه نظرة تنم عن الكراهية : « وهل سمعتني اقول شيئا غير لائق عن السلطات ؟ دعني وحدي ، ايها السيد . فاني رجل شريف وليس عندي ما أقوله لشخص مثلك.

ان نفسي تشمئز من الثعابين » .

فاضطرب بيليكوف وظهرت على وجهه آثار الرعب الشديد والتوتر العصبي وسارع بارتداء معطفه . ذلك انه لم يسمع أحداً في حياته يكلمه بهذه الخشونة .

وقال وهو يتخطى عتبة باب الخروج : « ولكن لابد لي أن أحذرك ، لقد يكون بعض الناس قد سمع كلاما . ويجب علي ، لكي امنع كلامنا من أن ينتقل محرفا ولأحول دون ما قد يترتب على ذلك من نتائج ، أن أقدم الى الناظر تقريراً بجوهر ما جرى بيننا من حديث ... بالنقط الاساسية . هذا هو واجبي . ».

فقال كوفالنكو متسائلا : « ماذا تقول ؟ تقرير ؟ اذن ، اذهب لحال سبيلك ! » .

قال ذلك ثم امسك بياقته ودفعه دفعة شديدة الى الوراء القت به فوق السلم فراح يتدحرج على درجاته وراح خفه الخشبي يقرع سياجه . وقد كان السلم طويلا شديد الانحدار ، ولكنه وصل الى قاعه بدون أن يصاب بضرر ، فنهض على قدميه واخذ يتحسس قصبة أنفه ليرى ما اذا كان منظاره قد كسر أم لا . ولكن ، بينما كان بيليكوف يتدحرج فوق السلم ، اذ دخلت فاريا من باب السلم ومعها سيدتان أخريان ، وتوقفت السيدات الثلاث في قاع السلم ينظرن اليه . وكانت هذه هي الطامة الكبرى بالنسبة اليه ، اذ كان يفضل ان يدق عنقه وتكسر ساقاه على أن يرى في وضع مضحك . واعتقد ان المدينة بأسرها ستعرف الخبر ، وان الناظر سيسمع به ، وربما الرئيس ايضا . ومن يدري ماقد يترتب على ذلك من نتائج ! فقد يقوم أحد الهجائين برسم صورة هزلية اخرى وقد ينتهي به الأمر الى الاستقالة ...

وحين نهض عرفته فاريا . فنظرت الى وجهه المضحك ومعطفه المغضن ، ودون أن يكون لديها ادنى فكرة عما حدث افترضت ان قدمه قد زلت به أثناء نزوله السلم . فلم تتمالك نفسها من الانفجار بقهقهتها المدوية .

وكانت هذه القهقهة العالية الرنانة هي النهاية : نهاية حب بيليكوف ونهاية وجوده على وجه الارض . فلم يعد الى رؤية فاريا بعد الآن . وكان أول عمل قام به حين وصل الى بيته أن ازال صورتها من فوق مكتبه . ثم ذهب الى سريره واضطجع فيه لكيلا يغادره مرة أخرى .

وبعد ذلك بثلاثة ايام جاءني افاناسي يسالني عما اذا كان يجب احضار طبيب لسيده . لان سلوكه في هذه الايام اصبح في غاية الغرابة . وذهبت لزيارته فوجدته مضطجعا تحت القباء مغطى بالملاحف الصوفية وكان صامتا يجيب على اسئلتي بلا او نعم دون أن ينبس بكلمة أخرى . هكذا كان يضطجع على حين راح افاناسي بوجهه الحزين العبوس يطوف حول فراشه ورائحة الخمر تفوح منه كما لو كان حانة باسرها .

ومضى شهر على هذه الحال . ثم مات بيليكوف . فسار الناس جميعا ، أعني المدرسين والمعهد اللاهوتي في جنازته . والآن بعد أن وضع في تابوته اصبح وجهه رضيا مشرقا . بل يفيض بالبهجة والمرح ، كما لو كان قد سره أن يوضع ، أخيرا ، في صندوق لا يخرج منه أبد الآبدين . نعم . لقد حقق مثله الاعلى !

وكان السماء ارادت أن تكرمه فكان يوم جنازته غائما مطيرا . مما اضطرنا جميعا الى لبس الاخفاف الخشبية وحمل المظلات . وقد حضرت فاريا ايضا جنازته . واغرورقت عيناها بالدموع حين وضع تابوته في القبر . وبهذه المناسبة استطعت ان الاحظ ان نساء اكرانيا لايعرفن الا الضحك او البكاء . ولا يعترفن باية منزلة وسطى .

ولابد لي من الاعتراف بأن دفن الاشخاص الذين من قبيل بيليكوف يعتبر من المناسبات السارة . ولكنا جميعا عدنا من المقبرة بوجوه كاسفة حزينة . ولم يرد أحد منا أن يصرح بخلاصنا . ذلك النوع من الخلاص الذي كنا نشعر به في طفولتنا حين ينصرف عنا الاشخاص الكبار وتتاح لنا الفرصة للجري ساعة او ساعتين حول الحديقة . ونحن متمتعون بكامل حريتنا . آه الحرية ! ان أقل اشارة اليها . ان اضعف أمل في الوصول اليها لكفيل بأن يهب نفوسنا اجنحة نطير بها . اليس كذلك ؟

رجعنا من المقبرة مطمئني الخواطر. ولم يكد يمر أسبوع واحد حتى عادت الحياة اليومية الى مجراها المعتاد . تلك الحياة الضحلة المملة التي لا معنى لها والتي لا يحد منها هذا المنشور ، ولا يضيق من مداها ذاك الآخر .

ولكن الأمور لم تصبح خيرا من ذي قبل . فنحن وان كنا قد دفنا بيليكوف الا اننا اذا فكرنا مليا وجدنا انه لايزال هناك كثير

من الاشخاص الذين يعيشون فى قواقع وأن هناك ايضا كثيرا منهم لم يولدوا بعد .

فقال ايفان ايفانتش وهو يشعل غليونه : « نعم . هذا حق» .

وعاد بوركين يكرر : « كثير منهم لم يولدوا بعد ! » .

وخرج مدرس المدرسة العليــــا من المخزن . فبدا فى ضوء القمر رجلا قصيرا بدينا ذا راس أصلع ولحية سوداء طويلة تكاد تصل الى اسفل بطنه ، وخرج معه كلبان كبيران .

ورفع المدرس بصره الى السماء وقال : «يا لروعة هذا القمر!».

وكان قد مضي من الليل اكثر من نصفه . وكانت القرية كلها ترى نحو الجهة اليمنى بشارعها الطويل الذى يمتد على مســافة خمسة كيلو مترات وقد كان كل شيء غارقا فى نوم هادىء عميق ، فلم يكن يسمع صوت او يحس بحركة حتى ليصعب على المرء ان يصدق ان الطبيعة قد تركن الى هذا النوع من الهدوء . ومن المعتاد أننــا اذا نظرنا فى ليلة مقمرة الى شــارع قروى متسع بمساكنه واسيجته واشجاره النائمة ، رفرفعلى نفوسنا سلام عظيم وسكينة مريحة ، اذ تبدو القرية فى صفائها وقد طهرتها ظلال الليــل من المشاغل والمتاعب والاحزان فيشع منها نوع من الجمال اللطيف المزوج بالرهبة ، ويخيل للرائى انه لم يبق شر على وجه الارض وأن الخير قد عم كل مكان . أما من النـاحية اليسرى حيث تنتهى القرية فتترامى الحقول أمام الناظر حتى نهاية الافق ، وكل شيء فيهــا ساكن صامت ايضا ، واشعة القمر تتدفق فى السهل كله فتغمره بضوئها الازهر .

وعاد ايفان ايفانتش يكرر هو الآخر ويقول : « نعم ، هذا حق. ثم اليس عيشنا فى المدن فى غرفنا الضيقة المتلاصقة وانكبابنا على كتابة تلك الاوراق التى لا فائدة منها وعكوفنا على لعب الورق ، اليس كل ذلك ضربا من العيش فى قواقع ايضا ؟ كذلك اليست حياتنا بين اولئك الاجلاف الـكسالى الذين لا يكفون عن الخصام ومع هؤلاء النساء الحمقى خاويات العقول ، وانفاقنا الوقت الطويل فى قول اللغو وسماع اللغو ، أليس هـذا ايضا ضربا من القواقع المعلقة حول نفوسنا ؟ ان فى مقدورى ان احكى لك قصـــــة لها مغزاها ، اذا طاب لك أن تنصت .. » .

فقال بوركين : « اظن انه قد حان وقت النوم ، فاحتفظ بها للغد » .

وعادا معا الى المخزن واضطجعا فوق كومة التبن ، وبدا الكرى يداعب اعينهما حين سمعا وقع اقدام خفيفا فى الخارج . فقد كان هناك شخص ما يسير غير بعيد من المخزن. كان يسير بضع خطوات ثم يتوقف ثم يستأنف السير وهكذا انطلقت الكلاب بالنباح .

فقال بوركين : « انها مافرا التى تسير » .

وبعد ذلك لم يعد وقع الاقدام يصل الى آذانهما .

وعندئذ قال ايفان ايفانتش وهو يستدير على جنبه الآخر : « هكذا يرى المرء نفسه مضطرا الى مشاهدة الناس والانصات اليهم وهم منساقون فى قول الكذب ، ثم يرمى بالغفلة حين يتحمل منهم كل هذا الكذب ، كما تقضى عليه الظروف بأن يتقبل الاهانة ويرضخ للاذلال دون أن يجرؤ على فتح فمه بكلمة واحدة أو اتخاذ جانب الناس الشرفاء الاحرار ، بل وبأن يغالط نفسه ويكذب عليه ويبسم ، وكل ذلك من أجل كسرة من الخبز ، أو ركن قذر يعيش فيه ، أو وظيفة حقيرة ، لا ، لا ، انها حياة لا تطاق! » .

فقال معلم المدرسة : « هذا موضوع آخر ، يا ايفان ايفانتش. دعنا ننم » .

ولم تمض عشر دقائق حتى كان بوركين قد غرق فى النوم . اما ايفان ايفانتش فقد ظل يتنهد ويسعل حتى مطلع النهار . وحينئذ نهض على قدميه وغادر المخزن من جديد ، وجلس القرفصاء أمام الباب ، ثم أشعل غليونه .

عنب الذئب



عنب الذئب

تلبدت السماء بالسحب الممطرة منذ الصباح الباكر ، وكان يوما من تلك الايام الغائمة ، المائلة الى البرودة ، المشبعة بالضباب ، حيث تتدلى السحب الى اسفل حتى تكاد تمس الرءوس وتظل هكذا معلقة وقتا طويلا ، فيظن المرء ان المطر على وشك النزول .

ولكنه لا ينزل . وكان ايفان ايفانتش الطبيب البيطرى وبوركين مدرس المدرسة العليا قد واصلا السير حتى ادركهما التعب . وكان الطريق الممتد فوق الحقول يبدو لهما طويلا لانهاية لطوله . ولم يكن فى مقدورهما بعد طول التطلع والتشوق ان يلمحا شيئا فى الافق غير طاحون قرية ميرونوسنسكوى وما يشبه ان يكون صفا من التلال التى تمتد من الناحية اليمنى الى ما وراء القرية ، وقد كانا يعرفان كلاهما ان هذا الصف من التلال ليس فى حقيقة الامر الا شاطىء النهر ، وانه لا توجد بعد الجانب الآخر منه الا مراع شاسعة وآجام من اشجار الصفصاف الخضر وبعض العزب الزراعية وانهما اذا صعدا فوق قمة هذه التلال ، أصبح فى وسعهما ان يريا هذه الحقول التى لانهاية لها ، واعمدة التلغراف والقطار الذى يبدو كانه برقة تزحف بعيدا فى اقصى السهل ، واذا كان الجو صحوا استطاعا ان يلمحا المدينة ايضا . وفى هذا اليوم الساكن الذى بدت فيه الطبيعة كلها وادعة حالمة ، شعر ايفان ايفانتش وبوركين بخفقة حب نحو هذا السهل وقالا فى نفسيهما : ما اوسع اقليمنا واجمله !

وفجاة قال بوركين لزميله : « لقد اخبرتنى فى المرة الاخيرة حينما كنا نقضى الليل فى كوخ العمدة بروكوف بأن لديك قصة تريد ان تقصها على » .

ـ « نعم كنت اريد ان اقص عليك قصة أخى . »

قال ذلك ايفان ايفانتش ثم استنشق الهواء ملء رئتيه واشعل غليونه تمهيدا للبدء فى حكاية القصة ، ولكن المطر كان اسبق منه فى البداية . ولم تمض خمس دقائق حتى كان ينهمر كالسيل دون ان يعرف أحد متى يكف عن السقوط ، فتوقف أيفان ايفانتش عن السير وانهمك الاثنان فى التفكير . وغرقت الكلاب فى ذلك السيل المنهمر فتوقفت هى الاخرى وارخت ذيولها ، وراحت تنظر الى سيديها فى ضراعة وقلق .

فقال بوركين : « يجب ان نسعى للحصول على مأوى . هيا الى منزل اليخين . انه قريب منا » .

ـ « اذن هيا » .

فمالا الى جانب الطريق وسارا أمامهما عبر الحقول التى حصدت حديثا ، ثم مالا نحو اليمين حتى وصلا الى طريق معبد . وهناك لم يلبثا ان لمحا على بعد أشجار الحور وبساتين الفاكهة وسقوف المخازن الحمر. وبدا سطح النهر يلمع أمام أبصارهما ، واستطاعا ان يميزا وجود غدير من الماء وطاحون ومخزن مطلى بالجص الابيض. ولم تكن هذه الا ضيعة سوفيينو التى يقيم فيها اليخين .

كان الطاحون يدور وضوضاء قلاعه تغطى على ضوضاء المطر ، وكان غدير الطاحون فى ارتجاف مستمر . والخيل الفارقة فى المطر تقف بجانب العربات ورءوسها مدلاة نحو الأرض والناس يروحون ويجيئون وقد اخفوا رءوسهم واكتافهم ببعض الاكياس . وكانت الارض مبللة موحلة وعثاء ، والماء يبدو باردا مخيفا . اما أيفان ايفانتش وبوركين فكانا قد عانيا من البلل والقذارة والإجهاد الجسمانى قبل وصولهما الى هذا المكان ، وتغطت أحذيتهما وبعض ملابسهما بالطين فلما تجاوزا غدير الطاحون اتخذا الطريق الصاعد نحو مخازن صاحب العزبة. وسارا صامتين كما لو كانا متنافرين.

وما كادا يقتربان من المخازن حتى سمعا ضوضاء غربلة تنبعث من احدها ، وكان بابه مفتوحا وسحب التراب تزحف من خلاله . وقد وقف أمامه اليخين نفسه ، وهو رجل بدين يبلغ الاربعين من عمره تقريبا ، طويل الشعر ، وتبدو عليه سيما المدرس أوالفنان اكثر من سيما صاحب الاملاك . وكان يرتدى قميصا أبيض فى اشد الحاجة الى الغسل ، وحزاما يتكون من قطعة حبل وسروالا داخليا ولا شيء بعد ذلك . وكذلك كان حذاؤه مغطى بالطين وفتات

التبن . وكان التراب يحيط بعينيه وانفه . وقد عرف كلا من ايفان ايفانتش وبوركين وبدا عليه السرور لرؤيتهما .

فقال وهو يبتسم : « اذهبا الى البيت ايها السيدان ، وساوافيكما بعد دقيقة » .

وكان المنزل يتكون من طابقين يقيم اليخين فى اسفلهما ، اما الدور الثاني فكان يتكون من بعض الغرف الفسيحة ومن غرفتين مقبوتى السقف بهما شبابيك صغيرة وكانا مخصصتين فيما مضى لسكنى الخدم . وكانتا فقيرتى الاثاث تتصاعد منهما رائحة خبز الشوفان والفودكا الرديئة والسروج البالية . ولم يكن اليخين يصعد الى هذا الطابق العلوى الا حين يصحب بعض الضيوف . وقد استقبلت ايفان ايفانتش وبوركين احدى الخدم ، وكانت امراة شابة ذات جمال صارخ لم يتمالك الضيفان نفسيهما الا ان يقفا امامها ماخوذين ويتبادلا النظرات على غير ارادة منهما .

ولحق اليخين بضيفيه فى ردهة المنزل ، فقال لهما محييا : «انكما لا تتصوران ايها الصديقان ، الى اى حد يبلغ سرورى برؤيتكما . انها لمفاجاة لطيفة حقا !» ثم التفت الى الخادمة وقال : « بيلاجيا! احضرى للسيدين بديلا عن ملابسهما المبللة . وربما كنت انا ايضا فى حاجة الى تغيير ملابسى . ولكن يجب ان استحم اولا ، فما اظن انى اغتسلت منذ الربيع . ولعلكما لا تمانعان ايضا فى الاستحمام ، مادام الحمام سيجهز على اية حال » .

واحضرت لهم الخادمة الجميلة ، ذات النظرة الوادعة والمنظر الرقيق بعض المناشف والصابون ، وذهبوا جميعا الى الحمام .

فقال اليخين ، وهو ينزع عنه ملابسه : « نعم ، لم اضع الماء على جسمى منذ زمن طويل . ومع ذلك فلدى مكان لطيف للاستحمام . كما ترون ، كان ابى قد بناه . ولكنى على اية حال لا اجد لدى الوقت للاستحمام » .

ثم جعل يدلك عنقه وجسمه الضخم بالصابون ، واخذ الماء يسيل من حوله فى لون التراب .

ونظر ايفان ايفانتش الى راس صديقه نظرة ذات مغزى ، وقال : « نعم بكل تاكيد ... » .

وكرر اليخين قوله فى شىء من الخجل : « لم اضع الماء على جسمى منذ زمن طويل ... » ! ثم راح يدلك جسمه بالصابون مرة

اخرى ، واصبح الماء المتساقط من حوله فى هذه المرة ازرق فى لون الحبر .

وانطلق ايفان ايفانتش خارجا من المخزن ، وقفز الى الماء محدثا بعض الضوضاء ، واخذ يسبح تحت المطر مادا ذراعيه الى اقصى اتساعهما محدثا حوله امواجا صاخبة ، وجعل الماء يتساقط من تلك الامواج فيما يشبه ازهار الزنبق البيض . واستمر يسبح حتى وصل الى وسط النهر ، ثم غطس ، وبعد ان مكث برهة تحت الماء طفا فى مكان آخر . وواصل سباحته من جديد مجددا الغطس من حين لحين محاولا ان يصل فى غطسه حتى قاع النهر . وهو لايفتا طول الوقت يصيح مبتهجا : « آه يا الهى !.. » وواصل سباحته حتى وصل الى الطاحون حيث ظل هناك برهة من الزمن يتحدث مع بعض الفلاحين . ثم عاد ادراجه ولكنه حين وصل الى وسط النهر فى اثناء رجوعه اخذ يسبح بهدوء كانه يطفو ، ويعرض وجهه للمطر المنهمر ، وكان اليخين وبوركين قد ارتديا ملابسهما واستعدا للرحيل . اما فهو فقد استمر يسبح ويغطس .

وفى هذه الاثناء كلها لم يكف عن ترديد صيحة الابتهاج : « الله! الله .. آه يا الهى الحبيب ! » .

واخيرا صاح به بوركين : « اخرج ! » .

وعاد الثلاثة ادراجهم الى البيت . ولما اوقد المصباح فى قاعة الجلوس الكبيرة التى بالطابق الاعلى . كان بوركين وايفان ايفانتش يجلسان على مقعديهما المريحين ويرتديان عباءتين من حرير واحذية داخلية دافئة على حين اخذ اليخين بعد ان اغتسل ورجل شعره ، يذرع ارض الغرفة ذهابا وايابا وهو مرتد حلته الرسمية الجديدة ويستمتع بالدفء والنظافة والثياب الجافة والخف المريح ، وبدت بيلاجيا الجميلة تغدو وتروح بابتسامتها اللطيفة وتطأ البساط مترفقة وعلى يديها صينية الشاى والمربات . وحينئذ فقط بدا ايفان ايفانتش حكايته على حين كانت السيدات القدامى والشابات والسادة العسكريون يطلون عليه من اطاراتهم المذهبة المعلقة على الحوائط فى قوة كما لو كانوا هم ايضا يشتركون فى الانصات .

وانبرى يقول : « كنا اخوين : ايفان ايفانتش (انا) واخى نيقولاى ايفانتش الذى كان يصغرنى بعامين . اما انا فقد واصلت دراستى حتى صرت طبيبا بيطريا ، واما نيقولاى فانه لم يناهز التاسعة عشرة من عمره حتى بدأ يعمل فى احد المكاتب الحكومية .

وكان ابي تشمشاهيما لايسكي قد تعلم في مدرسة لتعليم ابناء الجنود الخصوصيين ، ولكنه فيما بعد رقي ضابطا وجعل نبيلا وراثيا ومنح ضيعة صغيرة . وبعد أن مات بيعت ضيعته لتسديد ديونه ، ولكننا على الاقل ، قضينا طفولتنا في حرية الريف حيث كنا نجوب الحقول والغابات كابناء الفلاحين ونرعى الخيل وننزع لحاء أشجار الزيزفون ونصيد السمك ونقوم بافعال اخرى كثيرة من هذا القبيل . وكل شخص تأتي له ، ولو مرة في حياته ، أن يصيد بالشص او أن يشاهد العصافير تطير في الخريف نحو الجنوب وتحلق فوق القرية في الايام الصافية الأديم المائلة الى البرودة ، لابد أن يصبح غير صالح لحياة المدينة وان يتوق لحياة الريف بقية ايامه . وكان اخي قد سئم طول احتباسه في المكتب الحكومي ، اذ كانت تمر السنون تباعا وهو جالس في مكان واحد بعينه يعمل العمل نفسه ويفكر في أمر واحد لايتغير ، الا وهو العودة الى الريف . وقد تحول هذا الشوق بالتدريج الى رغبة محددة ، الى حلم بشراء ضيعة صغيرة على شاطىء نهر أو شاطىء بحيرة .

وقد كان نيقولاى شخصا عذب السجايا حلو الطباع ، وكنت احبه كثيرا ، ولكنني لم اكن احبذ ان يسجن المرء نفسه في ضيعة يملكها طوال حياته . يقال ان الانسان لايحتاج الى اكثر من ستة أقدام من الارض . ولكن الجثة هي التي لا تحتاج الى اكثر من ستة اقدام ، وليس الانسان . ويقال ايضا ان من البشائر الحميدة أن ترى المشتغلين بالاعمال العقلية في ايامنا هذه يتوقون الى الارض والحصول على المنازل الريفية ، ومع ذلك فان هذه الضياع ليست الا الاقدام الستة نفسها . فان هرب الانسان من المدينة ومن الكفاح وضوضاء الحياة ، ان هرب الانسان لكي يخفي رأسه في ضيعة ريفية ليس من الحياة في شيء ، ولكنه الاثرة والكسل ، انه نوع من العزوف والزهد ، ولكنه زهد دون ايمان . ان الانسان لايحتاج الى ستة اقدام من الارض ولا الى ضيعة ريفية ، بل الى الارض كلها ، والى الطبيعة بأسرها ، لكي يبرز كل صفاته ومميزات نفسه الفردية .

كان يجلس اخي نيقولاى على مكتبه وهو يحلم بتناول حساء الكرنب الذى زرعه بنفسه وعمت رائحته اللذيذة فناءه جميعه ، وبالاكل خارج الابواب فوق العشب الاخضر ، والنوم تحت الشمس ،

والجلوس ساعات طويلة خارج المنزل ، وتمتيع عينيه بالنظر الى الحقول والغابات وكانت متعتــه وغذاؤه العقلي ينحصران في كتب الزراعة وتلك الاشارات المطبوعة في التقاويم . وكذلك كان يغرم بقراءة الصحف ولـكنه لم يكن يقرأ فيها الا الاعلانات التي تنشر من بيع فدادين كثيرة من أرض الزراعة والمراعي والتي يتبعهـا مسكن ونهر وحديقة فاكهة وطاحون وغدران تستمد ماءها من المنابع. وكان رأسه مفعما بصورممرات الحدائق والزهور والفواكه وصناديق التفريخ وبحيرات السمك وكل ما هو من هذا القبيل . وكانت هذه الصور تختلف تبعا للاعلانات التي يقرؤها ، ولـكن لسبب ما كانت شجيرات عنب الدئب تمثل فيهـا كلها . فـكان لايستطيع ان يصور لنفسه ضيعة واحدة أو ركنا جميلا واحدا دون أن يكون غاصا بخمائل عنب الدئب .

وكان لا يفتأ يقول في نفسه : ان حيـاة الريف لها مزاياها . فانت تستطيع ان تجلس في الشرفة وتحتسي الشاي فيها ، وامامك بطائك تسبح في الغدير والرائحة الزكية تصل اليك من كل شيء فتنعش خياشيمك ... وفاكهة عنب الدئب تنمو على شجيراتها .

وكثيرا ما كان يرسم تصميمات لعزبتـه ، وكان كل تصميم يحتوي على هذه المرافق بعينها :

(ا) المسكن الرئيسي . (ب) جناح الخدم . (جـ) حديقة الخضر (د) خمائل عنب الدئب .

وقد عاش عيشة كلها ضنك ، فـكان لاياكل حتى يشبع ، ولا يشرب حتى يرتوي ، ويلبس كما يلبس الشحاذون ، ويودع كل نقوده في البنك ، حتى أصبح مثالا للقذارة ، وصرت لا اطيق النظر اليه ، وكنت كلما منحته قليلا من النقود او بعثت اليه بهدية في احدى المناسبات ، اضافها الى مدخراته ايضا . والواقع انه اذا رسخت فكرة في ذهن انسان عجزت الحجج جميعها عن اقناعه بالعدول عنها.

ومرت السنون تلو السنون، ونقل نيقولاي الى وظيفة اخرى . وقد جاوز الاربعين من عمره ولـكنه لم يكف عن قراءة الاعلانات في الصحف وادخار المال . واخيرا سمعت انه تزوج . ولم يكن زواجه الا من اجل هذا الهدف أيضا : وهو شراء ضيعة فيها خمائل من عنب الدئب ، ولقد تزوج من امرأة دميمة مترملة لم يكن يشعر نحوها باية عاطفة ، ولـكن كان لديها بعض المال . وظل بعد زواجه

يعيش عيشة التقتير التى كان يعيشها من قبل . فيمسك الطعام والشراب عن زوجته ، ويضع مالها هى الاخرى مع رصيده بالبنك. وقد كان زوجها الاول وكيل مكتب بريد عودها على رغد العيش ، ولكنها مع زوجها الثانى اصبحت لا تحظى حتى بكفايتها من الخبز الاسود . فبدأت تذوي وتذبل . ولم تمض عليها ثلاثة أعوام حتى اسلمت روحها الى بارئها . وبطبيعة الحال لم يتطرق الى ذهن اخي لحظة واحدة انه كان هو السبب فى موتها . فالنقود كالفودكا ، من شأنها ان تقضي على المرء بالشذوذ فى تفكيره وتصرفاته . وقد حدث فى مدينتنا ذات مرة أن طلب رجل طبقا من العسل وهو فى فراش الموت ، فلما احضر له اكله وأكل معه الاوراق النقدية ، وأوراق اليانصيب التى كانت فى حوزته . حتى لا تؤول الى أحد غيره بعد وفاته . وحدث ذات مرة أخرى ان كنت أقوم بفحص شحنة من الماشية على احدى محطات السكة الحديد . فسقط راع تحت عجلات القطار وقطعت ساقه من جسمه ، فحملناه الى قاعة الانتظار والدماء تنزف منه ، وكانت حالته تدمي القلوب ، ولكنه لم يكن يهتم الا بأمر واحد فقط ، فكان لا يكف عن رجائنا أن نحافظ على ساقه المقطوعة لأنه يحتفظ فى حذائها بثلاثين روبلا ، ويخشى أن تمتد اليها أيدى اللصوص .

وهنا قال بوركين : « لقد فقدت خيط الكلام » .

فسكت ايفان ايفانتش برهة ، ثم استمر يقول : « وبدأ اخي بعد وفاة زوجته يبحث عن ضيعة . ومما لاريب فيه انك قد تواصل البحث خمس سنين طوال ثم تشترى شيئا يختلف تمام الاختلاف عما كنت تحلم به . وقد اشترى أخي نيقولاى ثلاثمائة فدان ومعها مسكن للمالك ، ومساكن للخدم ، وبستان ، وعليها بعض الدين الذى يجب أن يسدد عن طريق أحد البنوك ، ولكن لم تكن بها حديقة فاكهة ولا خمائل من عنب الدئب ولا بحيرة بط . وكان يمر بها نهر ، ولكن ماءه كان فى لون القهوة لأنه كان يجرى بين حائط من الآجر فى أحد جانبيه وسلسلة من أفران حرق الجير فى الجانب الآخر. فلم يكن هناك الكثير مما يحلم به أخي نيقولاى ايفانتش ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يأمر بزرع بعض خمائل عنب الدئب والاقامة فى الضيعة باعتباره صاحب أملاك .

وفى العام الماضى ذهبت لزيارته لأرى كيف حاله فى مستقره

الجديد، وكان يذكر فى خطاباته ان عنوانه هوتشمبارو كلوفابستوش او هيمالايسكوى . فوصلت الى هيمالايسكوى بعد الظهر ، وكان الجو شديد الحرارة ، والطريق الى الفناء مليئا بالحفر والاسيجة والاسوار واشجار الصنوبر ، حتى كان من العسير على المرء أن يصل اليه بعربته أو أن يجد لها مكانا أمامه . وحينما كنت على وشك الدخول ، خرج لمقابلتى كلب سمين فى لون الزنجبيل ويشبه الخنزير الى حد يلفت النظر . وكان يبدو كأنه على وشك النباح لو لم يكن كسولا . وخرجت الطباخة من المطبخ ، وكانت هى الاخرى حافية القدمين سمينة الجسم تشبه الخنزير الى حد كبير ، واخبرتنى بأن سيدها يستريح فى غرفته بعد أن تناول طعام الغداء . فشققت طريقى نحو غرفة أخى حيث وجدته جالسا على فراشه وقد غطى ركبتيه بملحفة من الصوف . وكان قد بدا عليه الكبر وسمن وترهل ، وتدلى خداه وأنفه وشفتاه ، حتى كدت اتوقع أن أسمعه يجأر كالخنزير تحت ملحفته .

وتعانقنا سويا وانفجرنا بالبكاء من شدة السرور الممزوج بالحزن، لأننا كنا فيما مضى شابين ، وأصبحنا الآن اشيبى الشعر نتقدم نحو القبر بخطا وئيدة . وبعد ذلك ارتدى أخى ملابسه وخرج معى ليطلعنى على ضيعته .

فسألته : « وكيف حالك هنا ؟ » .

ــ « على ما يرام ، والحمد لله انى فى غاية السعادة . » .

وقد لاحظت انه لم يعد ذلك الموظف الكتابى المسكين الخجول بل أصبح سيدا ومالكا حقيقيا ، فقد استقر وامتزج فى الحياة الريفية بكل كيانه . وصار يقبل على الاكل بكل نهم ويستحم فى حمامه الخاص ويربى لحما وشحما على جسمه . ودخل مع القرية فى نزاع حول حائط الآجر وأفران الجير . وكان يغضب أشد الغضب حين ينسى الفلاحون تلقيبه « بصاحب الشرف » . وقد اشتهر بتدينه على طريقة السادة المتينة . ولم يكن يترك شيئا للصدفة بصدد أفعال البر العظيمة التى يقوم بها . وما أفعال البر هذه ياترى ؟ كان يعالج الفلاحين من أمراضهم جميعها ببيكربونات الصودا وزيت السمك . ويقيم حفلا خيريا بمناسبة عيد شفيعه يوزع فى عقبه نصف دن من الفودكا . معتقدا ان هذا هو خير الطرق لعمل الخير . وما أعجب أنصاف دنان الفودكا هذه ! لقد كان

السيد المالك يقوم اليوم بجر الفلاحين أمام ممثل المجلس الاقليمي لأنهم تركوا غنمهم ترعى فى أرضه . وفى يوم الاحتفال بعيده يوزع عليهم نصف دن من الفودكا . فيشربون ويهتفون بحياته ويركعون تحت قدميه وهم سكارى . وكان كل تحسن فى ظروفه .كل شبع أو كسل يصيبه يثير أوقح أنواع الرضا التى يمكن ان يصاب بها روسى . فنيقولاى ايفانتش هذا الذى كان يخشى ان يكون له رأى خاص حين كان فى خدمة الحكومة ، أصبح الآن لا يكف من اصدار الحكم الاخلاقية والقواعد الاجتماعية على طريقة السادة الكبار ، فكان يقول مثلا : « ان التعليم أمر جوهرى، ولكن الشعب لايزال حتى الآن غير مستعد له » ومثل : « ان العقاب البدنى شر ، ولكنه مفيد وضرورى فى بعض الحالات » .

ومما قال له : « انى اعرف الشعب جيدا وأعرف كيف أعامل افراده . وما على الا أن اشير بصغرى أصابعى لكى يسارعوا بفعل ما أريد فعله مهما كان » .

ولا تنس انه يقول كل هذا وعلى وجهه تلك الابتسامة الحكيمة المتسامحة وكان لا يفتأ يقرر قوله : « نحن ، معاشر النبلاء » أو « أقول ، باعتبارى أحد النبلاء » ويبدو عليه انه قد نسى أن جدنا كان فلاحا ، وأن أبانا كان مجرد جندى ، والواقع ان اسم أسرتنا تشمشا هيمالايسكى ـ ذلك الاسم الذى لا معنى له ، أصبح يبدو لأخى اسما رنانا ممتازا حافلا بالدلالات .

ولكنى أريد أن أتكلم عن نفسى أنا لا عنه . أريد ان أصف لكم ذلك التغيير الذى طرأ على خلال الساعات القليلة التى قضيتها فى ضيعة أخى . فبينما كنا نتناول الشاى فى المساء ، احضرت لنا الطباخة صينية ملأى بعنب الذئب . ولم يكن هذا العنب مشترى بالنقود ، بل من انتاج حديقته الخاصة وأول بواكير ثمار الخمائل التى زرعها بنفسه . ولم يكد نيقولاى ايفانتش يرى هذه الثمار حتى انفجر بالضحك وراح يحملق فيها فى صمت وعيناه تلمعان بالدموع ، وظل على هذه الحال خمس دقائق على الاقل . وبعد ذلك قذف فى فمه باحدى هذه الثمار دون أن ينبس بكلمة واحدة وعلى وجهه أشد علامات التأثر ، ثم وجه الى نظرة الانتصار التى نراها عادة فى وجه الطفل حين يحصل فى نهاية الأمر على لعبة طال اشتياقه اليها وقال :

« للدبك ! » .
والتهم الفاكهة كلها بشره ، وهو لا يفتأ يكرر :
« انه حقيقة للدبك ! حاول أن تذوقه » .

وكانت هذه الثمار فجة مرة المذاق ، ولكن،كما يقول بوشكين : « الاكذوبة التي تتملقنا خير من الف حقيقة مجردة » . فقد كنت أرى أمامي رجلا سعيدا حقا ، رجلا تحققت له أعز امانيه ، ووصل الى هدفه من الحياة ، وحصل على كل ما كان يبغى ، وأصبح راضيا عن حظه وعن نفسه . ولقد كان تصوري للسعادة البشرية مصبوغا دائما بمسحة من الحزن ، ولكني بعد أن واجهت امامي رجلا سعيدا استولى على شعور طاغ من الحزن الذي يبلغ حد اليأس . وقد بلغ هذا الشعور اقصى مداه في أثناء الليل ، حيث أعد لى فراش فى الغرفة المجاورة لغرفة أخي ، وتأتى لى أن اسمعه يقضى الليل كله فى حركة دائبة وينهض منحين لحين لتناول احدى ثمار عنب الدئب من طبق موضوع بالقرب منه . فكنتاقول فى نفسي : « ما اكثر السعداء القانعين على وجه الارض ! ويالها من قوة قاهرة تلك السعادة ! ان نظرة واحدة الى هذه الحياة لا تطلعنا الا على الوقاحة والكسل من جانب الاقوياء ، والجهل والحيوانية من جانب الضعفاء ، وعلى الفقر المدقع الذي لا يكاد يخلو منه مكان ، وتلك المساكن القذرة المزدحمة المتداعية ، وعلى الانحلال والسكر والنفاق والكذب ... ومع ذلك فان السلام والنظام يخيمان ، فى الظاهر على تلك البيوت والشوارع ، حتى لانرى شخصا من بين الآلاف الخمسين الذين تغص بهم أي مدينة من المدن يطلق صيحة أو يعبر عن سخطه بكلمة أو بحركة . أننا نرى أولئك الذين يذهبون الى الاسواق لابتياع الطعام ، وأولئك الذين يأكلون بالنهار وينامون بالليل، ومن يثرثرون، ومن يتزوجون، ومن يهرمون ، ومن يحملون موتاهم الى المقابر . ولكننا لا نسمع ولا نرى أولئك الذين يتألمون . اذ أن أبشع ما فى هذه الحياة من أمور يجرى خلف الكواليس . كل شيء هادىء . كل شيء ساكن وليس هناك الا الاحصاءات التي تحتج فى صمت بليغ . فكثير من الناس قد ذهبوا وكثير من دنان الشراب قد استهلكت وكثير من الاطفال قد ماتوا من سوء التغذية ...

والظاهر أمام الابصار ان كل شيء على ما ينبغى ان يكون .

الظاهر امام الامين ان السعداء هم وحدهم الذين لهم حق الاستمتاع بالحياة ، لان غير السعداء يتحملون اعباءهم فى صمت . لانه لولا هذا الصمت لما كان للسعادة اى وجود . انه نوع من التخدير العام الشامل ، فيجب ان يكون هناك رجل يمسك بمطرقة فى يده ويقف خلف باب كل شخص سعيد لكى يذكره بطرقاته المتواصلة أن هناك اناسا تعساء . وان سعادته لن تستطيع ، مهما عظمت ان تمنع الحياة من ان تكشر له عن انيابها ان عاجلا وأن آجلا . وان كوارث المرض أو الفقر او الفقدان قد تبطش دون أن يسمع به أو يراه أحد . بالضبط كما انه لايسمع الآن بمصائب الآخرين ولا يراها . ولكن ليس هناك رجل بيده مطرقة . فترى السعيد يتابع عيشه دون ان تمسه صروف الحياة الا مسا خفيفا ، كما تمس الريح شجرة الحور . وكل شىء على ما يرام » .

ونهض ايفان ايفانتش من مكانه . ثم واصل كلامه قائلا : « وفى هذه الليلة فهمت انى ، انا ايضا ، رجل سعيد راض . فانا ايضا حين اخرج للصيد او اجلس على مائدة الطعام ارى انى اتبع الطريق السوى فى الحياة وفى العبادة وفى معاملة الناس . وانا ايضا كنت اعلن انه لا نور الا نور المعرفة ، وان التعليم ضرورة لازمة . ولكنى كنت أعلن ايضا ان تعليم القراءة والكتابة تكفى بالنسبة لعامة الشعب . وكنت اقرر أن الحرية نعمة كبرى ، وانه لايمكن للمرء ان يعيش بدون الحرية كما لايمكنه ان يعيش بدون الهواء ولكن ينبغى أن نتريث وأن ننتظر . نعم . هذا ما كنت اقوله . ولكنى الآن اتساءل : من اجل اى باعث ننتظر ؟ .. »

وهنا نظر ايفان ايفانتش الى بوركين نظرة تنم عن الغضب ، ثم قال مكررا : « انى اسألك ، من اجل اى باعث ننتظر ؟ ماذا يدخل فى اعتبارنا فيحملنا على الانتظار ؟ انهم لاينفكون يقولون لى : لا تتعجل الى هذا الحد ، فان الافكار تتبلور بالتدريج وفى اوانها . ولكن من هم هؤلاء الذين يقولون ذلك ؟ وما الدليل على انهم على صواب ؟ انكم تحتجون بالنظام الطبيعى للأشياء وبمنطق الحوادث ـ ولكن اى نظام واى منطق يخولان لى ، انا الكائن الحى المفكر ، ان اقف على حافة حفرة وانتظر انسدادها او انطباق حافتيها بالتدريج فى حين انه يمكننى عبورها قفزا او باقامة جسر عليها ؟ ومرة أخرى ، من اجل اى باعث يتحتم علينا ان ننتظر ؟

ان ننتظر وليست لدينا القوة للعيش ، فى حين انه يتحتم علينا ان نعيش ، ونرغب فى ان نعيش ! »

وغادرت أخي فى اليوم التالى ، واراني منـذ ذلك الحين اجد الحياة فى المدينة عبئا لا يحتمل ، اذ ان السلام والنظام اصبحا ينوءان بكلكليهما على نفسى واصبحت اخشى النظر من الشباك ، لانه لاشىء يحزننيأكثر من رؤية اسرة سعيدة حول مائدة الشاى. وانا الآن هرم وغير قادر على الكفاح ، بل لم يعد فى وسعى أن اشعر بالبغض . وكل ما استطيعه الآن هو أن اتألم فى قرارة نفسى ، وان اشعر بالضيق والحزن ، وبالليل أحس برأسى يحترق من تزاحم الافكار فيه ، الى حد أن يتعذر على النوم ... آه ، لو كنت لا ازال شابا !..

وبدأ ايفان ايفانتش يذرع أرض الغرفة ذهابا وايابا ، وهو يكرر: « لو كنت لا ازال شابا ! » .

وفجاة سار نحو اليخين ، وبدأ يضغط على احدى يديه ، ثم على الاخرى بعد ذلك ، ويقول فى نبرات كلها توسل :

« يا بافلكنستانتيفتش ، لاتركن الى الدعة ، ولا تجعل ضميرك يستلذ النوم ولا تسأم من فعل الخير مادمت شابا قويا نشيطا . فليس هناك شىء يضارع السعادة ، ولا ينبغى ان يكون هناك ما يضارعها ، ولكن اذا كان هناك للحياة معنى أو هدف ، فان هذا المعنى وهذا الهدف لا يوجدان فى سعادتنا الشخصية ، بل فى شىء اعظم من ذلك واقرب للعقل والمنطق . افعل الخير ! » .

وقال ايفان ايفانتش كل ذلك وعلى وجهه ابتسامة متوسلة ضارعة كما لو كان يستجدى شيئا لنفسه .

وعندئذ جلس الرجال الثلاثة فى كراسيهم المريحة متباعدين بعضهم عن بعض ودون أن ينبس أحد منهم بكلمة . وذلك ان قصة ايفان ايفانتش لم ترض بوركين ولا اليخين . ولم تكن هناك أية متعة فى الانصات الى قصة موظف صغير مسكين يأكل عنب الذئب، فى حين كان يطل عليهم من الاطارات الذهبية المعلقة على الحائط قواد وسيدات رقيقات يبدو عليهم كما لو كانوا قد بعثوا فى ظلام الليل . ولا شك انه كان أمتع من ذلك الانصات الى قصة تدور حول اناس محترمين او سيدات أنيقات . بل ان مجرد جلوسهم فى قاعة استقبال كل مافيها من شمعدانات ملفوفة بالحرير ومقاعد

مريحة وبسط تغطي ارض الغرفة ، يبرهن على ان أولئك الاشخاص الذين يطلون من الاطارات قد عاشوا هنا فيما مضى وجلسوا على المقاعد واحتسوا الشاي حيث تتبختر الآن بيلاجيا اللطيفة في رفق وهدوء . نقول لا شك ان الجلوس في هذا المكان كان امتع من اية قصة .

فكان النوم يداعب اجفان اليخين ، لانه كان قد استيقظ مبكرا في الساعة الثالثة صباحا لكي يذهب الى عمله في الضيعة. ولذلك لم يكن يقوى الآن على الاحتفاظ بعينيه مفتوحتين الا بشق النفس. ولكن لم يكن في استطاعته ان يذهب الى فراشه خوفا من أن يحكي احد الضيفين قصة ممتعة بعد ذهابه . ولم يكن في مقدوره أن يقطع بما اذا كانت القصة التي حكاها ايفان ايفانتش قصة حكيمة أو عادلة ، ولكن زائريه كانا قد بدءا يتكلمان في اشياء اخرى غير البذور والاسيجة والعطران ، في اشياء لا تمت الى حياته اليومية بطريق مباشر ، واستعذب هذا الكلام ، وود لو استمرا فيه ...

ولكن بوركين نهض واقفا وقال : « لقد آن اوان الذهاب الى الفراش ، فاسمحا لي ان اتمنى لكما ليلة سعيدة . » .

فقال اليخين : « ليلتكما سعيدة » ونزل الى غرفته الخاصة تاركا الضيفين في الطابق العلوي ، حيث خصصت لهما قاعة فسيحة فيها سريران من الخشب المحفور ، وتمثال من العاج يمثل المسيح فوق الصليب في احد اركانها . وكانت الغرفة تعبق برائحة زكية منبعثة من اللاءات المكوية ، والفرش الفسيحة المنعشة التي اعدتها لهما بيلاجيا اللطيفة .

وخلع ايفان ايفانتش ملابسه في صمت ، ثم اضطجع على فراشه.

وقال وهو يجر ملاءة فوق راسه : « الطف بنا يامولانا ، فاننا قوم آثمون ! » .

وتصاعدت ايضا رائحة قوية لطباق متعطن ، متصاعدة من غليونه الذي وضعه على المنضدة ، ولذا ظل بوركين مستيقظاً مدة طويلة ، وهو يتساءل من أين تنبعث تلك الرائحة الكريهة ؟ ..

وظل المطر يقرع زجاج الشبابيك طوال الليل .

السيدة صاحبة الكلب



السيدة صاحبة الكلب

- ١ -

راح الناس يخبرون بعضهم بعضا بانهم راوا وافدة جديدة تسير في الشارع الكبير، وهى سيدة معها كلب . وكان دميترى دميتريتش جوروف قد وصل الى يالتا منذ اسبوعين ، وبدأ يتشرب عادات أهلها ويهتم ، هو ايضا ، بالوافدين الجدد . وقد لمح من فوق مقعده أمام مقهى فرنيت سيدة شابة تلبس قبعة على راسها وتسير في شارع النزهة ، وهى لطيفة المظهر ليست بالطويلة ، وكان يهرول وراءها كلب بمراني ابيض .

وبعد ذلك اصبح يقابلها عدة مرات يوميا في حديقة البلدية وفي الميدان . وكانت وحدها دائما ، وعلى راسها القبعة نفسها ، ومعها الكلب اليمراني يهرول من خلفها دائما ، ولم يكن أحد من الناس يعرف من هى ، ولكنهم كانوا يشيرون اليها باسم : « السيدة صاحبة الكلب » .

فقال جوروف في نفسه : « اذا كانت هناك دون زوجها ودون اى صديق ، فاني أعتقد انه لاباس من التعرف بها . » .

ولم يكن جوروف قد بلغ الاربعين من عمره بعد ، ولكن كانت له ابنة في الثانية من عمرها وابنان يترددان على المدرسة. ويقال انه كان قد تزوج منذ السنة الثانية من التحاقه بالمدرسة الثانوية ، ولذا تبدو زوجته الآن كما لو كان سنها ضعف سنه . وهى امراة طويلة القامة ، سوداء الحاجبين ، حسنة التربية ، تبدو عليها مخايل العظمة ، ومن النساء « المفكرات » كما تقول هى عن نفسها. وكانت مولعة بالقراءة ولا تضع علامة النبر الشديد (١) في اواخر

(١) كان بعض المتعلمين المتقدمين يتغاضون عن وضع علامة النبر الشديد بعد الحروف الصامتة في الكتابة ، وبذلك سبقوا الاصلاح الذى ادخل على الابجدية الروسية فيما بعد .

الـكلمات حينما تكتب خطابا ، وتدعو زوجها دائما باسم «ديمترى» بدلا من « دميترى » ، وكان زوجها يخشاها ويتحاشى البقاء فى البيت ، بالرغم من انه كان يعتقـد بينه وبين نفسـه انها ضحلة التفكير ، ضيقة الافق ، لا ذوق لها فى تنسيق ثيابها . وقد بدأ يخونها منذ زمن طويل حتى أصبح الآن لا يفكر الا فى خيانتها ، ولا شك ان هذا هو السبب فى انه كان يتكلم باحتقار شـديد عن جنس النسـاء اللائى كان يدعوهن « بالجنس الدنىء » .

وكان يعتقـد ان الدروس القاسية التى تلقاها من تجاربه المرة تؤهله لأن يقول فيهن ما يشاء . ولـكنه لم يكن يستطيع الحياة يوما واحدا دون هذه الطبقة الدنيا من البشر . فقد كان يشعر بالملل والحرج فى صحبة الرجال ، ويعاملهم دائما بفتور وتحفظ ، فى حين كان يشعر بتمام الألفة وهو بين النساء ، ويعرف تماما ماذا يقول لهن وكيف يسلك فى حضرتهن ، بل كان فى مقدوره أن يظل صامتا وهو فى صحبتهن دون أن يشعر باى حرج . فكان فى مظهره ومسلـكه سحرخداع يجتذب النسـاء ويفوز باعجابهن. وكان يعرف فى نفسـه ذلك ، ويشعر ـ هو ايضا ـ بانه ينجذب نحو النساء بتأثير قوة خفية .

وقد علمته التجارب المرة المتكررة ان كل اتصال جديد من تلك الاتصـالات التى كانت تدخل على حياته اليومية شيئا من التنويع السار فى بادىء الأمر، وتعتبر فى عينه ضروبا من المغامرات الخفيفة الساحرة ، لابد ان تتطور، بين الناس المحترمين (لاسيما فى موسكو حيث يتسم الناس بالتردد وبطء الحركة) الى مشكلة معقدة كل التعقد من شانها ان تؤدى الى مواقف سيئة لايمكن احتمالها . ولـكنه كان كلما التقى بامرأة جذابة ، نسى كل تجاربه وتجددت فى نفسـه رغبته فى الحياة وبدا له ، فجاة ، ان الأمر فى غاية البسـاطة وانه لا يخلو من المتعة والتسلية .

وفى ذات يوم كان يتناول طعام العشاء فى مطعم الحديقـة ، فجاءت السيدة ذات القبعة تتهادى ، واتخذت لها مكانا على المنضدة المجاورة . وقد راى فى تعبير وجهها ومشيتها وهنـدامها وطريقة ترجيل شعرها مايدل على انها من الطبقات الراقية ، وانها متزوجة وقد جاءت الى يالتا للمرة الاولى فى حياتها ، وانها وحدها ولذلك لا يفارقها الملل ... والذى لا شك فيه ان ما يروى عن الانحلال

الخلقي بين زوار يالتا امر مبالغ فيه الى اكبر حد ، ولذا لم يكن جوروف يعيرها اى التفات علما منه بانها من اختراع اناس كانوا يودون ان يأثموا لو كان فى مقدورهم ان يفعلوا . ولكن وجود السيدة على منضدة لا تبعد عنه أكثر من بضعة امتار اعاد الى ذهنه هذه الفكرة الجذابة ، فكرة عقد صلة عابرة مع امرأة يجهل عنها كل شيء حتى اسمها .

وطقطق للكلب بأصابعه ، فلما هرول اليه ، أخذ يدغدغ ما تحت عنقه بسبابته ، وبدأ الكلب يزمجر فدغدغه مرة اخرى .

ونظرت اليه السيدة برهة ، ثم ما لبثت أن خفضت بصرها نحو الارض ، وقالت : « انه لا يعض » وعلى اثر هذه الكلمة توردت وجنتاها من الخجل .

فسألها : « هل يمكنني ان أناوله قطعة من العظم ! » ولما حنت راسها بالايجاب ، اضاف يسأل فى نغمة هاشة باشة : « هل انت فى يالتا منذ زمن طويل ؟ » .

فأجابت : « منذ حوالي خمسة ايام . » .

ورد قائلا : « اما انا فقد اكملت أسبوعى الثانى . » .

ومرت بضع دقائق دون أن ينبس احدهما بكلمة .

ثم قالت السيدة وهى توجه نظرها اليه : « ها هى ذى الايام تمر سراعا ، ومع ذلك فان المرء يكاد يموت من السأم فى هذه المدينة » .

واجاب : « لقد اصبحت الشكوى من السأم امرا معتادا فى هذه المدينة . ومع ذلك لم يحدث ان اشتكى احد السأم تلك الاجحار التى من قبيل بلييف وشيزورا . ولكنهم اذا جاءوا الى يالتا ، لم يكفوا عن الصياح : يا لشدة الغيوم ! يا لكثرة التراب ! حتى ليظن المرء انهم قد يأتون من غرناطة ليقولوا مثل هذا الكلام » .

وضحكت السيدة ، ثم اقبلا على الطعام فى صمت كما لو كانا غريبين . ولكنهما بعد أن انتهيا من العشاء خرجا من المطعم سويا وراحا يتحدثان احاديث قوم مسرورين لا عمل لهم ولا يبالون اين يذهبون او فيم يتكلمون . وانطلقا يتسكعان على الشاطىء وينظران الى الاضواء الخافتة المنعكسة على سطح البحر . وكان الماء دافئا ارجوانى اللون تنعكس عليه اشعة القمر فى خطوط عسجدية . وقالا ان جو السماء اصبح مغلقا بعد نهار شديد الحرارة . واخبرها جوروف انه من موسكو وانه عالم لغوى فى حقيقة الأمر ، ولكنه

يعمل فى أحد البنوك ، وانه قام ذات مرة بالتمرن على الغناء للاشتغال فى احدى الاوبرات الخاصة ، ولكنه تخلى عن هذه الفكرة ، كما ذكر انه يملك منزلين فى موسكو ... وعرف منها انها نشأت فى بطرسبورج ، ولكنها تزوجت فى مدينة «س» التى كانت قد اقامت بها لمدة عامين، وقالت انها ستمكث شهراً آخر فى يالتا ، وان زوجها سيلحق بها لحاجته الى الاستجمام . ولكنها لم تستطع أن توضح ما اذا كان زوجها عضواً فى المجلس البلدى أو موظفاً فى مجلس الاقليم ، وكان ذلك مما يسليها ويثيرها الى الضحك من نفسها . وبعد ذلك علم جوروف أن اسمها هو « انا سرجييفنا» .

وما أن رجع الى غرفته حتى أخذ يفكر فيها من جديد ، وشعر بانه سيلتقى بها فى اليوم التالى على وجه التأكيد ... وكان ذلك أمراً لابد منه وحين آوى الى فراشه تذكر انها كانت منذ زمن قصير مثل ابنته تلميذة بالمدرسة تستذكر دروسها ، وتذكر أيضاً مقدار الخجل والحرج اللذين كانا يبدوان فى ضحكتها ، وفى طريقة كلامها مع شخص غريب وقال فى نفسه لعل هذه أول مرة فى حياتها تجد نفسها فيها وحيدة وفى موقف يجعل الرجال يتبعونها وينظرون اليها من أجل هدف خفى لا يستعصى عليها أن تحدس به . وتذكر فى مخيلته عنقها النحيل الرقيق وعينيها الشهباوين الجميلتين .

واستسلم الى النوم وهو يقول فى نفسه : « ومع ذلك فيبدو ان هناك قصة حزينة تحوم حولها » .

– ٢ –

ومر اسبوع على بدء تعرفهما . وكان يوم عطلة . والجو خانق داخل المنازل ملىء بالزوابع المحملة بالتراب خارجها ، وقبعات المارة تتطاير من شدة الريح والعطاس يستبد بالناس ، فكان على جوروف ان يخرج من حين لحين الى المقهى القريب من الفندق لكى يقدم لآنا سرجييفنا بعض الجيلاتى او عصير الفواكه . وكانت الحرارة شديدة منهكة .

وحينما ركدت الريح فى المساء ذهبا الى الميناء لمشاهدة السفينة القادمة وكان هناك كثير من الناس يتسكعون حول المرسى ، ومنهم من يحملون فى أيديهم طاقات من الزهر فى انتظار بعض الاصدقاء .

وقد بدت فى الميناء فى هذه الليلة ظاهرتان من الظواهر التي يتميز بها جمهور يالتا الارستقراطي . وهما وجود كثير من عجائز السيدات اللائي يرتدين ملابس الشابات الصغيرات ، ووجود عدد كبير من القواد العسكريين الذين يتبخترون على ارصفة الميناء ويحومون حول هؤلاء السيدات .

وكان البحر هائجا ، فوصلت السفينة ليلا بعد فوات موعدها بزمن غير قصير ، وكان عليها ان تقوم ببعض المناورات قبل أن ترسو امام الرصيف . واخذت انا سرجيينفنا تحملق فى السفينة وركابها من خلال منظارها المقرب كما لو كانت تفتش عن احد تعرفه وحين عادت الى جوروف كانت عيناها تتوهجان . وانطلقت تتكلم دون توقف . وتوجه الاسئلة المفاجئة ، ثم لا تلبث أن تنسى ما أرادت السؤال عنه. واخيرا فقدت منظارها فى زحام العائدين والمستقبلين.

وبدأ الجمهور الارستقراطي ينصرف ، وركدت الريح تماما ولكن جوروف وأنا سرجيينفنا ظلا واقفين حيث هما كما لو كانا ينتظران مجيء احد آخر من السفينة ، ثم ما لبثت أنا سرجيينفنا أن لاذت بالصمت التام ، واخذت تستنشق ريح ازهارها من حين لحين دون ان تنظر الى جوروف .

وقال جوروف : « لقد انقلب الجو تماما فى هذا المساء فأصبح لطيفا منعشا ، ماذا تريدين ان نعمل ؟ اعتقد أنه يحسن بنا أن نقوم بنزهة فى احدي العربات » .

ولم تجب أنا سرجيينفنا بشيء .

فنظر اليها مليا ، واخذها فجأة بين ذراعيه وطبع على شفتيها قبلة طويلة ، وكان شذى الازهار ورطوبتها يملآن الهواء من حوله ، ولكنه ما لبث أن نظر خلفه فى فزع ــ فهل شهدهما احد ؟

ثم تمتم قائلا : « هيا بنا الى غرفتك » .

وسارا معا باسرع ما يستطيعان .

وكانت غرفتهما مزدحمة بالاشياء وتفوح منها رائحة نوع من البخور كانت قد اشترته من الدكان الياباني . ونظر اليها جوروف وقال فى نفسه : « ما املأ الحياة بالمصادفات الغريبة ! » . ولعله فى هذه اللحظة قد تذكر كثيرا من النساء المرحات الرقيقات اللائي كن يلذن عذوبة تحت لمسات غزله وينظرن اليه بعين العرفان على

لحظات السعادة التى استمتعن بها فى احضانه مهما قصر اجلها ، وتذكر نساء اخريات ـ ومنهن زوجته ـ كانت ملاطفاتهن تتسم بالكذب وتغص بالرياء والجنون الجنسى وتمتزج بقسط كبير من الكلمات والاحاديث التى لا ضرورة لها مطلقا ، وكانت تبدو سيما وجوههن وكانها تقول : ليس هذا بالضبط هو ممارسة الحب او الرغبة العارمة ، ولكنه شىء آخر احفل من كلّ ذلك ، ومن المؤكد ان يكون قد تذكر ايضا امراتين او ثلاثا من النساء الجميلات الفاترات اللائى تكشف ملامحهن الجشعة عن رغبتهن الملحة فى أن ينتزعن من الحياة اكثر مما تستطيع أن تعطى من أولئك النساء اللائى لم يسعدن فى شبابهن الاول ويتسمن بالتقلب تبعا للنزوات ، وبالبعد عن المنطق والاستبداد بالراى وضعف العقل . وكان جوروف اذا اتصل بهذا النوع من النساء لايثير فيه جمالهن غير الاشمئزاز ، ولا تذكره الاشرطة المطرزة على ملابسهن الداخلية الا بقشور السمك .

ولكن ، هنا كان الحياء وعدم الخبرة اللذان يتميز بهما الشباب يعلنان عن نفسيهما بكل وضوح . وكان يسود القاعة جو من الحيرة والقلق كما لو كان هناك أحد قد طرق الباب . وكان يبدو أن اناسرجيينفنا « السيدة صاحبة الكلب » تنظر الى المسألة كما لو كانت أمرا خاصا جدا ، خطيرا جدا . وكما لو كانت قد اصبحت امراة ساقطة ، وقد راى جوروف ان فى موقفها هذا كثيرا من الغرابة والحيرة . وذلك ان ملامحها قد استطالت وتدلت ، وسقط شعرها الطويل على جانبى وجهها بصورة تدل على الحزن والندم . ثم اتخذت لنفسها وضعا يدل على التأملّ الحزين على نحو ما يرى فى صور الآثمات التائبات فى اللوحات الكلاسيكية .

وقالت : « هذا عمل غير صالح . انك لا تحترمنى بعد الآن . »

وكانت على المنضدة بطيخة ، فقطع جوروف لنفسه شريحة صغيرة منها وبدأ ياكلها ببطء . ومر بعد ذلك نصف ساعة على الاقلّ فى صمت تام .

وكان مظهر اناسرجيينفنا يدلّ على التاثر الشديد ويكشف عن طهارة امرة ساذجة لم تخبر عن شئون الحياة الا القليل . وكانت الشمعة الوحيدة التى تشتعل على المنضدة لا تكاد تضىء وجهها ولكن كان من الواضح انها كانت مكلومة القلب .

وفجأة بدد جوروف هذا الصمت الطويل فسألها : « ولماذا اكف عن احترامك ؟ انك لا تدرين ما تقولين » .

فقالت والدموع تنحدر من مآقيها : « اغفر لي يا الهى ، ان هذا أمر شنيع ! » .

ـ « لا حاجة بك الى السعى فى تبرير نفسك » .

ـ «كيف لى ان ابرر نفسى ؟ انى امرأة عربيدة ساقطة ، اشمئز من نفسى ولم تدر بخاطرى قط فكرة تبرير عملى . فليس زوجى هو الذى خنته ، بل خنت نفسى . ولم أخن نفسى فى هذه اللحظة وحدها ، بل لقد خنتها الى الأبد . ولا شك ان زوجى ليس بالرجل الطاهر . ولكنى أعرف انه مداهن دنىء . نعم لست ادرى ماذا يفعل فى مكتبه ، ولكنى أعلم انه مداهن دنىء . فقد تزوجته ولم ابلغ العشرين من عمرى ، وكنت اذ ذاك نهبة لمعرفة ذلك النوع من الحياة المجهولة ، واتطلع الى شىء اسمى . وقلت فى نفسى لابد أن يكون هناك نوع مختلف من الحياة واردت أن احيا ، ان احيا ... كنت احترق شوقا لمعرفة تلك الحياة المجهولة ... ولكنك لن تستطيع فهم ذلك قط ، ولكنى أقسم لك بربى انى لم اعد استطيع التحكم فى نفسى ، ولم يعد فى مقدورى أى شىء يحتجزنى فاخبرت زوجى بانى مريضة وجئت الى هنا ... وبدأت أغدو واروح كمن اصابها مس ، كامرأة مجنونة ... والآن اصبحت امرأة عادية لا قيمة لها ، ومن حق أى انسان أن يشمئز منى » .

فقال لها متلطفا : « انا لا افهم شيئا . فماذا تريدين ؟ » .

فاخفت وجهها فى صدره والقت بجسمها على جسمه ، وقالت :

« ارجوك أن تصدق ، اتوسل اليك أن تصدق بانى احب كل ما هو شريف ، احب الحياة الطاهرة ، وابغض الرذيلة وانفر منها ، وانا فى حيرة من أمرى لست ادرى ماذا افعل ، ان عامة الناس يقولون ان الشيطان قد أوقعهم فى حبائله .

والآن اقول انا ايضا : «ان الشيطان قد أوقعنى فى حبائله».

وتمتم قائلا : « تعالى ، تعالى . » .

ثم حملق فى عينيها الجامدتين المذعورتين ، وهدأ من روعها ببعض الكلمات الرقيقة اللطيفة ، فعادت اليها الطمانينة والمرح شيئا فشيئا . ولم تمض لحظات حتى كانا يقهقهان معا من جديد .

وحينما غادرا الغرفة الى الخارج ، لم يجدا فى طريق النزهة ديارا واحدا . فكانت المدينـة وما فيها من أشجار السرو تبـدو كالميتـة . ولـكن البـحر كان لايزال يزمجـر ، وترتطم امواجـه بالشاطىء . وقد استطاعا ان يلمحا سفينة صيد واحدة تصارع الامواج ، ويومض مصباحها على البعد .

واخيرا وجدا عربة فاستقلاها الى أورياندا .

وقال لها جوروف : « لقد اكتشفت لقبك الآن فقط فىالردهة ، حيث رايته مكتوبا فوق اللوحة. انه « فون ديدرتش » فهل زوجك المانى ؟

ــ « كلا ، جده هو الذى كان المانيا ، فيما اعتقد ، أما هو فينتسب الى الـكنيسـة الارثوذكسـية » .

ولما نزلا من العربة فى اورياندا ، جلسا على مقعد غير بعيد من الـكنيسة وجعلا ينظران الى البحر دون ان يتكلما . وكانت يالتا تبـدو كالشبح من خلال ضبـاب الصبـاح ، والسحب البيـض تتوقف جامدة على قمم الجبـال . وكانت أوراق الشجر سـاكنة لا تتحرك . والجراد فى نشاط دائب ، والبحر يبعث اليهما بصـوت خريره الرتيب ليحدثهما عن السلام والنوم الأبدى الذى ينتظرنا جميعا . فقد كان البحر يزمجر على هذا النحو قبل ان توجد أية يالتا واية اورياندا ، وهو يزمجر الآن، وسيواصل زمجرته الرتيبة غير العابئة هذه نفسها بعد ان نفنى جميعا . ولعل هذا الاستمرار وهذه اللامبالاة بالحياة والموت هما اللذان يكمن فيهما سر خلاصنا الاخير وسر تيار الحياة على ظهر كوكبنا ، وسر حركته الدائبـة ابدا نحو الـكمال .

وراى جوروف نفسه جنبا لجنب مع امراة شـابة أضفى عليها ضوء الصباح الباكر ثوبا من الجمال الساحر ، وشعر بتمام الطمانينة والانشراح تحت تاثير كل هذا الجمال السحرى ، جمال البحر ، والجبال ، والسحب ، ورقعة السماء الممتدة الشاسعة ، وعندئذ قال فى نفسـه : اننا اذا فكرنا قليلا وجدنا ان كل شىء فى هذا العالم جميل حقا ، كل شىء ما عدا افكارنا وافعالنا نحن حينما نعمى عن الاهداف العليا للحياة وعن كرامتنا باعتبارنا كائنات بشرية .

وفى هذه الاثناء اقترب منهما شخص ما ، لعله احد الحراس ، ونظر اليهما ثم ذهب الى حال سبيله . وقد بدا لهما انه حتى

هذا الفعل نفسه لايخلو من الجمال والسحر الغامض الخفى. ورفعا بصرهما نحو البحر فاستطاعا أن يلمحا فى ضوء الفجر السفينة القادمة من فيودوسيا وهى تتهادى نحو الميناء مطفأة الانوار .

ووضعت اناسرجيينفنا حدا لهذا الصمت الذى طال مداه ، فقالت : « هناك قطرات من الندى تلمع فوق العشب . »

ـ « نعم . وقد آن اوان الرجوع الى البيت . »

وقفلا راجعين الى المدينة .

وبعد ذلك كانا يلتقيان فى ساعة الظهر كل يوم فى طريق النزهة. ويتناولان معا طعام الغداء ثم ينطلقان للنزهة والاستمتاع بمنظر البحر. وكانت تشكو الأرق والخفقان ولا تفتأ توجه الاسئلة نفسها دائما ، وتركن تارة الى الغيرة ، وتارة الى الخوف من ان يكون جوروف لايحترمها حقيقة . ولكن جوروف كان لايدع فرصة انفرادهما فى ميدان أو بستان دون أن ينهال عليها بقبله الحارة . ويبدو ان نظرته الى الحياة كانت قد تغيرت الى اكبر حد بفضل البطالة المطلقة ، وتلك القبل التى كان يطبعها على شفتى انا فى وضح النهار ثم يتبعها بنظرات زائغة خوفا من اكتشاف امرهما ، ثم بفضل حرارة الجو ، ورائحة البحر ، وهذا الجمهور الانيق الكسول المنعم الذى يغدو ويروح أمام بصريهما باستمرار. فكان لا يفتأ يفضى الى اناسرجيينفنا بانها جميلة جذابة ، ويمارس الحب معها بعاطفة حارة ورغبة ملتهبة ، ولا يبتعد عنها قط ، أما هى فكانت تبدو مهمومة غارقة فى افكارها ، وتحاول ان تحمله على الاعتراف بانه لا يحترمها ولا يحبها ويعتبرها مجرد امراة عادية . وكان لا يكاد ينقضى عليهما مساء دون أن يستقلا عربة ما ويغادرا المدينة الى اوياندا او الشلال او احد الاماكن الجميلة الاخرى . ولم يخب ظنهما فى نزهة واحدة من هذه النزهات ، اذ كانت كلها ناجحة ، وكانت كلها جديرة بتكوين رصيدهما المشترك من ذكريات السحر والجمال .

وفى هذه الاثناء كلها كانا يتوقعان وصول الزوج فى اى حين . ولكنها تلقت منه خطابا يخبرها فيه بانه يعانى اضطرابا فى بصره ، ويرجوها الرجوع الى المنزل باسرع ما تستطيع . فأعدت اناسرجيينفنا نفسها للرحيل على عجل .

وقالت لجوروف : « لقد كان من الخير لى ان ارحل . انها ارادة القدر » .

وغادرت يالتا فى عربة ، وصحبها جوروف حتى محطة السكة الحديدية . واستغرقت الرحلة منهما نهارا كاملا تقريبا . وحينما استقرت فى القطار السريع قالت ـ بعد ان سمعت دقات الجـــرس الثانى :

« دعنى أنظر اليك مرة أخرى .. مرة أخرى .. حسن جدا».

ولم تبك انا . ولـكنهاكانتحزينة وتبدو كما لو كانت مريضة ، وكانت عضلاتها وخداها مسترخية متدلية .

وقالت : « سافكر فيك ... لن اكف أبدا عن التفكير فيك . باركك الله! لا تنسأن تفكر فى بعض الشىء ». فها نحن اولاء نفترق الى الأبد، لأنه كان ينبغى لنا الا نلتقىقط. وداعا ـ وباركك الله !»

وغادر القطــار المحطــة فى لمح البصر ، ثم سرعان ما اختفت اضواؤه ، ولم تمض دقيقة واحدة حتى كان صوته قد تلاشى ، كما لو كان كل شىء قد تآمر على وضع اسرع نهاية لهذا النسيان الحلو ، وهذا الجنون العذب . ووقف جوروف وحيـــــدا على الرصيف يحملق فى ظلام الفضاء وينصت الى صفير الصراصير وأزيز اسلاك التلغراف ، وفى خاطره شعوره بانه كان غائبا عن الوعى ولم يستيقظ الا الآن . وقال فى نفسه ان هذه كانت مغامرة أخرى من مغامراته الـكثيرة فى الحياة . وانها هى الاخرى قد انتهت دون ان تترك وراءها غير الذكرى . هذا الى ان تلك المراة الشابة التى لعله لن يراها بعد الآن لم تكن سعيدة معه سعادة حقة . فقدكان يبدو معها عطوفا شفيقا ، ولـكن سلوكه العام ونغمات صوته بل وملاطفاته نفسـها كانت تكشف عن ظل من السخرية والتسامح الوقح من جانب ذكر مجدود تبلغ سنه ضعف سنها . وقد أصرت هى على ان تصفه بالطيبة والامتياز وسمو العقل . فمن الواضح انه ظهر لها فى جوهر مختلف عن جوهره أى انه ، باختصـــار ، خدعها عن غير عمد ...

وكان الهواء يوحى باقتراب الخريف ، وجو المساء يميل الىالبرودة.

وغادر جوروف رصيف المحطة وهو يقول فى نفسه : « لقد آن الأوان لـكى ارجع انا ايضـــا الى الشمال . بل لقد آن الأوان وزيادة ! » .

- ٢ -

وحين وصل الى موسكو وجد ان جوها فى ذلك الحين يشبه جو بداية الشتاء ، فكانت المدافىء توقد كل يوم ، والظلام يظل مخيما حين يستيقظ الاولاد ويجلسون لتناول الشاى قبل ذهابهم الى المدرسة ، حتى ان المربية كانت تضطر الى اشعال المصباح لمدة قصيرة . وقد بدأ الصقيع فى الظهور . ومن المعتاد انه حين يبدأ الثلج فى النزول ويستقل المرء زحافته للمرة الاولى ، تستولى عليه نشوة من السرور عندما يرى الارض والسقوف بيضاء ناصعة ، ويأخذ فى التنفس بحرية وانطلاق ويتذكر ايام شبابه . ومن المعروف أيضا ان أشجار الزيزفون والسندر العتيقة تبدو فى ابهى حللها حين يكسوها الصقيع بثوبه الابيض الشفاف ، ويحس انها اذ ذاك أقرب الى قلبه من أشجار الحور والنخيل وينسى هو تحت اغصانها كل ما كان يراوده من حنين نحو الجبال والبحار .

وكان جوروف قد عاش حياته كلها فى موسكو ، وقد عاد اليها فى يوم مصقع جميل . فلما بدا يلبس معطفه المبطن بالفراء وقفازه السميك ويطوف فى شارع بتروفكا ويسمع رنين اجراس الكنيسة فى مساء السبت ، نسى رحلته الحديثة وفقدت الاماكن التى زارها كل ما كان لها من سحر فى نظره . فقد أنغمس بالتدريج فى حياة موسكو ، واقبل على الصحف يقرأ منها ثلاثا فى اليوم بكل نهم ، بالرغم من انه كان يعلن فى كل مكان بأن مبدأه الا يقرأ صحف موسكو . وهكذا راى نفسه وقد انساق مرة اخرى فى تيار المطاعم والنوادي والمآدب والحفلات ، وراح من جديد يشعر بالعزة والفخر ، لأن كبار المحامين والممثلين يزورونه فى بيته ، ولأنه يلعب الورق فى نادى الاطباء مع أحد الأساتذة .

واعتقد جوروف انه لن يمر شهر حتى تكون اناسرجيينفنا قد اصبحت مجرد ذكرى غامضة ، وانها بعد ذلك لن تظهر له بابتسامتها الحزينة الا نادرا وفى الاحلام فقط ، كغيرها ممن سبقنها . ولكن لقد مر أكثر من شهر ، وها هو ذا فصل الشتاء قد أناخ على المدينة بكلاكله ، وما زال كل شىء حاضرا حيا فى ذاكرته كما لو لم يكن قد غادر آناسرجيينفنا الا منذ الامس فقط ، بل كانت هذه الذكريات لا تزداد بمرور الايام الا نموا والحاحا . فكان اذا

سمع صوت اولاده يستذكرون دروسهم وهو جالس فى مكتبه فى سكون المساء ، او اذا طرق سمعه صوت اغنية او صوت آلة موسيقية فى احد المطاعم ، او سمع الريح تزمجر فى مدخنة المدفاة ، مثل كل شيء امام خياله : الصباح المبكر على ارصفة الميناء ، والجبال المغطاة بالضباب ، والسفينة المقبلة من فيودسيا والقبل . فى هذه الحال كان يقوم من مكانه ويذرع ارض الغرفة جيئة وذهابا لفترة طويلة وهو يبتسم للذكرياته ، ثم لا تلبث الذكريات ان تنقلب الى احلام ، ويمتزج فى خياله كل ما حدث بكل ما كان سيحدث . فالحقيقة أن اناسرجيينفنا لم تطرق باب احلامه ، ولكنها كانت تصحبه كظله فى كل مكان وتتبعه انى ذهب. وكان اذا اغمض عينيه ، رآها شاخصة امامهما بلحمها ودمها ، وبدت له اكثر سحرا وشبابا وحنانا مما هى فى الحقيقة ، فاذا ما رجع بخياله الى شخصه رأى انه هو الآخر اصبح خيرا مما كان فى يالتا . وفى المساء كان يراها تطل عليه من ارفف كتبه ، ويسمع انفاسها وحفيف ثوبها بجانب المدفاة . وفى الشوارع كان لايلمح سيدة الا تبعها ببصره ليرى ما اذا كانت تشبهها ...

وبدا يشعر برغبة قاهرة فى ان يشرك احدا ما فى ذكرياته . ولكنه لم يكن ليستطيع الكلام عن حبه فى المنزل . والى من كان بمكنه ان يفضى بمثل هذا الحديث فى خارج المنزل ؟ لم يكن ذلك ممكنا بالنسبة لسكان بيوته ، ولا بالنسبة لزملائه فى البنك بطبيعة الحال . وماذا كان فى وسعه ان يتكلم عنه ؟ اهذا الذى يشعر به هو الحب ؟ هل كان هناك فى علاقته باناسرجييفنا بعض من الجوانب الساحرة الشاعرية او بعض الجوانب الممتعة التى لا تخلو من مغزى او حتى بعض الجوانب المسلية ؟ الواقع انه كان مضطرا الى الاكتفاء ببعض العموميات عن الحب والنساء ، ولم يكن فى مقدور احد ان يخمن مقصده ، بالرغم من ان زوجته كانت تقطب حاجبيها السوداوين وتقول :

« ان دور الشاب العربيد لا يناسبك فى شيء ياديمترى » .

وذات مساء كان يغادر نادى الاطباء ، مع احد رفاقه فى لعب الورق ، وهو من موظفى الحكومة ، فلم يستطع ان يمنع نفسه من القول :

« آه لو عرفت كم كانت ساحرة جميلة تلك المرأة التى قابلتها فى يالتا ! » .

وصعد الموظف فى زحافته ، ولكنه قبل أن ينطلق بها أطل براسه ونادى :

« دميترى دميترتش ! » .

ـ « نعم ؟ » .

ـ « انت على حق ، فان السمك الكافيار لم يكن على مايرام » .

ولسبب ما وجد جوروف ان هذه الكلمات البريئة التافهة فى حدذاتها خشنةجارحة . فقال فى نفسه : ماهذه الطباع الوحشية! وما هؤلاء الناس ! يا لضياع الليل ، ويا لفراغ النهار ! لا شىء الا لعب الورق والتهام الطعام والسكر والكلام التافه المعاد . ان الواحد منهم يقضى الجزء الاكبر من وقته فيما لا فائدة منه لاحد وفى المناقشة حول بعض الموضوعات التافهة التى لا يحيد عنها . ولا يبدو منه شىء سوى هذا الوجود المحدود الحقير، وليس هناك من مخرج لهذه الحياة التى لا تمتاز عن السجن أو مستشفى المجانين فى شىء .

وقضى جوروف ليلته مستيقظا يهذى من شدة الغضب ، وظل طوال النهار التالى يعانى صداعا اليما فى راسه . ولم يستطع النوم فى الليالى التالية الا لماما ، اذ كان لا يفتأ يهب من فراشه ويجلس فيه مفكرا مهموما ، أو ينهض على قدميه وياخذ فى ذرع أرض الغرفة ذهابا وايابا وبدأ يسأم اولاده ويسأم البنك ، ويشعر بعدم الرغبة فى الذهاب الى اى مكان أو الكلام فى اى موضوع .

ولما حلت عطلة عيد الميلاد حزم امتعته واخبر زوجته انه مسافر الى بطرسبرج من أجل مسالة تتعلق باحد الشبان : ثم رحل الى مدينة « س » . ولأى هدف فعل ذلك ؟ انه هو نفسه لم يكن يعرف جيدا . اذكانكل مايعرفه انه لابد له من رؤية اناسرجيبيفنا ، والحديث اليها وترتيب لقاء معها ، اذا امكن ذلك .

ووصل الى « س » فى الصباح ، واحتجز احسن غرفة فى الفندق ، وهى الغرفة المفروشة ببساط ذى حواف عسكرية شهباء اللون والتى تحتوى على منضدة فوقها محبرة يغطيها التراب وعليها تمثال فارس لا رأس له ويمسك قبعته باحدى يديه . واستطاع أن يعرف مايريد معرفته من بواب الفندق ، وهو أن فون ديدرتش

يقيم فى بيت يملكه فى شارع ستاروجنشارنايا ولا يبعد كثيراً عن الفندق ، وان فون ديدرتش يحيا حياة رغد وبذخ ، واسمه معروف فى المدينة كلها . وكان البواب ينطق الاسم هكذا : « دريدرتس» .

وذهب جوروف الى شارع ستاروجنشارنايا ، واستطاع التعرف على المنزل . ووجد انه محاط بسياج مرتفع تعلو حوائطه مسامير مدببة .

فقال فى نفسه وهو يحملق فى شبابيك المنزل وفى هذا السياج : « ان مثل هذا السياج كفيل بأن يوحى الى اى انسان بالفرار» .

وخمن انه ما دام هذا اليوم يوم عطلة ، فمن المحتمل أن يكون زوجها فى البيت ، وانه على أية حال ليس من حسن الذوق ان يحرجها باستدعائها كما ان ارسال ورقة مكتوبة اليها ليس من الحكمة ، اذ قد تقع الورقة فى يد أحد آخر فتؤدى الى كارثة . واذن فخير وسيلة يتبعها هى ان ينتظر لعل الظروف تسمح له برؤيتها عرضا . ومن ثم راح يغدو ويجيء فى الشارع دون أن يحيد بنظره عن السياج ، منتظرا فرصته . وبعد قليل رأى متسولا يتسلل من باب السياج لكى تتلقفه الكلاب فيسارع بالخروج من حيث دخل . ومضت ساعة ثم سمع اصواتا خافتة مختلفة تنبعث من أوتار بيانو ، فقال فى نفسه لعلها اناسرجيينفنا تعزف على البيانو . وفجأة فتح الباب الكبير وخرجت منه امرأة عجوز يتبعها كلب بومرانى ابيض مألوف لجوروف . فحاول أن يدعوه ، ولكن قلبه كان يدق دقا عنيفا متواصلا ، فلم يستطع فى غمرة اضطرابه أن يتذكر اسمه .

وواصل مسيره وكانت كراهيته لهذا السياج الاشهب فى تزايد مستمر ، واخيرا حدثته نفسه فى لحظة يأس بأنه لابد أن تكون انا سرجيينفنا قد نسيته ، ولعلها قد نجحت فى العثور على متعتها مع غيره ، والا فهل هناك ما هو اقرب الى الطبيعة من هذا المسلك بالنسبة لامرأة شابة لا ترى غير هذا السياج الاشهب منذ الصباح حتى المساء ؟ وبعدها قفل راجعا الى الفندق وجلس على اريكته فى غرفته بعض الوقت وهو فى حيرة من امره لا يدرى ماذا يفعل، ثم امر بأن يؤتى اليه بطعام الغداء ، فتناوله واضطجع على فراشه حيث غرق فى نوم طويل عميق .

وبعد ان استيقظ من نومه كانت الشمس قد أوشكت على

المغيب ، فنهض من فراشه واستأنف مسيره في الغرفة من جديد ، ثم نظر الى زجاج الشبابيك المعتم وراح يحدث نفسه قائلا : « ياله من عمل مضن أحمق ! على كل حال لقد اخذت كفايتي من النوم ، فماذا استطيع أن اعمل خلال الليل يا ترى ؟ » .

وجلس مرة اخرى على حافة سريره المغطى بملاءة شهباء فشة ذكرته بملاحف المستشفيات ، ثم راح ، في نوبة غيظه ينحى على نفسه باللام ويقول :

« انت وسيدتك صاحبة الكلب ... انك على وشك الوقوع في مغامرة لا تعلم مداها ! فانظر ماذا نجني من وراء حماقاتك ! » .

وكان قد لمح لدى وصوله الى المحطة لافتة عريضة تعلن بحروف ضخمة عن حفلة الافتتاح بمسرح « الجيشا » المحلي ، فما أن تذكر ذلك حتى قر قراره على ان يقضي ليلته في هذا المسرح ، قائلا في نفسه :

« من المحتمل جدا أن تذهب انا لمشاهدة الحفل الافتتاحي» .

وكان المسرح مفعما ، وهو مسرح اقليمي بمعنى الكلمة ، بشمعداناته التي يتكاثف على جوانبها الضباب وجمهوره الصاخب بضوضائه وعجيجه . وكان يقف أمام كراسي الصف الاول من كراسي القاعة جمهور المتأنقين المحليين في انتظار رفع الستار وايديهم مشبكة خلف ظهورهم . وفي المقصورة الرئيسية ، مقصورة المحافظ ، بدت ابنته تتصدرها ، اما المحافظ نفسه فقد اختفى خلف الستائر في تواضع تام ، ولم تبد منه الا يداه . وحين رفع الستار انطلقت الاوركسترا في العزف بكل آلاتها واستمرت تعزف زمنا طويلا . اما جوروف فكان لايكف عن تسريح بصره بين الحاضرين والداخلين.

وحضرت اناسرجيينفنا هي الاخرى . وجلست في مقاعد الصف الثالث من صفوف القاعة ، وماكاد جوروف يلمحها حتى شعر كأن قلبه قد توقف عن الخفقان ، وتحقق في لمح البصر أن الدنيا بأسرها لا تضم شخصا أقرب منها الى قلبه ولا أقدر منها على أسعاده . فهذه المرأة الضئيلة الجسم المغمورة في خضم الجمهور الاقليمي ، هذه المرأة التي لايكاد يعرفها أحد والتي تمسك الآن بالمنظار المقرب في يدها ، كانت تحتل كل مسارب حياته ، كانت مبعث حزنه ومبعث سروره وكانت اعذب امانيه بل امانيه كلها . وكان من شأن الموسيقى التي قام بها قوم من ضعاف العازفين الهواة أن تزيدها

فى عينيه جمالا ، ولتغرقه فى بحر من الاحلام اللذيذة .
وكان يصحب اناسرجيينغنا شاب طويل القامة مستدير الكتفين ، ذو سالفتين قصيرتين ، وكان يحنى راسه لدى كل خطوة يخطوها الى ان استقر به الجلوس فى المقعد المجاور لمقعدها ، وكان يبدو من مسلكه انه معتـــاد على مداومة الانحنـــاء لشخص ما . ولابد ان يكون هذا الشاب هو زوجها الذى قالت عنه فى احدى نوبات سخطها ببالتا ، انه « مداهن دنىء » والحقيقة ان وجهـــه المتهدل وسالفتيه القصيرتين والبقعة الصلعاء اللامعة فى اعلى راسه كانت تحمل فى سيماها شيئا من خضوع العبيد. وقدكان يبتسم ابتسامة معسولة ويضع فى عروة سترته شارة تحمل اسم جمعية علمية ما . ولكنها كانت تشبه تمام الشبه تلك الارقام اللامعة التى يضعها السعاة على صدورهم .
وذهب الزوج فى فترة الاستراحة الاولى الى مكان التدخين ، فنهض جوروف الذى كان يجلس على احد مقاعد القاعة هو الآخر، وتقدم نحوها وقد طبع على وجهه ابتسامة متكلفة وقال بصـــوت مرتجف :
« كيف حالك ؟ » .
فلم تكد ترفع بصرها اليه حتى اطرقت الى الارض وقد امتقع لونها ثم نظرت اليه من جديد وهى فى حالة ذعر وليس فى استطاعتها ان تصدق عينيها . واخذت تعصر مروحتها ومنظارها باحدى يديها، كما لو كانت تقاوم شعورا لديها بحالة اغماء على وشك ان تدهمها. وبقيا على هذه الحال فترة دون ان ينبسا ببنت شفة حيث ظلت هى جالسة فى مكانها وظل هو واقفا بجانبها مبهوتا من حيرتهـــا وارتباكها ، ولا يجرؤ على الجلوس ، وبدأ لاعبو الكمان والنـــاى يعزفون لكى يضبطوا آلاتهم ويشدوها . وســـاد القاعة جو من التوتر الشديد ، واحس العاشقان كان كل من فى المقصورات يطلون عليهما ويرمقونهما بابصارهم . واخيرا نهضت انا واسرعت بالاتجـــاه نحو احد ابواب الخروج . وتبعها جوروف حيث راحا يصعدان على ســـلم وينزلان على آخر ويهيمان على وجهيهما فى الممرات والسراديب دون أى هدف ، وكانت الردهات والقاعات تغص بكبار الموظفين فى ملابسهم الرسمية ، واساتذة المدارس العليا ، والموظفين المدنيين ، وكلهم يحملون شاراتهم على صـــدورهم . وكذلك كان

هناك عدد وفير من السيدات فى أبهى حللهن ، وكان المكان ، فضلا من ذلك ، مليئا بالتيارات الهوائية المحملة برائحة التبغ والمشروبات وراح جورروف يتطلع الى كل هذا وهو كالمذهول وقلبه يدق دقا قويا ، واخيرا لم يقو على الصبر واخذ يقول فى نفسه :

« ما معني حضور هؤلاء النـــاس جميعـا ؟ وما معنى هـــذه الاوركسترا ؟.. »

ومرت دقيقة ثم تذكر فجاة ذلك المســاء الذى وقف فيه على المحطة يودع اناسرجيينفنا ! وهو يظن ان كل شيء قد انتهى بينهما وانهما لن يلتقيا ثانية ، وكيف ان النتيجة التى وصل اليها الآن تختلف عن ذلك تمام الاختلاف .

وبعد أن استمرا فى جوب الممرات فترة ما من الزمن ، توقفت انا تحت سلم كتبت عليه هـذه اللافتة « الصـعود الى الطابق الاعلى » ثم قالت وهى لا تكاد تلتقط انفاســها من الاضطراب والشحوب ما زال يغطى وجهها .

« لقـد روعتني ! لشد ما روعتنى ! لقد كنت من الموت قاب قوسين او ادنى . لماذا جئت ؟ لماذا ؟ » .

فاجابها جورروف فى نغمات هامســة سريعة : « ولـكن يا أنا .. ولـكن يا انا ... حاولى أن تفهمى ... أرجوك أن تحاولى... »

والقت عليه نظرة ملؤها الخوف والتوسل والحب ، ثم حدقت ببصرها فى وجهه كما لو كانت تريد أن تطبــع ملامحه جيــدا فى ذاكرتها ، ثم واصلت كلامها دون ان تلقى بالا الى كلماته :

« كم كنت تعسة ! لم استطع منذ فارقتك أن افكر فى شيء آخر سواك ، بل لم استطع العيش الا على التفكير فيك . وقد حاولت ان انسى ــ فلماذا ، لماذا ــ جئت ؟ » .

وكان يقف على بسطة السلم التى يعلوها طالبان يدخنان ويطلان الى اسفل ، ولـكن جورروف لم يبال بشيء ، فجذب اناسرجيينفنا نحوه وراح يمطرها بقبلاته على وجهها وشفتيها ويديها .

فتراجعت الى الخلف وقالت مذعورة : « ماذا تفعل ؟ أوه ، ماذا تفعل ؟ لقد جن جنوننا نحن الاثنين . اذهب من حيث أتيت فى هذه الليلة نفسها ، فى هـــذه اللحظة ... اتوسل اليك ، واستحلفك بكل ما هو مقدس . هناك شخص قادم » .

وكان هناك شخص ينزل السلم بالفعل .

فخفضت انا من صوتها حتى أصبح همسا ، واستمرت تقول :
« لابد ان تذهب ، أتسمعنى يادميترى دميتريتش ؟ سآتى اليك فى موسكو . انى لم اكن سعيدة قط ، وانا الآن تعيسة ، ولن اكون سعيدة ابدا . ابدا ! فلا تزدنى آلاما على آلامى ! وسآتى اليك فى موسكو ، اقسم لك على ذلك ! اما الآن فيجب أن تنصرف ! يجب ان تنصرف ياعزيزى الرحيم ، ياعزيزى الغالى ، ياعزيزى الحبيب ..! » .

وضغطت على يده بقوة ، ثم سارعت بالنزول وهى لا تنى تنظر اليه من وراء ظهرها وكانت نظرة عينيها تدل على انها تعيسة حقا. اما جوروف فقد ظل واقفا فى مكانه لحظة ، ولما شعر بأن السكون قد عم ، ذهب للبحث عن معطفه وغادر المسرح .

- ٤ -

وبدات اناسرجيينفنا تذهب الى موسكو لرؤيته . فكانت كل شهرين أو ثلاثة تخبر زوجها أنها فى حاجة الى استشارة طبيب لأمراض النساء فيها ، وكان زوجها يصدقها ولا يصدقها . وفى موسكو كانت تنزل فى « سلافيانسكى بازار » وترسل الى جوروف حال وصولها رجلا يضع على رأسه قبعة حمراء ، فيذهب اليها دون ان يتطرق الخبر الى اى انسان .

وفى صباح يوم من أيام الشتاء ذهب لرؤيتها كعادته (وكان الرسول قد ذهب اليه فى مساء اليوم السابق ولكنه لم يجده) وكانت معه ابنته اذ كانت مدرستها فى الطريق فراى الا مانع من ايصالها اليها .

وفى الطريق قال جوروف لابنته : « ان درجة الحرارة ثلاث فوق الصفر ، ومع ذلك يتساقط الثلج . فانت ترين ان درجة الحرارة فوق الصفر بقليل على سطح الارض ، ولكنها فى الطبقات العليا من الجو تختلف عن ذلك بكثير . » .

وسألته : « ولماذا لا تنزل الصواعق فى الشتاء ، يا ابى ؟ » .

فشرح لها ذلك ايضا . وفى أثناء كلامه كان لا يفتأ يفكر فى انه ذاهب الى موعد ، وانه لايوجد كائن حى واحد يعرف شيئا عن هذا الأمر ، بل ربما بقى الى الأبد سرا مدفونا لايعرفه انسان . فهو يحيا حياتين احداهما علنية تجرى تحت بصر من يتصل بهم

جميعا وتمتلىء بالصدق الاصطلاحي والخداع الاصطلاحي ، حياة تشبه حياة أصدقائه ومعارفه جميعا ، والاخرى تجرى فى سرية تامة . ومن العجيب ان سلسلة غريبة من الظروف التى ربما كانت اتفاقية بحتة جعلت كل ما هو هام ممتع جوهرى فى حياته ، وكل مايقدم على فعله بصدق وطهارة تخلو من شوائب الخداع والنفاق، بل كل ما يكون عنصرا جوهريا فى حياته كان يجرى فى الخفاء ، فى حين أن كل ما فيه زيف . وكل ما يكون جزءا من ذلك القناع الذى يخفى تحته نفسه وما يكمن فيها من حقيقة وصدق ، كعمله فى البنك ومناقشاته فى النادى و « جنسه الدنىء » وحضوره الحفلات السنوية بصحبة زوجته ،كل ذلك كان يطفو على السطح. ومن ثم بدأ يقيس الناس على نفسه ، فلم يعد يصدق ما يراه وراح يعتقد أن الحياة الحقيقية للفرد ، أن الحياة الممتعة حقا تجرى فى الخفاء وتحت ستار من الليل . والحقيقة ان كل حياة فردية محفوفة بالأسرار ، وربما كان هذا هو السبب الرئيسى فى ان جميع المثقفين يلحون كل الالحاح فى المطالبة باحترام الأسرار الشخصية .

وبعد أن غادر جوروف ابنته على باب المدرسة اتخذ طريقه الى « سلافيانسكى بازار » وترك معطفه فى الردهة ، ثم صعد السلم وطرق الباب طرقا خفيفا . ففتحت له اناسرجيينفنا ، وكانت تلبس ثوبها الرمادى الذى يحبه ، ويبدو عليها الانهاك من جراء السفر ومن جراء انتظارها اياه منذ مساء الامس ، ولذا كانت شاحبة الوجه ولم تستقبله بابتسامتها المعتادة ، وأن كانت قد القت بنفسها بين ذراعيه ولما يكد يدخل الغرفة . وكانت قبلاتهما حارة عنيفة كما لو كانا لم يلتقيا منذ سنين طويلة .

وبعد ان استقرت حالهما بعض الشىء سألها قائلا : « كيف حالك ؟ هل من جديد ؟ » .

فأجابت : « انتظر، وسأخبرك بعد دقيقة .. انا لا أستطيع.. »

ولم تستطع الكلام ، لأنها كانت تبكى . فانتحت جانبا ، ووضعت منديلها على عينيها .

فقال فى نفسه : « يجب أن انتظر حتى تنتهى من البكاء » ثم القى بنفسه على احد المقاعد .

ودق الجرس طالبا بعض الشاى. أما هى فقد ظلت طوال الوقت

الذى قضاه فى شرب الشاى واقفة على بعد منه مولية وجهها نحو الشباك . وكانت تبكى من الانفعال ومن شعورها ببؤس حياتها ، وذلك انه لم يكن فى مقدورهما ان يلتقيا الا فى الخفاء وبعيدا عن الناس ، كما لو كانا لصين . أفليست هذه هى الحياة المحطمة بعينها ؟

واخيرا صاح بها قائلا : « لا تبكى ! » .

وكان جوروف على تمام البينة من أن حبهما ليس على وشك الوصول الى نهايته ، ولم يكن فى وسع مخلوق أن يعرف متى يصل الى هذه النهاية . وكانت اناسرجيينفنا لا تزداد له الا حبا حتى كاد حبها له يصل الى حد العبادة . ولم تكن هناك اية جدوى فى ان يخبرها بان ذلك الحب لابد أن ينتهى فى يوم من الايام . ولو قال لها ذلك لما صدقته .

ثم قام من مكانه وجذبها من كتفيها ، وفى عزمه أن يهدىء من روعها ببعض الكلمات اللطيفة ، ولكن بصره وقع فجأة على ظله فى المرآة .

ورأى شعره وقد بدأ يدب فيه البياض ، كما لو كانت هذه السنين الاخيرة قد ضاعفت من سنه ، فى حين ان الكتفين اللتين وضع فوقهما يديه كانتا حارتين تنبضان بالحيوية . وشعر بشىء من الحسرة على هذه الحياة التى لا تزال حارة لذيذة ، ولكنها قد لاتلبث أن تذوى وتتهدل كما حدث لحياته هو. ولكن لماذا احبته الى هذا الحد ؟ الواقع ان النساء كن يرسمن له دائما صورة تختلف عن صورته الحقيقية ، لم يكن يحببنه هو نفسه ، وانما يحببن الرجل الذى يتصورونه فى خيالهن ، الرجل الذى يفنين حياتهن فى البحث عنه . ولكن اذا اكتشفن خطأهن لم يمنعهن ذلك من الاحتفاظ بحبهن نفسه له . ولم يحدث لواحدة منهن ان كانت سعيدة معه . ولكنه كان يلتقى بالواحدة تلو الاخرى ، ثم يخادن كل واحدة يعرفها دون أن يخفق قلبه بالحب قط . نعم كان يجرى بينه وبينهن كل ما يمكن أن يجرى بين الرجل والمرأة ، ما عدا الحب .

والآن فقط ، بعد ان شاب راسه ، وقع فى الحب الحقيقى ، الحب الشامل الكامل لأول مرة فى حياته .

فقد ارتبط كل من جوروف واناسرجيينفنا باوثق عواطف الحب

واصـــدقها ، وشعر كل منهما نحو الآخر بما يشعر به الزوجان العاشقان والصديقان المحبان ، واحسا ان القدر لم يخلق كلا منهما الا من اجل الآخر ، ولذلك لم يستطيعا أن يفهما لماذا ابتلاها بزوج وابتلاه بزوجة ، واصبحا فى نظر نفسيهما كطائرين مهاجرين وقعا فى شباك صياد . ووضعا فى قفصين منفصلين ، الذكر فى قفص ، والانثى فى قفص وصـــارا الآن يتجاوز كل منهـــما للآخر عما كانا يستنكفان منه فى الماضى ، كما لو كان حبهما قد خلق منهما كائنين جديدين .

وفيما مضى كان جوروف يعزى نفسه فى ساعات كربته بأول حجة تطرأ على ذهنه . ولـــكنه الآن لم يكن يحفـــل بالحجج ، اذ أصبح يشعر فى قرارة نفسه بعطف عميق ورغبة أكيدة فى أن يكون صادقا رحيما .

قال لها : « كفى الآن عن البكاء ياحبيبتى . فلقد بكيت بما فيه الكفاية . كفى الآن عن البكاء .. دعينا الآن نتكلم ، دعينا نحـــــاول التفكير فيما يجب علينا أن نعمله » .

وحينئـــذ تناقشـــا فى موقفهما وقتا طويلا ، وحاولا التفكير فى الطريقة التى يتخلصان بها من ضرورة التخفى والخداع والعيش فى مدينتين متباعدتين والحرمان من التلاقى شهورا طويلة ، وكيف يتأتى لهما أن ينفضا عنهما هذه القيود الثقيلة .

واخذ جوروف يكرر وهو يعصر رأسه بكلتا يديه : « كيف ؟ كيف ؟ كيف ؟ » .

وبدا لهما أنهما على وشك اتخاذ قرار ما يبدآن بعـــده حيـــــاة جميلة جديدة . ولـــكنهما تحققا معا من ان النهاية مازالت بعيدة ، بعيدة جدا ، وان اشد مراحل حياتهما عسرا وتعقيدا لم يبدأ الا الآن .

في المنخفض



فى المنخفض

- ١ -

كانت قرية اكليبفو تقع فى منخفض ، ولذا لم يكن فى مقدور الناظر اليها من الطريق العام او من محطة السكة الحديد ان يرى منها الا منارة الكنيسة ومداخن المصانع التى تشتغل فى طبع الانسجة القطنية . وكان المسافرون اذا سالوا عن هذه القرية ، قيل لهم : « انها المكان الذى التهم فيه الحانوتى الكافيار كله اثناء الجنازة » .

ففى جنازة لأسرة كستيوكوف صاحب المصنع ، لاحظ حانوتى هرم انه يوجد اناء من الكافيار بين الاطباق الاخرى الشهية ، فانكب على التهامه بكل شره . واخذ الحاضرون يدفعونه ويجذبونه من كمه ، ولكنه لم يعرهم اى التفات ، واندفع يأكل ويأكل بنوع من الحماس يشبه الانجذاب . وكان الاناء يحتوى على اربعة ارطال فلم يترك منها شيئا ، وقد انقضت على ذلك أعوام عديدة ومات الحانوتى وورى التراب منذ زمن طويل ، ولكن الناس جميعا لايزالون يذكرون كيف اكل الكفيار كله . وسواء اكان ذلك لأن تاريخ القرية يخلو من الحوادث أم لأن هذه الحادثة التافهة التى وقعت منذ عشر سنين هى وحدها التى تركت اثرا فى نفوس القرويين ، فانه لايذكر عن قرية اكليبفو شيئا آخر غيرها .

وكانت الحميات تتفشى فى هذه القرية والطين اللزج يغطى شوارعها حتى فى الصيف ، ولا سيما تحت الاسيجة التى كانت تظلها أشجار الصفصاف العتيقة . ولم تكن تخلو قط من رائحة فضلات المصانع وحامض الخليك الذى يستعمل فى صناعة الطبع. ولم يكن مقر هذه المصانع ـ وهى ثلاثة لطبع القطن وواحد لدبغ الجلود ـ فى القرية نفسها ، بل فى ضواحيها أو حتى خارج هذه

الضواحي . وكانت كلها مصانع صغيرة لا تستوعب من العمال اكثر من اربعمائة عامل ، ولـكن ذلك لم يمنع من جعل ماء النهر منتن الرائحة بصفة دائمة من جراء فضلات المدبغة ، كما كانت المراعى تغص بالقاذورات وماشية الفلاحين تعانى امراض الحمى الفحمية ، ومن ثم اضطرت السلطات الى اصدار حكم باغلاق المدبغة . وبذلك اعتبرت المدبغة مغلقة ، ولكنهـــا بقيت تعمل فى السر بتواطؤ رئيس البوليـس الريفى والمفتش الطبى للمجلس الاقليـمى اللذين كانا يتقاضيان عشرة روبلات شهريا لـكل منهما من صاحب المصنع . ولم يكن بالقرية كلها من المنازل الانيقة الا منزلان اثنان مشيـدان بالآجر ومسقوفان بالحديد ، احدهما تحتله ادارة المجلس البـلدى المشترك ، والثانى يتكون من دورين ويقطنـه جريجورى بتروفتش تسيبوكين الذى نشأ فى أسرة من صغار الاسر المتوسطة فى مدينـة يبيفانو فو .

وكان جريجورى يمتلك دكانا للبقالة ، ولـكن البقالة لم تكن الا ستارا لبيـع الفودكا والماشية والجلود والحبوب والخنـازير ، وبالاختصار كل ما يقع فى طريقه .

فمثلا حين ذاع بين النساء تزيين القبعات بريش الغراب ، كنت تراه يبيع الريشتين منه بثلاثين كوبكا ، كما كان يتجر فى الخشب ، ويقرض النقود بالربا ، ويفتش عن المال فى كل مكان وبكل طريق.

وكان له ولدان. اكبرهما كان يسمى ابيـيم ، ويعمل فىمباحث البوليـس ، والاصغر ستيبان وكان يساعد والده فى التجارة ، ولكنه لم يكن ممن يعول عليهم كثيرا ، لأنه كان أصم ، ضعيف البنية . وكانت زوجته اكسينيا امراة لطيفة المنظر خفيفة الحركة تضع على راسها قبعة وتحمل فى يدها مظلة فى ايام الآحاد والاعياد الدينية ، وكانت تستيقظ فى الصـباح الباكر وتأوى الى فراشها فى وقت متاخر من الليل ، وترى دائما وقد شمرت ثوبها وعلقت حزمة من المفاتيح فى منطقتها وراحت تنتقل بين المخزن والـكهف وبينالكهف والدكان. وكان تسيبوكين الهرم ينظر اليها باعجاب ويبتسم ابتسامة الرضا كلما رآها ، ولـكنه كان فى الوقت نفسه يتحسر على أنها لم تكن زوجة ابنه الاكبر بدلا من الاصغر الاصم الذى لم يكن لينتظر منه ان يقدر الجمال النسوى حق قدره .

وقد كان الرجل الهرم يقدس الحياة المنزلية ويضع أسرته فوق

كل شيء في هـــذا العالم ، ولا سيما ابنه الاكبر مخبر البوليس السري وزوجة ابنه الاصغر . وقد برهنت اكسينيا منذ زواجها بالرجل الاصم على انها سيدة اعمال من الدرجة الاولى .

فكانت تعرف جيدا كيف تميز بين من يستحق من العملاء ان يشتري بالنسيئة ومن لا يستحق هـذه الثقة ، واحتفظت معهـا بالمفاتيح ولم تأتمن عليها احدا حتى زوجها ، وكانت تراجع الحسابات وتنظر في أفواه الخيل كما يفعل المتخصصون في تربيتها ، ولم تكن ترى الا ضاحكة أو صائحة ، وكان الرجل الهرم يعجب بكل ماتعمل وكل ما تقول ، وهو يتمتم بقوله :

« ان لك زوجة ابن ! ويالها من جوهرة جميلة ! » .

وقد قضى جريجوري فترة من الزمن في الترمل . ولـكن لم يمض عام واحد على زواج ابنــه حتى رأى نفســه لم يعد يطيق العزوبة فتزوج هو الآخر . وقد اختيرت له فتاة تقطن على بعـد ثلاثين فرسخا من قرية اسمها فرفارا نيقولايفنا وتنتسب الى أسرة طيبــة ، ولم تكن شــابة غضة الاهاب ، ولـكنها كانت ولا تزال لطيفة جذابة . ومنذ اللحظة التي نزلت فيها غرفتها الصغيرة في الطابق العلوي ، بدا البيت وكأنه شعلة من نور ، وكما لو كان زجاج الشبابيك القديم المحطم قد استعيض عنه بزجاج جديد . فقد أضيئت المصابيح امام التماثيل واللوحات الدينيــة ، وغطيت المناضد جميعها بمفارش بيضاء كالثلج ، وظهرت اصص الزهور على قواعد الشــبابيك وامام الحديقة ، واصبح كل شخص في المنزل يتناول طعامه في طبقه الخاص بعد ان كانوا يأكلون جميعا في طبق واحد . وكانت فرفارا نيقولايفنا لاترى الا وعلى وجهها ابتســامة حلوة رقيقة ، فبدا كل ما في البيت وكأنه يقابل ابتسامتها بابتسام.

ولأول مرة في تاريخ الأسرة ظهر الشحاذون وأبنــاء السبيل ، والاولياء في فناء البيت ، وسمعت تحت شبابيكه أنات نساء اكلييفو المساكين وسعال الرجال المرضى غائري الخدود الذين يتسللون من المصنع لكي يرووا غلتهم . وكانت فرفارا تخفف من آلامهم باعطائهم بعض النقود او الخبز او الملابس البالية ، وفيما بعـد ، حينما ازدادت ثقتها بنفسها ، كانت تختلس بعض الســـلع من الدكان وتقدمها لهم . وذات يوم رآها الاصم تأخذ من الدكان كيسين من الشاي ، فاستولى عليه الذهول ، ثم ذهب ليقول لوالده :

« ان أمي قد أخذت اوقيتين من الشاي . ففي أي بئر اضعهما ؟ » .

فلم يجبه الرجل الهرم على سؤاله ، ولكنه وقف صامتا لحظة من الزمن، وقد قطب ما بين حاجبيه ، ثم صعد للكلام مع زوجته، وهناك قال لها في نغمة رقيقة رحيمة : « عزيزتي فارفارا ، اذا اردت اي شيء من الدكان فخذيه . خذي ما تريدينه كله دون اي تردد » .

وفي اليوم التالي صاح بها الابن الاصم وهو يعدو عبر الفناء ، وقال :

« اذا احتجت ، يا امي ، الى أي شيء ، فخذيه ! »

وكان بدلها الاحسان يتسم بسمة جديدة، سمة البهجة والاشراق اللذين يميزان المصابيح المشتعلة امام الايقونات والزهور الحمراء . ففي وقفة عيد الفطر وفي الايام الثلاثة التي تعطل فيها الأعمال بمناسبة مولد القديس المحلي ، كان الفلاحون يفدون لشراء لحم البقر المتعفن من دن يفوح برائحة لايكاد يطيقها أحد ، والسكارى يأتون للحصول على الشراب في مقابل مناجلهم وقلنسواتهم وشيلان زوجاتهم وعمال المصانع المذهولون من شرب الفودكا الرديئة يتمرغون في الطين . وتبدو الخطيئة وقد سادت كل شيء . وفي هذا الجو المسمم كان يطيب للمرء أن يعلم أن هناك في مكان ما من هذا البيت تجلس امرأة هادئة طاهرة لا شأن لها بلحم البقر المنتن والفودكا . وان الاحسان الذي تقدمه في هذا اليوم المفعم بالخطايا والرذائل يعمل في المجتمع عمل صمام الامن في الآلة البخارية .

وكانت الايام تمر على آل تسيبوكين وهم في كد دائم ونشاط دائب .

فكان يسمع شهيق اكسينيا وزفيرها وهي تغسل وجهها في ردهة المنزل قبل طلوع الشمس ، ويسمع غليان السموار في المطبخ وهو يئز ويطن كأنه يحذر من وقوع شر وشيك .

اما الرجل الهرم جريجوري بتروفتش فكان يرى بقامته الضئيلة الرشيقة وسترته السوداء وسرواله المزركش وحذائه الطويل اللامع وقد راح يهرول من قاعة الى قاعة وكأنه ذلك الحم الذي تتكلم عنه الاغنية الشعبية . وبعد ذلك يفتح الدكان وبمجرد أن ينتشر ضوء الصباح كان يؤتى أمام الباب بعربته يجرها حصان . ويقفز

كل
الها الرجل الهرم بخفة وشباب . ثم يجلب قلنسوته على وجهه حتى تغطي اذنيه . فكان كل من يراه لا يظن انه ناهز السادسة والخمسين من عمره . وكانت زوجته وزوجة ابنه تطلان عليه باعجاب وهو ينطلق بعربته كالسهم . وفي هذه اللحظات التي كان يرى نفسه فيها وقد لبس سترته المكوية النظيفة وركب عربته التي يجرها حصان أصيل كلفه اكثر من ثلاثمائة روبل كان يشعر بنفور عجيب نحو الفلاحين ويكره مقابلتهم ، فاذا لمح بعضهم ينتظرونه على الباب الخارجي بشكاياتهم ومطالبهم ، نظر اليهم شزرا وصاح بهم غاضبا :

« ماذا تريدون مني ؟ انصرفوا ! » .

واذا صادف في طريقه شحاذا . صاح به ايضا قائلا :

« ليبعث اليك المولى من عنده ! » .

وبعد ذلك كان ينطلق لقضاء مصالحه . اما زوجته فكانت تلبس ميدعة سوداء على ثوبها ، وتأخذ في تنظيم الغرف وتنظيفها والمساعدة في اعمال المطبخ ، في حين تقف اكسينيا خلف مداد الدكان مشغولة بعد الزجاجات والنقود ، فتسمع ضحكاتها على بعد مختلطة باحتجاجات العملاء الذين تحاول خداعهم ، وكل ذلك كان يوحي بأن هناك صفقة سرية من تجارة الفودكا غير المرخص بها في سبيل الانجاز . اما الاصم فكان يجلس في الدكان او يجول في الشوارع عاري الراس ولا يفتأ يسرح ببصره كالمذهول بين الاكواخ تارة والسماء تارة أخرى . ومن عادة افراد هذه الأسرة انهم كانوا يتناولون الشاي ست مرات في اليوم والطعام أربع مرات ، فاذا أقبل المساء قاموا باحصاء صفقاتهم وسجلوها في دفاترهم ، ثم أووا الى فراشهم وأخذوا قسطهم من النوم العميق السليم .

كانت مصانع القطن الثلاثة في اكلييفو ترتبط تليفونيا بمنازل اصحابها وهم آل خريمين الكبار ، وآل خريمين الصغار ، وآل كستيوكوف ، وكان التليفون قد مد ايضا الى مقر المجلس البلدي المشترك ، ولكنه لم يلبث أن تعطل عن العمل بسبب جيوش البق والصراصير التي ملأت الجهاز . ولم يكن رئيس المجلس يعرف القراءة والكتابة الا بصورة تقريبية ، فكان يبدأ كل كلمة يكتبها بحرف كبير ، ولكنه حين راى أن التليفون قد توقف عن العمل قال :

«نعم ، نعم ، لاشك ان العمل سيصبح عسيرا بدون التليفون».
وكان آل خريمين الكبار فى نزاع دائم امام القضاء مع آل خريمين الصغار ، وكذلك كانت الحال بالنسبة لهؤلاء الاخيرين فيما بينهم . وكانت المصانع تتوقف اثناء النزاع لمدة شهر او شهرين ، وكان من شأن ذلك كله ان يقدم لأهالى اكلييفو مادة سخية للحديث ، لأن هذه المنازعات كانت تثير الكثير من الكلام والنقاش.
وقد اعتاد آل كستيوكرف وآل خريمين الصغار ان يستقلوا عرباتهم فى ايام العطلات ويخرجوا للنزهة والعربدة فى شوارع اكلييفو وضواحيها . وفى هذه الايام كانت اكسينيا ايضا تلبس خير ما عندها وتسير امام الدكان غادية رائحة فيسمع لثوبها حفيف لا ينقطع . وكان آل خريمين لا يفتأون يمرون بها فى سرعة خاطفة كما لو كانوا يريدون اختطافها وحملها فى العربة برغم ارادتها .
وكذلك كان تسيبوكين الهرم يستقل عربته فى صحبة زوجته نرفارا لكى يطلع الناس على جواده الجديد .
وبعد ان تنتهى النزهة ويرخى الظلام سدوله على القرية ويأوى اهلها الى فراشهم ، كانت تسمع فى فناء آل خريمين الصغار نغمات موسيقية منبعثة من آلة غالية الثمن ، واذا كانت الليلة مقمرة ، استمرت الموسيقى تحرك قلوب السامعين وتشنف آذانهم حتى ساعة متاخرة من الليل ، ولم تعد قرية اكلييفو جحرا منزويا فى احد اركان الريف .

- ٢ -

كان اينسيم الابن الاكبر لا يزور البيت الا نادرا ، وفى ايام العطلات الهامة بوجه خاص ، ولكنه كان يكثر من ارسال الهدايا والخطابات التى يعهد بكتابتها الى كاتب جميل الخط ، وكان كل خطاب منها يملأ صفحة كاملة من ورق الكراسات ، ويسير فى اسلوبه على طريقة العرائض ، ويحتوى على كثير من العبارات التى لم تسمع قط على لسان اينسيم فى حديثه ، مثل : « والدى المبجلين ، ابعث طى هذا بكيس من عشب الشاى لارضاء رغباتكما الجسمانية » ، ثم يختم الخطاب بتوقيعه « اينسيم تسيبوكين » يكتبه بخط ردىء لا يكاد يقرأ حتى يظن من يراه انه كتب بقلم مفلول ، ويتبع التوقيع بكلمة « عسكرى » التى ترسم بالخط الجميل الذى كتب به باقى الخطاب .

وكانت الخطابات تقرأ مرارا ومرارا على اسماع الرجل الهرم الذي كان يبلغ به التأثر اعمقه ويصعد الدم الى وجهه من شدة الانفعال ثم يقول :

« انه لم يرد البقاء فى البيت ، وفضل ان يتابع دراسته. ولكن لابأس من ذلك ، فكل ميسر لما خلق له ! » .

وفى ذات يوم ، وهو اليوم السابق لوقفة عيد الصيام ، كانت السماء تمطر بردا كثيفا دقيقا ، فذهب الهرم ومعه فرفارا يطلان من شباك غرفتهما ، وفجأة رأيا عربة تشق طريقهـا خـلال البرد المنهمر ، ولم يكن الشخص الجالس فيها الا اينسيم مقبلا على المحطة دون أن يتوقع حضوره أحد . وبعد هنيهة دخل عليهما الغرفة وهو فى حالة قلق واضطراب مكبوتين ظلا يلازمانه فترة من الزمن ، ولكنه كان يحاول ان يبدو بمظهر الخفة والمرح اللذين عرفا عنه . ولم يكن فى هذه المرة يتعجل الرحيل كعادته ، بل كان من يراه يظن انه قد فقد وظيفته . وكان يبدو على فرفارا انها منشرحة الصدر لهذه الزيارة ، فقد ألقت اليه بنظرة ماكرة ، ثم راحت تتنهد وتهز راسها وتقول :

« كيف يتأتى لذلك ان يحدث ؟ اوخ تشك تشك ، ان هـذا الغلام قد بلغ السـابعة والعشرين من عمره ، ولا يزال عزبا حتى اليوم ! » .

وكان كلامها يسمع فى الغرفة المجاورة كما لو كانت لا تقول شيئا آخر الا أن تكرر بصوتها الرتيب : أوخ تشك ، تشـك ، اوخ ــ تشك ــ تشك . ثم لم يلبث أن انعقد ما يشبه أن يكون مجلسا استشاريا منها ومن الرجل العجوز واكسينيا ، وراح الثلاثة يتناقشون ويتبادلون الرأى فى صوت خافت كله وشوشة وغموض كما لو كانوا يتآمرون .

واستقر راى الجميع على انه لابد من زواج اينسيم .

وانبرت فرفارا لاقناعه بضرورة الزواج ، فقالت : « ان اخاك الاصغر قد تزوج منذ زمن طويل . وهأنت ذا تغدو وتروح وحدك كالديك فى ساحة السوق . ان الحال لا يمكن ان تستمر على هذا المنوال . فلابد ان تتزوج ، بمشيئة الله . وفى هذه الحال تستطيع أن تعود الى عملك ، اذا اردت ، وأن تترك زوجتك هنا فى البيت لكى تساعدنا . الواقع ان حياتك تخلو من النظام ، بل لقد نسيت

معنى النظام فى الحياة . أوه ! ما أقرب تصرفكم ياشبان المدن ! »

ومن المعتاد انه اذا اراد أحد من آل تسيبوكين الزواج ، بحث له عن أجمل عروس ، لأنهم اناس اغنياء . وفى هذه المرة أيضـــا ، استطاعوا ان يجدوا لأينسيم فتـــاة جميلة . اما هو فقـــد كان شخصا تافها ، غير جذاب ، قصير القامة ، ضعيف البنية ، مشوه العظام ، متورم الخدين ، يعتقد من يراه انه دائم النفخ فى شىء ما ، وله عينان حادتان ولـكن لابريق لهما . ولحيته خفيفة ضاربة الى الحمرة . واذا كان مـــستغرقا فى التفكير أو فى الحلم جمعها فى فمه وراح يمضغ اطرافها. ومما يجدر ذكره لتكميل هذه الصورة. انه لم يكن يكف عن الشراب كما كانت تدل على ذلك مشيته ولون بشرته . ومع ذلك كله فانهم حين اخبروه بأنهم قد اختاروا له زوجة فارهة الجمال ، اجابهم بقوله :

« هذا طبيعى ، فانا الآخر لـست بالشاب الدميم . اليس كذلك؟ لااعتقد ان هناك احدا يستطيع ان ينكر علينا. نحن آل تسيبوكين. جمال الخلقة وبهاء المنظر » .

واتفق ان كانت هناك قرية ملاصقة للمدينة اسمها ترجويبفو ، وقد اندمج جزء منها حديثا فى المدينة وبقى الجزء الآخر فى حالته القروية . وكانت هناك امراة ارمل تقيم فى بيت تملـكه بالقسم الذى انضم الى المدينـــة ، وكانت لها أخت فقيرة متربة تعمـل بالمياومة ولها ابنة اسمها ليبا تعمل بالمياومة مثلها . وكان جمالهـــا موضع احاديث المدينة ، ولولا فقرها المدقع لاقبل عليها الخطاب من كل جانب . وقد شاع بين أهل المدينة فى هذا الحين ان رجلا من الاعيان ــ ايما فى اغلب الظن ــ كان على وشك الزواج منهـــــا بالرغم من فقرها ، أو انه ــ على الأقـــل ــ يعتزم دعوتها للعيش معه فى منزله فى سبيل ان يمد أمها بالغذاء والـكساء . فسارعت فرنارا بالتحرى عن ليبا من بعض صناع الثياب ، ثم ذهبت بنفسها الى ترجويبفو .

وقد اقيم لعرض العروس حفل لاباس به فى منزل خالتها ، قدم فيه الطعام والشراب ، وارتدت فيه العروس ثوبا قرنفليا جـديدا صنع خصيصا لهذه المناسبة ، وربطت شعر راسها بشريط قرمزى اللون كان يبدو كأنه لسان من اللهب . اما هى نفسها فـكانت فتاة نحيلة الجسم ضعيفة البنية شاحبة الوجه ذات ملامح حلوة

رقيقة وبشرة دبغها طول العمل في الحقول ، وتتردد حول شفتيها ابتسامة حيية حزينة وتنبعث من عينيها نظرة مطمئنة مستطلعة أشبه بنظرات الاطفال منها بنظرات الكبار .

وكانت ليبا شابة حديثة السن ، بل فتاة صغيرة لم يتكون صدرها بعد ، ولكنها على اية حال كانت في سن تؤهلها للزواج ، وكانت فارهة الجمال ، وهذا امر يتفق عليه الجميع . ولم يكن يؤخذ عليها من هذه الناحية الا انه كان لها يدان ضخمتان تشبهان أيدي الرجال ، وقد أصبحتا الآن تتدليان بجانبها كمخلبين كبيرين .

وقال الرجل الهرم لخالة الفتاة : « يمكننا أن نتغاضى عن المهر ، فقد زوجنا ابننا ستيبان بامرأة من أسرة فقيرة ايضا ، وها نحن الآن ترانا عاجزين عن ايفائها حقها من المديح ، فانها هي التي تفعل كل شيء ، سواء اكان ذلك في البيت أم في الدكان » .

أما ليبا فكانت تقف أمام الباب ولسان حالها يقول : « افعلوا ما تشاءون ، فاني اثق فيكم وافوض اليكم امري » في حين ظلت امها ـ الخادمة ـ في المطبخ وردت عليها بابه ، وهي تكاد تهلك من شدة الخوف والخجل . وذلك انها كانت ذات مرة ، وهي في صغرها ، تقوم بمسح الارض في بيت احد التجار ، فركلها في بطنها بقدمه ركلة جعلتها تتلوى من الألم ، وأورثتها حالة من الخوف لم تستطع التخلص منها حتى الآن . فكانت يداها وركبتاها ، بل ووجنتاها ترتعد دائما من الخوف . ولذا جلست في المطبخ تحاول ان تنصت الى ما يقوله الزائرون ، وترفع يدها من حين لحين ، لترسم على وجهها علامة الصليب . ثم تضغط باصابعها على جبينها وتحملق في صورة العذراء المعلقة على الحائط . وكان أينسيم في حالة سكر خفيف ، فكان يذهب من لحظة لأخرى حتى باب المطبخ ويفتحه برفق ، ثم يقول بصوت فاتر :

« لماذا لاتأتين معنا يا أمنا العزيزة ، اننا لا نستطيع الاستغناء عنك ! » .

وكانت براسكوفيا تضغط بيديها على صدرها الاعجف المرتجف : وترد عليه بتلك الصيغة التي لا تتغير :

« أ أوه ، ياسيدي ، ما انبلك وما أكرم خلقك ! » . . .

وبعد استعراض العروس حدد يوم للزفاف .

وفي هذه الاثناء كان يرى أينسيم يجول بين غرف المنزل وهو

يصفر بفمه . وفى بعض الاحيان كان يتوقف فجاة وكأنه قد تذكر شيئا ما ، فيسيطر عليه الشرود ، ويصوب الى ارض الغرفة نظرة ثابتة نافذة كما لو كان يحاول أن يخترقها ويخترق الطبقات التى تحتها ببصره . ولم يكن تبدو عليه الغبطة بزواجه واقتراب زفافه الذي حدد له اسبوع عيد الفصح . ولا الرغبة فى رؤية خطيبته ، ولكنه كان يكتفي بمداومة التجول فى غرف المنزل والصفير الخافت بفمه . فكان من الواضح انه لم يتزوج الا لكى يرضى اباه وزوجة ابيه ، ولأن العادة قد جرت فى القرية على أن يتزوج الابن وأن يكون هناك شخص ما يساعد فى الاعمال المنزلية . وعندما حان موعد سفره لم يكن معجلا كعادته ، بل كان كل سلوكه يختلف عما كان عليه فى زياراته السابقة ، اذ داب يتكلم بخفة والفة متزايدتين ولم يكف عن التعثر فى آرائه واقواله .

- ٣ -

كان يعيش فى قرية شيكالوفو اختان تشتغلان بخياطة الملابس وتنتسبان كلتاهما الى طائفة الخليستيين . وكان يطلب اليهما صنع ملابس الافراح ، وكثيرا ما كانتا تترددان على منزل آل تسيبوكين لتجربة الملابس ، ثم تمكثان لديهم بعض الوقت عقب تناول الشاى . وقد طلب اليهما أن تعدا ثوبا لفرفارا وآخر لاكسينيا ، فصنعتا للاولى ثوبا بنى اللون وزينتاه بشريط اسود وحبيبات من القهرمان الاسود ايضا ، وصنعتا للثانية ثوبا اخضر اللون بصدر أصفر وذيل طويل . وبعد أن انتهتا من عملهما ، دفع لهما تسيبوكين اجرهما ، ولكن لا من النقود ، بل من السلع التى فى الدكان كما هى عادته معهما دائما ، ثم انصرفتا تحملان فى جرابيهما شموع الشحم وعلب السردين التى لا حاجة لهما بها ، ولذلك لم تكادا تغادران القرية وتسيران بضع خطوات بين الحقول حتى جلستا بجوار أحد الاسوار وانفجرتا بالبكاء .

ووصل أينسيم الى القرية قبل زفافه بثلاثة ايام ، وقد ارتدى ملابس جديدة وانتعل حذاء لامعا من المطاط يغلق بازرار حمراء بدلا من الرباط ، ووضع سترته على كتفيه دون أن يدخل ذراعيه فى كميها .

وبعد أن صلى طويلا امام صورة المسيح والسيدة العذراء ،

حيا والده واعطاه عشر قطع فضية من فئات الروبل ، وخمس قطع من ذوات نصف الروبل ، واعطى فرفارا مثلها ، اما اكسينيا فقد اعطاها ثلاثين قطعة من ذوات ربع الروبل . ولم تكن اهمية هذه الهدايا تتركز فى قيمتها النقدية ، بل ، بوجه خاص ، فى انها كانت كلها من القطع الجديدة التى تلمع كالشمس . وقد بدأ على اينسيم انه يبذل مجهودا ضخما للظهور بمظهر الجلال الذى تقتضيه المناسبة ، فراح يشد عضلات وجهه ويزيد من انتفاخ خديه . وكانت رائحة الخمر تفوح منه ، مما يدل على انه لم يترك مقصفا واحدا من مقاصف المحطات التى مر بها دون ان يعرج عليه . ثم اخذ فى الثرثرة السوقية والفضول المرذول . وبعد ذلك جلس مع والده يشربان الشاى ويتناولان قليلا من الطعام ، بينما جلست فرفارا تلعب بالقطع الفضية الجديدة بيديها ، وتسأل عن حال الاصدقاء الذين هجروا القرية واستوطنوا المدينة .

واجاب اينسيم : « كلهم بخير ، والحمد لله ولكن وقع حادث بسيط فى حياة ايفان بيجوروف المنزلية . فقد ماتت زوجته العجوز ، صوفيا نيكيفورفنا ، بالسل ، واقاموا مأدبة الجناز فى احد محلات الفطائر بمعدل روبلين ونصف روبل للراس الواحد بما فى ذلك النبيذ ، وكان هناك عدد قليل من الفلاحين من جانبنا ، وقد اكلوا هم ايضا بروبلين ونصف روبل لكل منهم . ولكنهم لم ياكلوا شيئا ، كأن الفلاحين يستطيعون ان يقدروا انواع الصلصات حق قدرها » .

وقفز الرجل الهرم فجأة ، وراح يهز رأسه ، ثم سأل متعجبا : « روبلان ونصف روبل ؟ » .

واجاب الابن : « بالطبع ، انت تعرف ان المدينة غير القرية . انك تدخل المطعم لتناول أخف الاشياء ، فتطلب طبقا او طبقين ، وترى بعض الزملاء يطلبون شيئا من الشراب وتشرب معهم ، واخيرا ينجلى الامر عن ثلاثة روبلات او اربعة لكل فرد . واذا تصادف وجود ساموردوف ، فانه يحب ان يختم بقهوة وكونياك ، وكاس الكونياك وحده يساوى ستين كوبكا » .

فقال الرجل الهرم وهو بين الذهول والاعجاب : « ياله من كاذب ! » .

وواصل اينسيم كلامه قائلا : « أوه اننى الآن دائم الخروج مع

سامورودوف ، وهو الشخص الذي يكتب لي خطاباتي . وياله من كاتب فذ » ثم التفت نحو فرفارا واستمر يقول : « ولو اخبرتك يا أمي ، اي صنف من أصناف الرجال سامورودوف هذا ، لما صدقتني . اننا جميعا نسميه « مختار » اذ ان كل من يراه يؤكد انه أرمني ، وبشرته سمراء داكنة من اولها الى آخرها . وفي مقدوري ان اعرف أسراره كلها ، فانا ، يا أمي اعرف مسائله كما اعرف راحة يدي تماما . وهو يعرف عني ذلك ، ولذلك تزينه دائما ملاصقا لي ، اننا لا نفترق هو وانا . نعم انه يخشاني بعض الشيء ، ولكنه لا يستطيع العيش بدوني . وانا ذو عين نفاذة ، يا أمي . فمثلا اري فلاحا يبيع قميصا فيسوق الاشياء العتيقة ، فاصيح : « توقف . انه مسروقات » . ويتبين اني على حق ، يثبت ان القميص مسروقات » .

وسألته فرفارا : « وكيف تعرف ذلك ؟ » .

فاجابها : « انا لا اعرف شيئا ، ولكن لي عينا ، وافترض لا اعرف شيئا عن القميص ، ولكنه نوع من الحدس ، ها ! انه مسروق ، وهذا كل ما في الأمر . كل من في المكتب يقولون حين يرونني اهم بالخروج ها هو ذا اينسيم قد خرج لصيد البلهاء . هكذا يسمون البحث عن السلع المسروقة » .

فقالت فرفارا وهي تتنهد : « لقد سرقوا كبشا وحملين في الاسبوع الماضي من آل جنتاريف الذين يقطنون قريتنا ، وليس هناك من يستطيع البحث عن اللص » .

ورد عليها من فوره : « انا استطيع النظر في هذا الأمر . ولن اقول اني لا استطيع » .

وحان يوم الزفاف ، وكان يوما شديد البرد من ايام شهر ابريل ، ولكنه كان مشرقا بهيجا .

ومنذ الصباح الباكر كانت العربات ذوات الجياد الثلاثة[8] وذوات الجوادين تشق شوارع اكلييفو ، وقد علقت الجلاجل في رقاب الخيل وزينت اعرافها بالشرائط الملونة . وذعرت العصافير والطيور من صوت العربات فراحت تصيح وتغرد بين اغصان الصفصاف ، كما لو كانت تشعر بالابتهاج لافراح آل تسيبوكين .

وفي البيت صفت الموائد وحملت بالاسماك الضخمة ، وافخاذ الخنزير وطيور الصيد المحشوة ، وعلب السمك المملح ، والمخللات

من الانواع جميعها ، والعدد الذى لايحصى من زجاجات النبيذ والفودكا . ولكن رائحة السجق المشوى وسمك الاستاكوزا المعبأ فى العلب كانت تطغى على كل ماعداها . وكان الرجل الهرم يتنقل بين الموائد لسن السكاكين بحك نصالها بعضها فى البعض الآخر . وكان الجميع ينادون فرفارا لكى يسألوها عن هذا الأمر او ذاك، وكانت هى تبدو مبهورة الانفاس منهكة كل الانهاك تغدو وتروح عدوا من المطبخ واليه ، حيث كان يعمل رئيسا للطباخين لدى آل كستيوكوف وآل خريمين الصغار منذ الفجر ، أما أكسينيا فقد لوت شعرها ، وجعلت تغدو وتروح كالخدروف فى فناء البيت بقميصها الداخلى وأزيز حذائها الجديد ، فكانت تلك فرصة نادرة لمن أراد ان ينظر الى ساقيها العاريتين وعجزها البارز. وفى غمرة هذه الضوضاء الصاخبة كانت تسمع الايمان المغلظة والشتائم الخشنة ، ويرى المارون يتوقفون على باب المنزل المفتوح على مصراعيه، وخلاصة القول ان كل ما كان يجرى فى القرية كان يؤذن بأن أمرا غير عادى على وشك الحدوث فيها .

« لقد ذهبوا لاحضار العروس ! » .

وظلت جلاجل العربات تسمع لمدة ما ، ثم تلاشت فى الافق بالتدريج وحوالى الساعة الثانية كانت الجحافل فى طريق عودتها الى القرية ، وبدأت الجلاجل تسمع من جديد . لقد جاءوا بالعروس . وغصت الكنيسة بالحاضرين ، وأضيئت الشموع وأخذ المرتلون فى الترتيل وهم يمسكون اوراق الموسيقى بأيديهم بناء على رجاء تسيبوكين الهرم . وكانت أشعة المصابيح والملابس الزاهية العديدة الالوان تكاد تعشى بصر ليبا التى كانت تشعر بأصوات المغنين والموسيقى وكأنها مطارق صغيرة تنهال على رأسها .

وكان المشد الذى لبسته لأول مرة فى حياتها يضغط على جسمها ، والحذاء الجديد يكاد يدمى قدميها ، ولذلك بدت أمام الناظرين كما لو كانت فى حالة اغماء لم تفق منه الا منذ هذه اللحظة وانها لا تدرى حتى الآن فى اى مكان هى . ولا من اين جاءت . ولا اين تذهب . أما انيسيم فكان يلبس سترته السوداء ، ويضع حبلا احمر حول عنقه بدلا من رباط الرقبة ، ويبدو عليه الانهماك فى التفكير، ويحملق بعينيه فى مكان واحد لايريم عنه ، وحينما بدأت فرقة المرتلين فى الغناء بصوت مرتفع سارع برسم صورة الصليب

على وجهه. وكان يبدو عليه انه على وشك البكاء من شدة التاثر. والحقيقة انه كان يعرف الكنيسة منذ طفولته حين كانت امه تأخذه بين ذراعيها لتلقى البركات الدينية ، ثم حين اعتاد أن يذهب بعد ذلك فى أيام الاعياد والآحاد للاشتراك فى الغناء مع فرقة المرتلين الصبيان . ولذا كان على تمام المعرفة بكل ركن من أركانها وكل ايقونة من الايقونات التى تضمها . والآن هاهوذا يتزوج ، ولكنه لم يكن يفكر فى هذا الأمر ، لأنه قد غاب عن عقله تماما أن هذا الزواج الذى يجرى فى الكنيسة هو زواجه . وغلبت الدموع على عينيه حتى اصبح لايرى الايقونات التى أمامه ، وشعر بأن حملا ثقيلا يربن على قلبه ، فراح يصلى ويدعو الله أن ينجيه من هذه الكارثة المعلقة على راسه والتى تهدده بالانقضاض عليه فى كل آونة ، ويتوسل اليه أن يجعلها تمر من فوق راسه بسلام كما يحدث للسحب المحملة بالامطار أن تعبر سماء القرية فى بعض الاحيان دون أن تنزل عليها قطرة واحدة من ماء . نعم ، انه كان على تمام البينة من أنه قد ارتكب فى حياته آثاما كثيرة ، وانه أفسد علاقته بالسماء الى ما غير رجعة وان استجابتها لدعائه فى هذه الحال أصبح امرا ميئوسا منه ، ولكنه مع كل ذلك لم ييأس من رحمة الله ، فاتجه الى التوسل اليه بكل قلبه حتى كان ينفجر بالبكاء المكتوم بين الفينة والاخرى دون أن يتجه انتباه الحاضرين الى شىء من هذا القبيل لاعتقادهم بانه سكران .

وفجاة صاح احد الاطفال بصوت مذعور: « أمى ، أمى العزيزة ، ارجوك أن تذهبى بى من هنا ! » .

فصاح القس بدوره : « الهدوء ! الهدوء ! »

وتدفقت الجماهير خلف العروسين وهما يغادران الكنيسة . وكذلك كانت تتراكم الجماهير الغفيرة أمام الدكان ولدى باب المنزل وفى فنائه وتحت شبابيكه . واقبل النساء يتقاطرن من كل صوب لتهنئة العروسين وفى اللحظة التى وصل فيها الموكب الى عتبة الباب ، انطلق المغنون الذين كانوا يقفون متأهبين فى مدخل البيت بالغناء بصوت مرتفع . وصدحت موسيقى الفرقة الموسيقية التى استدعيت من المدينة لهذه المناسبة . ووزعت شمبانيا وادى الطونة على الحاضرين فى كئوس عالية ، وعندئذ تقدم بيليساروف النجار المقاول ، وهو رجل نحيل طويل هرم ، ذو حاجبين كثين تختفى تحتهما عيناه الصغيرتان حتى لا يكاد يرى بهما شيئا ، واقترب من

العروسين وانبرى يخاطبهما :

« اى اينسيم ، وانت ، ايتها الطفلة ـ اجبا بعضكهما . وسيرا في طريق الله . وستريان ان السيدة العذراء لن تتخلى عنكما قط». ثم دفن وجهه في كتف تسيبوكين الهرم واخذ يبكي ويقول بصوت صارخ متهدج : « هيا نبك ياجريجوري بتروفتش . دعنا نبك من الفرح ! »وفجاة انفجر بالضحك . واخذ يصيح بصوت غليظ : هو ـ هو ـ هو ! ان العروس فضلا عن ذلك . حلوة ! فكل شيء سيسير على مايرام لا صدام ولا نزاع . الماكينة مضبوطة للغاية . والمسامير كلها في مواضعها . »

وكان بيليساروف من مواليد اقليم بيجورويفسك. ولكنه اشتغل منذ شبابه في مصانع اكلييفو وضواحيها حتى اصبح يعتبر نفسه من اهل هذه القرية . وكان يبدو لجميع من عرفوه انهم لم يروه قط الا في هذه الحال من الهرم والنحافة والضمور . ولم يكن احد منهم يتذكر انه دعاه باسم آخر غير اسم « المسمار » ولعل السنين الاربعين التي قضاها في المصانع ، حيث لم يكن يشتغل الا بالاصلاحات والترميمات ، هي التي جعلته يزن الكائنات البشرية والاشياء غير الحية بميزان واحد . فكان يتساءل دائما : « أهم في حاجة الى ترميم او اصلاح ؟ » وفي هذه المرة ايضا لم يجلس امام المائدة الا بعد ان اختبر عدة مقاعد ليعرف ماذا كانت فيحالة مرضية . بل انه ايضا قد حرص على أن يجس سمك السالمون قبل ان ياكله .

وجلس الجميع على المائدة بعد أن انتهوا من احتساء نصيبهم من الشمبانيا ، وراحوا يتكلمون فيما بينهم ، وفي الوقت نفسه استمر المغنون المصطفون على طول الممر في غنائهم ، وواصلت الفرقة الموسيقية عزفها ، وبدأت النساء المجتمعات في فناء المنزل في القاء الاغنية التقليدية القاء جماعيا ، فكانت كل هذه الاصوات المختلطة الصاخبة كفيلة في حد ذاتها ، بتصديع رءوس السامعين .

وبدأ « المسمار » يتململ على مقعده ، ويركل جيرانه بركبتيه ويقاطع كل من يتكلم بالضحك تارة والبكاء تارة أخرى . ومن حين لحين كان يتمتم قائلا :

« يا اطفالي ، يا اطفالي الاعزاء ، يا اكسينيا العزيزة ، يافرفارا ، دعونا نعش فيما بيننا بسلام ، وهدوء ، يا محاوري الصغيرة ... »

والحقيقة انه لم يكن معتادا على الشراب ، ولذا لم يكد يتناول اول كأس من « الجين » حتى أطبق عليه السكر ، لاسيما ان ذلك الشراب المر المثير الذى ــ لا يعلم الا الله كيف خمر وجهز ، من شانه ان يصيب كل من شربه بالدوار ، كما لو كان قد تلقى ضربة عاتية على راسه . ومن ثم استولى على الحاضرين جميعا نوع من الهستيريا واصبح كلامهم مختلطا متنافرا .

وقد اجتمع حول المائدة رجال الدين المحليون ، ورؤساء المصانع من زوجاتهم ، والتجار واصحاب الحانات فى القرى المجاورة . وكان من بين الحاضرين رئيس المجلس البلدى وكاتبه اللذان قضيا اربعة عشر عاما من حياتهما يعملان معا دون أن يوقعا على ورقة واحدة ، كما لم يتركا شخصا يغادر مكتبهما دون أن يغرياه بخداع احد الناس أو شتمة وقد جلسا جنبا لجنب بجسميهما المكتظين باللحم والشحم وبشرتهما اللامعة ، وكان جلد وجهيهما يشبه جلد الدجالين الخطافين لفرط تشبعهما بالكذب وطول ممارستهما اياه . وكانت زوجة الكاتب ، وهى امرأة عجفاء حولاء العينين ، قد أحضرت معها اطفالها جميعا وجلست بينهم كالطائر الجارح ، وراحت تنقل بصرها من طبق الى طبق وتنقض على كل ما يقع تحت متناول يدها وتدسه فى جيبها او جيوب اطفالها .

وجلست ليبا جامدة كالحجر وعلى وجهها السيما التى لازمتها طوال وجودها فى الكنيسة . اما اينسيم ، فلم يتبادل معها كلمة واحدة منذ أن تم التعارف بينهما ، حتى انه لم يكن يدرى شيئا عن نبر صوتها وقد جلس الآن بجانبها صامتا منهمكا فى التهام كئوس الجين ، ولم يفتح فمه للكلام الا بعد ان اطبق عليه السكر ، حيث بدأ يقول مخاطبا خالة ليبا عبر المائدة :

« ان لى صديقا اسمه ساموورودنرف ، لايشبه اى شخص آخر . انه مواطن شريف ويعرف كيف يتكلم ، ولكن فى مقدورى أن اعرف اسراره كلها ، ياخالتى ، وهو على بينة من ذلك . فدعينا نشرب فى صحة ساموورودوف ، ياخالتى ! » .

وراحت فرفارا تدور حول المائدة وتلح على المدعوين ان يواصلوا الاكل . وكان يبدو عليها الارهاق والتعب ، ولكن وجهها كان يعبر عن الابتهاج كلما نظرت الى المائدة ورات ان الاطعمة التى عليها تربو على طاقة المدعوين ، وان هؤلاء لن يجدوا للنقد او الشكوى اى

سبيلاً وغربت الشمس ، ولكن المائدة ظلت ممتدة ، واصبح الحاضرون لايدرون ماذا يضعون فى أفواههم ، ولا يسمعون كلام بعضهم بعضا ولكن حينما كانت تتوقف الموسيقى لفترة ما ، كانت تسمع احدى النساء المجتمعات فى الفناء تتفوه بعبارات من قبيل :

« يامصاصي الدماء ، أيها الطغاة ! رماكم الله بطاعون جارف ! »

وفى المساء اقيم حفل راقص على انغام الموسيقى . وحضر آل خريمين الصغار ومعهم شرابهم الخاص . وقد دخل احدهم حلبة الرقص ، وهو قابض على زجاجتين من الخمر فى كل يد من يديه زجاجة ، ويمسك بكأس بين أسنانه ، مما ابهج الحاضرين وأثار اعجابهم .

وكان بعض الراقصين يخرجون بعض الشىء على الخطوة التى تسير عليها الحلبة بأن يقفزوا ويطوحوا سيقانهم ذات اليمين وذات الشمال على الطريقة الروسية ، وكانت اكسينيا تمرق كالسهم فى ثوبها الاخضر فتثير الهواء من حولها بذيلها الطويل . وحدث أن وطأ أحد الراقصين كرة الزغب التى تزين أسفل ثوبها ، وأدى ذلك الى قطعها ، فصاح « السمار » بأعلى صوته قائلا :

« لقد هدمت المصطبة ! آه ، أيها الاطفال ! أيها الاطفال ! » .

وكان لاكسينيا عينان شهباوان تبدو فيهما البراءة ، ونظرة جامدة وابتسامة ساذجة تترقرق فوق ملامحها باستمرار . وكان فى هاتين العينين الجامدتين والرأس الصغير المعلق على عنق طويل شيء ما يقربها من صورة الثعبان ، كما كان الصدر الاصفر الذى تحلى به ثوبها الاخضر يجعلها تبدو كالرقطاء حين تكورجسمها وتطل من بين أعواد الشوفان الصغيرة فى فصل الربيع لكى ترقب الغادين والرائحين . وقد لوحظ ان آل خريمين كانوا يعاملونها بألفة غير عادية ، وانه مما لاشك فيه انها كانت على علاقات وثيقة خفية باكبر الاخوة . ولكن الزوج الاصم لم ير شيئا من ذلك ، بل لم يحاول أن ينظر نحوها ، وانما قبع فى أحد الاركان حيث أقبل على أكل البندق الذى كان يسحق قشره بين أسنانه محدثا ضوضاء تشبه قعقعة الأسلحة النارية .

وفى هذه الاثناء تقدم تسيبوكين الهرم حتى وسط الحلبة ، واخذ يلوح بمنديله ليظهر انه يريد أن يرقص هو الآخر ، وهنا سرت همسات تقول :

« هو نفسه يرقص ! هو نفسه يرقص ! » .
واخذ الهمس ينتقل بسرعة البرق من غرفة الى غرفة حتى وصل الى الفناء .
والحقيقة ان فرفارا هي التي كانت ترقص ، اما الرجل الهرم فقد اكتفى بالتلويح بمنديله وقرع الارض بعقبيه على نغم الموسيقى، ولكن الجماهير المتعطشة طربت لذلك ، فغفرت له في تلك اللحظة غناه وجوره .
وتعالت الاصوات من الفناء قائلة : « استمر ، ياجريجوري بتروفتش التصق بها ! آه ان هذا الكلب العجوز لايزال ينبض بالحياة ! ها ها ! » .
ولم يتوقف القصف والرقص والعزف الا بعد ان جاوزت الساعة الواحدة من صباح اليوم التالي ، وحينئذ قام اينسيم يترنح حتى وقف امام الموسيقيين والمغنيين ، ومنح كلا منهم قطعة من ذات نصف الروبل على سبيل المكافاة . اما الرجل الهرم الذي لم يكن يترنح ، ولكنه لم يكن يخلو من السكر ، فقد وقف يودع ضيوفه واحدا واحدا ، ويقول لكل منهم :
« ان هذا الزواج قد كلفنا الفين من الروبلات » .
وبينماكان المدعوون ينصرفون اكتشف ان احدهم قد ترك سترته البالية واخذبدلا منها سترة ثمينة جديدة لشبكالوف صـــاحب الحانة ، وما ان سمع اينسيم بالخبر حتى صاح قائلا بأعلى صوته :
« توقفوا ! ساعثر عليها فورا ! فانا اعرف من الذي اخذها ! قلت لكم توقفوا ! » .
واندفع الى الشارع محاولا الانقضاض على احد الضيوف . ولكن ذويه قبضوا عليه وساقوه امامهم ، وهو لايعي من السكر ويكاد يتميز من الغيظ والعرق يتصبب من كل جسمه ، ثم دفعوه دفعا الى غرفته حيث كانت الخالة قد انتهت من تجهيز ليبا ، وبعد ذلك أغلق الباب من دونهما .

– ٤ –

ومرت ايام خمسة ، ثم صعد اينسيم ليودع فرفارا قبل سفره . وكانت المصابيح المسلطة على الصور والتماثيل الدينية مضاءة كلها ، ورائحة البخور تفوح من القاعة . وكانت فرفارا تجلس بجانب

الشباك وتشتغل في صنع جورب من الصوف .

وما ان وقع بصرها على اينسيم حتى قالت : « انك لم تمكث بيننا طويلا . فهل استنبط من ذلك انك قد مللت عشرتنا ؟ اننا هنا نحيا حياة رضية ، حياة واسعة رخية ، وقد احتفلنا بزواجك احتفالا لائقا وكان كل شيء على ما ينبغي ان يكون ، ويقول الرجل الهرم ان ذلك كلفه الفي روبل . اننا بالاختصار نحيا حياة تجار حقيقيين ، ولكن كل ما يحيط بنا ممل . فنحن نعامل الناس أسوأ معاملة . واقسم لك ياصديقي انه مما يحز في نفسي أن أرى تلك الطريقة التي نعاملهم بها ، اذ ليس لدينا شيء آخر غير الغش ، سواء اكنا نبيع حصانا أم نشترى شيئا ام نستأجر من يعيننا في أمر ما . لا شيء غير الغش والخداع . فالزيت النباتي الذي في دكاننا ، مثلا ، فاسد مر كالعلقم ، بل ليس من البعيد أن يكون القار أحلى منه مذاقا . والآن قل لي ، أليس في وسعنا أن نبيع زيتا جيدا ؟ » .

ـ « كل وما خلق له ، يا أمي »

ـ « ولكن ماذا يكون حالنا بعد الموت ؟ أوه ، الا تستطيع أن تكلم والدك ؟ الا تستطيع الآن ؟ » .

ـ « ولماذا لا تكلمينه أنت ؟ » .

ـ « آه ! كلما ابديت له رأيي ، اجابني بتلك الكلمات التي سمعتها منك الآن : « كل وما خلق له » . ولكن في العالم الآخر ، لن يسأل احد عما ينتمي اليك وما ينتمي الى غيرك . فحكم الله هو العدل الذي لا عدل سواه » .

فأجاب اينسيم وهو يتنهد : « لن يسأل احد عن ذلك بطبيعة الحال » .

ونظرت اليه فرفارا في ذهول ، ثم القت بذراعيها الى جانبها ، وراحت تقهقه بصوت عال ، وكانت دهشتها الصريحة الساذجة ونظرتها اليه توحيان باعتقادها انه قد أصيب بمس من الجنون ، مما احرج موقفه امامها ، فقال :

« نعم ، ربما كان هناك اله ، ولكن لم يعد هناك من يؤمن بذلك . فحينما كانت تجرى مراسيم زواجي ، كنت اشعر كما لو كنت امام احدى المهازل . وخيل الي كان شخصا ما قد تناول

بيضة من تحت الدجاجة ، وفجاة سمع الفروج يصيح بداخلها ، وقد سمعت انا أيضا ضميرى يصيح بداخلى ، واخذت اقول فى نفسى طوال اجراء المراسيم ان هناك الها ! » ولكن لم اكد اغادر الكنيسة حتى كان كل شيء قد تلاشى .

والآن اتريننى اعرف ما اذا كان هناك اله ام لا ؟ وحينما كنا اطفالا لم يعن احد بتعليمنا هذه الاشياء ، كان الرضيع فى احضان امه لا يسمع الا هذه الكلمات :

« كل وما خلق له » وابى هو الآخر ، لايؤمن بوجود الله . اتذكرين انك اخبرتنى من قبل ان بعض الغنم قد سرقت من قرية جنتوريف ! لقد عرفت عنها كل شيء . فالذى سرقها فلاح من شيكالوفو ، نعم انه هو الذى سرقها ، ولكن المسروقات قد وجدت طريقها الى دكان ابى ... وهانت ذى تؤمنين بالدين ! ».

ثم غمز اينسيم بعينيه وهز راسه ، وقال :

« ان عمدة القرية لايؤمن بوجود الله ، هو الآخر » . واستمر يقول :

« وكذلك الحال بالنسبة للكاتب والشماس . واذا كانوا يواظبون على الصوم والذهاب الى الكنيسة . فذلك لكيلا يتكلم عنهم الناس واحتياطا لما اذا كان هناك حقا يوم للحساب .

وبعض الاشخاص يزعمون ان نهاية العالم قد قربت ، لان الناس اصبحوا ضعافا . ولم يعودوا يكرمون والديهم ولكن هذا الكلام لا معنى له ، وهذا هو رايى. يا امى :كل المشكلات والاضطرابات ناجمة عن ان الناس اصبحوا دون وازع من ضمير . اننى انفذ ببصرى الى اعماقهم ، يا امى ، واعرفهم جيدا . واذا رايت قميصا مسروقا ، عرفت انه مسروق . فقد ترين مثلا ، رجلا يجلس فى الحانة ، وتظنين انه انما جاء لتناول الشاى . ولكنى أرى انه لم يجيء لشرب الشاى فحسب ، وانه لا ضمير له . بل قد تسيرين يوما كاملا دون ان تقابلى شخصا واحدا حى الضمير . وكل ذلك لان احدا لايدرى ما اذا كان هناك اله ام لا ... والآن ، ياوالدتى استودعك الله . حافظى على صحتك وعلى قوة نفسك . ولا تنسى ان تفكرى فى » .

ثم انحنى امام فارفارا حتى كاد راسه يلمس الارض وقال :

« نشكرك ، يا امى ، على فضلك الكثير ، ان فضلك على

أسرتنا ليس مما يستطاع انكاره . فانت سيدة محترمة ، وانا مسرور منك الى اقصى حد » .

وغادر الغرفة وعليه سيما التأثر العميق ، ولكنه عاد أدراجه مرة اخرى وقال :

« ان ساموردوف قد ورطني في مسألة ما قد تعود علي بالمال الوفير وقد تجرني الى الخراب . فأملي ، يا أمي ، ان تعملي على تعزية ابي بكل الوسائل ، اذا ما حدث لي شيء » .

ـ « لا تقل ذلك ! ! ان فضل الله عظيم ! ولكني أود ، يا اينسيم ، أن تكون أكثر من ذلك عطفا على زوجتك ، فان كلا منكما ينظر الى الآخر نظرة الحيوان الضاري ، ولم يبتسم أحدكما للآخر قط ، قط ! » .

فأجاب اينسيم وهو يتنهد الما : « انها فتاة غريبة الاطوار . انها لا تفهم شيئا ، ولا تنبس بكلمة واحدة . ولكنها على أية حال صغيرة السن ، ويجب أن يترك لها الوقت لكي تنمو » .

وكانت هناك عربة معلق فيها جواد ابيض أصيل تنتظر أمام الباب .

وقفز تسيبوكين الهرم الى العربة في شيء من التعاظم ، وامسك بالزمام في يده . وقام اينسيم بتقبيل فرفارا واكسينيا واخيه . وكانت ليبا أيضا تقف أمام الباب ، ولكنها كانت تقف دون حراك وتسرح ببصرها الى الافق البعيد ، كما لو كانت قد نبتت في مكانها ، ولم تأت قصدا لتوديع زوجها . فتقدم نحوها اينسيم ومس خدها بشفتيه مسا خفيفا وقال : « الى اللقاء ! » .

فلم توجه بصرها اليه ، ولكن بدت على وجهها ابتسامة غريبة ، وتدلت ملامحها ، وشعر الحاضرون جميعا بشيء من الأسى من اجلها دون أن يعرفوا لماذا ، وبعد ذلك صعد اينسيم بدوره الى العربة وجلس في مكانه منها ، ثم وضع يديه على فخذيه كعادته حين يريد الظهور بمظهر العظمة والاناقة .

وانطلقت العربة في سبيلها لصعود سفح المنخفض ، ولكن اينسيم ظل ينظر من خلفه الى القرية . وكان يوما حارا مشمسا ، وقد سيقت الماشية للرعي في الحقول لأول مرة في هذا العام . وكانت النساء والفتيات اللائي يصحبنها يرتدين ثياب الاعياد . ورأى المسافران امامهما ثورا أحمر يخور بملء فيه ، ويطأ الارض بحوافره متبخترا كأنه انسان يستمتع بحريته . وكانت العصافير تغرد في كل

مكان ، تحت الاشجار وفوقها ، وفى السماء وفوق العشب .

ونظر اينسيم من خلفه الى الكنيسة فى شكلها الابيض الجميل — وكانت قد طليت حديثا — وتذكر كيف كان يصلى فيها منذ خمسة ايام ثم نظر الى المدرسة بسقفها الاخضر ، والى الجدول الذى كثيرا ما سبح فيه وصاد السمك ، وحينئذ اهتز قلبه طربا ، وود من اعماقه لو انشقت الارض امامه وبرز منها حائط عال ليمنعه من مواصلة السير ، ويتركه مع ماضيه الحبيب .

ولما وصلا الى المحطة ، ذهبا الى مقصفها ، وطلب كل منهما كأسا من خمر الكرز . ووضع الرجل الهرم يده فى جيبه لكى يخرج كيس نقوده ولكن اينسيم اوقفه قائلا :

« هذه مسالتى انا ! » .

وبدا التاثر على الرجل الهرم واخذ يربت لابنه على كتفه ، ثم غمز بعينه الى خادم المقصف وكانه يقول له : « انظر هذا هو ابنى، وياله من ابن ! » ونظر الى اينسيم وقال :

« كنت أود ان تبقى معى بالبيت يا اينسيم ، وان تساعدنى فى اعمالى . انك لا تدرى مقدار الفائدة التى تستطيع تقديمها الى. وفى هذه الحال يصبح فى مقدورى ان اغرقك فى الذهب يابنى » .

— « لا ، لا ، يا ابى ، لا استطيع » .

وكان خمر الكرز مر الطعم وله رائحة تشبه رائحة شمع الخاتم، ولكنهما طلبا كأسا اخرى لكل منهما .

وحينما عاد الرجل الهرم من المحطة ، لم يكد يعرف زوجة ابنه الصغير . ذلك ان ليبا قد تحولت الى امرأة شابة مرحة بمجرد ان رأت زوجها يغادر البيت. فخلعت لباس العرس وارتدت قميصا باليا وشمرت عن ساعديها واخذت تغسل درج سلم المدخل ، وهى تغنى بصوت فضى حاد ، وحينما حملت دن الماء القذر لالقائه خارج المنزل ، ونظرت الى الشمس المشرقة بابتسامتها الساذجة ، كانت تبدو فى عين من يراها اشبه شىء بالعصفورة نفسها .

وفى هذه الاثناء كان يمر أمام الباب عامل هرم ، وما ان رأى ليبا حتى سلك حنجرته وهز رأسه ، ثم قال :

« ما اسعدك بزوجات ابنائك ، ياجريجورى بتروفتش ! انهن كنوز حقيقية ! » .

في يوم الجمعة ، وهو اليوم الثامن من شهر يولية ، كانت ليبا وبيليساروف الملقب بالمسمار يسيران في طريق العـــودة من قرية قازانسكوى ، حيث اشتركا في الاحتفال بمولد عذراء قازان ، شفيعة الكنيســة المحلية . ومن خلفهما كانت تسير براسكوفيا والدة ليبا ، على بعد كبير . لأنها كانت امراة مريضة مبهورة الانفاس. وكانت الشمس على وشك الغروب .

وقال « المسمار » متعجبا وهو ينصت الى ليبا : « هو هو هو ! هو هو هو ! وبعد ! »

وكانت ليبا تقول : « اني مغرمة بالمربى الي اقصى حد ، يا ايليا ماكارتش. ولذلك تراني اجلس في الركن لكي اشرب الشاى وآكل المربى . وقد اتناول الشــاى مع فرفارا نيقولايفنا حيث اسمعها تقص على قصة حزينة جميلة. ان لديهم كثيرا من المربى ، اربعون آنية ! وهم لا يفتاون يقولون لي : « كلي يا ليبا ! كلي كما تشتهين! ».

ــ « هو هو ! اربعة آنية ! » .

ــ « نعم . انهم اغنياء . ويأكلون الخبز الابيض مع الشاى . ويستطيعون ان يأكلوا من اللحم مما يشاءون . انهم اغنياء . ولكني معهم في حالة خوف دائم . يا ايليا ماكارتش . اوه ، وياله من خوف ! » .

والتفت المسمار وراءه ليرى ما اذا كانت براسكوفيا لا تزال بعيدة جدا . ثم سأل ليبا قائلا : « ومم تخافين . ياطفلتي ! »

ــ « في بادىء الأمر وبعد الزواج مباشرة . كنت اخاف اينسيم جريجورتش : نعم انه شاب محمود السجايا . ولم يصبني بضرر قط . ولكنه كلما اقترب مني ، شعرت بقشعريرة هائلة تسرى في بدني ، فكنت اقضي الليلة مستيقظة ارتعد واصلي .

والآن اراني اخشى اكسينيا ، يا ايليا ماكارتش ، انها هي أيضا شابة حميدة السجايا ، ولا تكف عن الابتسام لحظة واحدة ، ولكنها في بعض الاحيان تطل من الشباك بعينين مفترستين تقذفان بشرر اخضر كعيني الشاة في حظيرة حالكة الظلام . ولا يكف آل خريمين الصغار عن القول لها : « ان حماك الهرم يملك قطعــة ارض في بتيكنيو تبلغ اربعين فدانا او حوالي ذلك » . ثم يواصلون كلامهم قائلين : « ان تربة هذه الارض رملية في معظمها ، وبالقرب منهــا

مجرى ماء . فلماذا لا تنشئين فيها مصنع طوب لحسابك الخاص يا اكسينيا ؟ ونحن على استعداد لمشاركتك . الألف من قوالب الطوب تساوى ثلاثين روبلا الآن . فبذلك يستطيمون جمع الكثير من المال . وبالامس حينما كنا على المائدة قالت اكسينيا للرجل الهرم : « أريد أن انشيء مصنعا للطوب فى بتيبكينو وأبدأ العمل لحسابى الخاص » . قالت ذلك وهى تتكلف الضحك ولكن وجه جريجورى بتروفتش تغير لونه ، وبدا عليه الضيق ، ثم قال : « لن تكون هناك تجارة منفصلة ما دمت حيا ، ويجب أن نتعاون جميعا كما لو كنا شخصا واحدا » . فنظرت اليه شزرا وكشرت عن أنيابها .. ولما قدمت الفطائر لم تلق لها طعما .

وعلق المسمار على ذلك بقوله : « ها ! الم ترد ان تأكل من الفطائر اللذيذة ؟ » .

وواصلت ليبا كلامها قائلة : « وكم اتمنى ان أعرف متى تنام. انها تضطجع نصف ساعة ، ثم تنهض وتبدأ فى الطواف حول المكان وتنظر فى كل ركن وفى كل زاوية ، لترى ما اذا كان الفلاحون قد سرقوا شيئا او احرقوا شيئا . انها تخيفنى ، يا ايليا ماكارتش! ومن المعروف ان آل خريمين الصغار لم يذهبوا الى فراشهم بعد انتهاء حفل الزواج، بل ذهبوا مباشرة الى محاكم المدينة . والناس جميعا يقررون أن اكسينيا هى السبب فى كل هذا . وذلك ان اخوين من الاخوة الثلاثة قد وعدا اكسينيا ببناء مصنع لها ، ولم يرض الاخ الثالث عن ذلك ، وكانت النتيجة ان توقفت مصانعهم عن العمل ما يقرب من شهر ، واضطر عمى بروخور أن يتعطل عن العمل ويتسول كسرة الخبز أمام الابواب . وقد قلت له : « لماذا لا تذهب للعمل فى الحقول او لنشر الخشب بدلا من النزول الى هذا الدرك . ولكنه كان يجيبنى دائما بقوله : « لقد نسيت كيف اعمل كفلاح شريف. لم اعد أستطيع العمل فى الحقول يا ليبا » .

توقفا تحت شجرة من اشجار الحور حيث جلسا يستريحان ولكى يدعا لبراسكوفيا فرصة اللحاق بهما . وكان بيليساروف قد ظل يشتغل بالمقاولات زمنا طويلا، ولكنه لم يكن يملك جوادا، فكان مضطرا الى جوب الاقليم كله على قدميه ، حاملا على كتفه كيسا يضع فيه بعض الخبز والبصل ، وكان يرى وهو يمد الخطا تاركا ذراعيه تتأرجحان بجانبه ، ولذلك لم يكن من اليسير متابعته.

وكان هناك على حافة الغابة الصغيرة حجر مما تعلم به الاميال فاخذ بيليساروف يجسه بيده ، ليرى ما اذا كان من القوة والصلابة بالدرجة التى يبدو عليها . وبعد لحظة لحقت بهما براسكوفيا ، وهى تلهث من الجهد . ولكن وجهها كان يطفح بالسعادة والاشراق ، بعد أن كان مثال البؤس والفزع الدائمين : ذلك انها ذهبت الى الكنيسة كغيرها من الناس ، ثم أنطلقت بعد ذلك الى السوق لكى تحتسى كوبا من خمير الكمثرى . ولم يكن مثل هذا الحدث كثير الوقوع فى حياتها ، ولذلك كانت تشعر بأن هذا هو اليوم الوحيد فى حياتها الذى ذاقت فيه طعم السعادة .
وبعد ان اخذت قسطها من الراحة نهض الثلاثة يواصلون السير جنبا لجنب . وكانت الشمس تؤذن بالغروب ، وأشعتها الخافتة تخترق الغابة فتلقى شيئا من الضوء على جذوع الشجر . وفجاة سمعت الجماعة أصواتا تنبعث من مكان ما امامهم ، ثم اكتشفوا انها اصوات فتيات من اكليبغو كن قد توغلن فى الغابة ، ولعلهن كن يبحثن عن فطر عش الغراب .

وعندئذ صاح بيليساروف : « اهيه ، أيتها الفتيات ! هيه ، يا آنساتى الساحرات ! » .

فردت الفتيات على صياحه بقهقهة عالية ، واخذن يصحن بدورهن :

« السمار مقبل ! السمار ! الهرم العتيق ! » .

وكذلك قهقه الصدى . وفى هذه الاثناء كانوا قد تجاوزوا الغابة وخلفوها وراء ظهورهم ، وبدات امامهم رءوس المداخن وصليب المنارة يلمع تحت آخر شعاع من اشعة الشمس : هذه هى القرية. المكان الذى اكل فيه الحانوتى الكافيار كله فى مأدبة الجنازة . لقد اصبحوا على وشك الوصول الى بيوتهم ، اذ لم يبق عليهم الا ان ينزلوا الى المنخفض الكبير. ولما كانت ليبا وبراسكوفيا تسيران حافيتى القدمين ، فقد جلستا ريثما تلبسان حذاءيهما ، وجلس المقاول بجانبهما على العشب . وكانت القرية بما فيها من اشجار الصفصاف والنهر الصغير الذى يخترقها والكنيسة البيضاء تبدو من اعلى جميلة جذابة وديعة ، لولا اسقف المصانع التى طليت باللون الاسود من باب الاقتصاد فشوهت من هذا الجمال . وفى السفح المقابل من المنخفض كان يرى الشوفان اكواما وحزما ، كما

لو كانت العاصفة قد جرفته . أو فى صفوف مرصوصة رصا محكما وكذلك كان نبات القرطم فى أوج نضجه وكانت ثماره تلمع كاللآلىء تحت اشعة الشمس الاخيرة . فموسم الحصاد كان على اشده فى ذلك الحين . وكان اليوم يوم عطلة . أما فى الغد فكان عليهم أن يجمعوا أعواد الشوفان ويرصوا الدريس . ولكن اليوم التالى كان يوم احد . اى يوم عطلة ايضا . وفى كل يوم كانت العواصف تهب فى مكان ما . وكان الهواء خانقا كما لو كانت السماء على وشك الامطار . وكانوا كلما نظروا فيما حولهم قال كل منهم فى نفسه : « آه . لو ان الحصاد تم فى موعده ! » وكانت قلوب الجميع تجيش بالمرح وتفيض بالحبور .

وقالت براسكوفيا : « ان عمال العلف سيجنون مالا كثيرا فى هذا العام . ان يومية الواحد منهم تبلغ روبلا واربعين كوبكا ! »

وفى هذه الاثناء كلها كان الناس يتقاطرون راجعين من سوق قازانسكوى ، من نساء ، وعمال مصانع بقلنسواتهم الجديدة . ومتسولين واطفال ... ومرت عربة فلاح تحيط بها سحب من الغبار . ويتبعها حصان يشمخ براسه الى السماء . أخفق أصحابه فى بيعه فبدا كأنه مسرور بانه لم يبع . ثم رايت بقرة جامحة يقودها صاحبها من قرنيها ، وجاءت امرأة عجوز كانت تقود بيدها غلاما صغيرا يضع على راسه قلنسوة ضخمة ويتنعل حذاء ذا رقبة عالية جدا ، ويبدو عليه الاجهاد بسبب الحرارة وثقل الحذاء الذى كان يعوق ركبتيه عن الحركة ، ولكنه بالرغم من ذلك كله كان لا يكف عن النفخ بكل قواه فى مزمار بيده ، وقد ظلت الجماعة الصغيرة تسمع زمره حتى بعد أن وصلوا أسفل المنحدر ، وبدءوا السير فى شوارع القرية .

وهنا انفجرت شفتا بيليساروف ليقول : « يبدو ان ملاك المصانع فى قريتنا أصابهم عارض ما . وقانا الله شرهم ! فان كبتيوكوف غاضب على . وقد قال لى : « لقد استخدمت من الواح الخشب فى تغطية الافاريز اكثر من اللازم » . فسألته : « اكثر من اللازم؟ انى لم استخدم الا الكمية الضرورية ، يا فاسيلى راتيلتش ، وأنت تعلم انى لا آكل الالواح الخشبية مع عصيدتى » . ورد على : « أنك قد نسيت نفسك ! ألا تذكر انى انا الذى جعلت منك مقاولا ؟ » . فقلت : « ها ! وما معنى ذلك ؟ لقد كنت أشرب شايى

كل يوم قبل أن أصبح مقاولا ، أليس كذلك ؟ » . فأجاب « انكم عصابة من الخطافين . » . وحينئذ فضلت الصمت ، وقلت فى نفسى : أذا كنا خطافين فى هذا العالم ، فانهم ــ ولاشك ، سيكونون من الخطافين فى العالم الآخر . ولكن لم يصبح صباح الغد حتى كان قد كبح جماح نفسه . فجاءني يقول : « أرجو الا تكون غاضبا مما قلته لك ، ياماكارتش ، فلم يكن ينبغي لي ان أقول ذلك . ولكنك تعلم انى من تجار الدرجة الاولى ، وانى أسمو عليك ويجب عليك ان تتحمل منى » . واجبته بقولي : « نعم انك تاجر من الدرجة الاولى . وانا لست الا نجارا . ولكن القديس يوسف كان نجارا ايضا . فالنجارة مهنة سامية . مهنة فضلها الله على سائر المهن . فاذا رايت أن تعتبر نفسك اسمى منى ، فاهلا وسهلا ، يافاسيلى رانيلنش . » وبعد أن انتهينا من هذا الحديث اخذت اقول فى نفسى : « ايهما ارفع من الآخر ؟ تاجر الدرجة الاولى أم النجار ؟ النجار . ايها الاطفال . لاشك انه النجار » .

وفكر « المسمار » لحظة ثم أضاف قائلا :

« نعم . يا اطفالى . ان من يكد ويكدح هو الارفع . »

وكانت الشمس قد غربت وتعلقت طبقة من الضباب الابيض الكثيف فوق البهو وفناء الكنيسة والفسحات التى بين المصانع . وهكذا انقشع النور . وعم الظلام . الا من بعض الانوار المتفرقة فى بطن المنخفض . وبدا الظلام وكأنه قبة تخفى تحتها هوة لا قرار لها . ولعل ليبا وأمها اللتين ولدتا فى المتربة ، ورضيتا أن تعيشا كل ايامهما فى المتربة . وان تعطيا للآخرين كل شيء ما عدا نفسيهما الغريبتين المتواضعتين . لعلهما قد شعرتا فى هذا الجو الرهيب انهما هما الاخريان تعتبران شيئا له قيمته فى هذا الكون العجيب . وفى سلسلة الكائنات الحية اللانهائية . وانهما ساميتان : وظلتا فى مكانهما تستمتعان بالجلوس فى قمة المنحدر وتبتسمان ابتسامة الرضا والانشراح ، وقد نسيتا للحظة قصيرة ، أن عليهما أن ينزلا الى بطن المنخفض أن عاجلا وان آجلا .

واخيرا عادتا الى المنزل . وكان عمال العلف يجلسون على الارض امام الدكان بالقرب من باب البيت الخارجى . ولم يكن من عادة فلاحى اكليبفو أن يعملوا بالأجر لدى آل تسيبوكين الذين كانوا

يضطرون الى استئجار عمال من القرى الاخرى . وقد بدأ الجالسون في الضوء الخافت وكأنهم جميعا من ذوى اللحى السوداء . وكان الدكان مفتوح الباب والرجل الاصم جالسا بداخله يلعب الاقداح مع احد الصبيان . اما عمال العلف فكانوا يغنون بأصوات خافتة لاتكاد تسمع، ثم يصيحون من حين لحين باعلى اصواتهم مطالبين بأجورهم عن اليوم السابق ، ولكن دون ان يعطوا شيئا مخافة أن يرحلوا قبل الصباح . وتحت شجرة السندر التى تنمو أمام المنزل جلس تسيبوكين الهرم يتناول الشاى مع اكسينيا ، وقد وضعا على المنضدة التى أمامهما مصباحا خافتا .

وانطلق احد العمال يغني بصوت كريه أمام الباب الخارجى : « يا ابانا الهرم ! اعطنا نصفنا ، نصفا فقط ! يا أبانا الهرم ! » .

وتبعت ذلك نوبة من القهقهة ، ثم بدأ الغناء الخافت الذى لا يكاد يسمع من جديد ... وجلس المسمار أمام المنضدة لكى ينال شيئا من الشاى .

ولم يلبث أن شرع يتكلم عن رحلته قائلا : « ذهبنا الى المولد ، وكان الجو صحوا ، ايها الاطفال ، صحوا جدا ، والحمد لله.ولكن حدث حادث مؤسف . فقد ذهب ساشا الحداد لشراء شىء من التبغ ، وناول التاجر قطعة من ذات نصف الروبل . وظهر أنها مزيفة » . « وكان المسمار يتلفت حوله وهو يتكلم ، ويحاول أن يتكلم همسا ، ولكن الحاضرين جميعا كانوا يسمعون ما يقول بصوته الأجش شبه المختنق » ثم كرر : « وظهر أنها مزيفة . وسأل الحداد : من اين حصلت عليها ؟ فقال : ان أنيسيم تسيبوكين اعطانى اياها فى حفل زواجه ... فدعوا عسكرى البوليس الذى ذهب للقبض عليه ... احترس ، يابتروفتش ، وحاول الا يبدو عليك أى اضطراب، لأن الناس لايكفون عن الثرثرة ، كما تعرف...» .

ومرة اخرى انبعث الصوت الكريه نفسه من ناحية الباب الخارجي يقول : « يا ابانا الهرم ! يا أبانا الهرم ! » .

ثم خيم السكون .

وراح المسمار يتمتم بصوت سريع : « آه ، ايها الاطفال ، ايها الاطفال ... » ثم نهض واقفا ، وكان يبدو عليه الاعياء والنوم ، ولكنه لم ينس أن يقول : « شكرا من أجل الشاى والسكر ،

يا اطفالي . لقد حان الوقت للذهاب الى الفراش . وقد بلي جسمي واندثرت عظامي ! » .

وقال قبل أن يغادر المكان :

« اعني انه قد حان الوقت للذهاب الى القبر ! » ثم تنهد ، ومضى لحال سبيله . أما تسيبوكين الهرم فلم يكمل كوب شايه ، بل جلس مفكرا مهموما ، وكان يبدو كأنه لايزال ينصت الى وقع أقدام العجوز ، بالرغم من انه كان قد ابتعد ، وتلاشى صوت خطاه تماما .

وادركت اكسينيا ما يدور فى خلد حميها فقالت : « لابد ان يكون ساشا الحداد كاذبا » .

وذهب تسيبوكين الى البيت ، ثم عاد بعد دقائق يحمل صرة فى يده . وافرغ ما فيها على المنضدة فبدت الروبلات الجديدة تلمع كالبرق فتناول منها قطعة ، ووضعها بين أسنانه ، ثم قرعها فوق الصينية ، ووضعها فى مكانها ثم تناول أخرى غيرها وقرعها أيضا فوق الصينية ...

وبعد ذلك نظر الى اكسينيا فى نوع من الذهول ، ثم قال : « هذه النقود زائفة . وهى النقود .. النقود التى أحضرها اينسيم معه ، وأهداها الينا . » ثم اضاف هامسا وهو يجمع القطع بين يديه : « ها هى ذى ، فخذيها يا ابنتى ، خذيها والقيها فى البئر ... فليس هناك من يحتاج اليها . وحاذرى ، بوجه خاص ، أن تفلت من لسانك أية كلمة . فقد تحدث بعض التحريات ... ابعدى السموار ، واطفئى المصباح » .

وجلست ليبا وبراسكوفيا فى مخزن التبن تشاهدان الاضواء تنطفىء الواحد بعد الآخر حتى لم يبق منها الا ذلك الضوء ذو اللونين الاحمر والازرق فى شباك فرفارا بالطابق الثانى ، والمنبعث من المصابيح التى تعودت أن توقدها امام الايقونات ، وكان هذا الضوء يثير فى نفسيهما شعورا بالسلام والانشراح والبراءة . والواقع ان براسكوفيا لم تستطع حتى الآن أن تعود نفسها على فكرة ان ابنتها قد تزوجت من رجل ثرى ، فكانت اذا جاءت لزيارتها دخلت المنزل على استحياء واكتفت بالنوم فى مدخله وعلى وجهها ابتسامة بلهاء ، وكانوا يبعثون اليها بقليل من الشاى والسكر . وكذلك ليبا لم تعتد هى الاخرى على هذا الأمر ، فبعد ان سافر زوجها امتنعت عن النوم فى فراشها ، وراحت تلقى بجسمها فى أى مكان آخر

كالمطبخ أو المخزن ، لم تستيقظ مبكرة لمسح الارض وغسل الملابس وفي ذهنها انها ما زالت عاملة اجيرة . وبعد أن عادت من زيارتها في هذه المرة ايضا ، ذهبت هي ووالدتها الى المخزن حيث اضطجعتا على الارض بين الحائط والعربة ، حيث كان الظلام دامسا ورائحة العفن تملأ المكان . ولم يمض وقت طويل حتى كانت الانوار قد انطفأت من حول المنزل ، وسمع الرجل الاصم يغلق الدكان بالاقفال ، والعمال يأوون الي الفناء للنوم فيه . وكان ينبعث من بيت آل خريمين الصفار صوت موسيقى تعزف على الآلة الغالية التي يملكونها .

وحينما استيقظتا على وقع اقدام شخص قادم ، وجدتا أن القمر قد اشرق وانتشر نوره في كل الارجاء . وكانت اكسينيا تقف على عتبة المخزن وبين ذراعيها ملاءات سريرها .

وخطت اكسينيا الي داخل المخزن واضطجعت على عتبته تقريبا ، وهي تقول : « لابد أن يكون الجو هنا اقل حرارة . » وكان القمر يغمر كل وجهها باشعته .

ولكنها لم تستطع النوم ، بل ظلت تنفخ وتتنهد ، وتتقلب على جنبيها من شدة الحرارة . ولتنفض عنها قطع ملابسها الواحدة بعد الاخرى حتى اصبحت شبه عارية ، وبدت في ضوء القمر الساحر في اتم حالات جمالها الحيواني الرائع – وانقضى بعض الوقت ، ثم سمع وقع اقدام أخرى من جديد ، ولم تكن في هذه المرة الا اقدام الرجل الهرم الذى ظهر أمام باب المخزن في ملابسه الليلية البيضاء .

ونادى اكسينيا قائلا : « انت هنا ، يا اكسينيا ؟ » .

واجابته في شيء من الامتعاض : « نعم ، ماذا تريد ؟ » .

– « لقد طلبت اليك أن تلقي بالنقود في البئر ، فهل فعلت ؟ »

– « لم يبلغ بي الجنون الى حد ان القى بكل هذا المبلغ في الماء ! لقد اعطيتها للعمال ... » .

فقال الرجل بصوت يكشف عن الذعر والاسى : « يا الهي ! يالك من امرأة عنيدة ! اوه يا الهي ! » .

واطبق احدى يديه على الاخرى في وضع يدل على اليأس الشديد ، ثم سار بعيدا عن المخزن وهو يتمتم بكلام غير مسموع . وبعد قليل هبت اكسينيا من مضجعها ، وزفرت – زفرة طويلة تدل على الضيق ،

ثم جمعت ملابسها وغادرت المخزن .

وقالت ليبا لأمها : « لماذا زوجتني فى هذا البيت ، يا أمى ؟ » .

ـ « على كلُ شخص أن يتزوج ، يابنيتى ، ولسنا نحن الذين نتحكم فى هذا الأمر ، بل غيرنا ... » .

والواقع انهما كانتا على وشك الاستسلام لمشاعر الحزن والياس ولكنهما سرعان ما احستا بأن هناك كائنا فى السماء يرعاهما من اعلى تلك القبة الزرقاء حيث الشمس والقمر والكواكب ، ويرى كل ما يجرى فى اكيبفو ويسهر عليه . وشعرتا بانه اذا كان الشر عظيما ، فان الليل ساكن جميل ، وان الكون الذى خلقه الله لايخلو من العدل ، وانه لابد أن يسود العالم من العدل بقدر ما يسود الليل من جمال وسكون ، وأن ما على الارض كله انما ينتظر أن يغمره العدلُ كما يغمر الليل ضوء القمر .

ولما عادت الطمانينة الى نفسيهما التصقت كلٌ منهما بالاخرى ، واستغرقتا فى نوم عميق .

ـ ٦ ـ

وتواترت بعد ذلك الاخبار بأن اينسيم فى السجن بتهمة تزييف النقود وترويجها ، وتتابعت الشهور بعضها فى اثر بعض حتى انقضى اكثر من نصف عام ، وانصرم فصل الشتاء على طوله ، وبدأ الربيع ، واصبح وجود اينسيم فى السجن من الافكار العادية فى اذهان من فى المنزل والقرية جميعا ، وصار كل من يمر ليلا بالبيت او بالدكان يتذكر أن اينسيم فى السجن ، وكان الناس كلما سمعوا جرس الكنيسة يدق على احد الموتى ، تذكروا من جديد انه فى السجن ينتظر المحاكمة .

وانقضت السحب السوداء على بيت آل تسيبوكين ومن فيه ، فاصبحت حوائطه أشد دكنة من ذى قبل ، واصيب سقفه بالهدم، وابوابه الحديدية الخضراء بالعطب ، بل ان تسيبوكين الهرم نفسه اضحى اشعث الشعر مغبر الوجه على غير عادته ، فقد كف عن قص شعره وتسوية لحيته وامتلأ خداه بالزغب الاشيب ، ولم يعد يقفز الى عربته بتلك الخفة وذلك المرح اللذين عرفا عنه ، أو يقول للمتسولين : « يبعث الله !» واخذت قواه فى الانهيار ، وصارذلك

يبدو فى كل ما يتصل به ولم يعد الناس يخشون جانبه ، حتى ان رجل البوليس دخل دكانه وحرر له محضرا بالرغم من انه لم يكف عن تلقى رشوته المعتادة ، وقد استدعى الرجل الهرم الى المدينة ثلاث مرات لمحاكمته على الاتجار فى الخمور دون ترخيص . ولكن القضية كانت تؤجل فى كل مرة لعدم حضور الشهود . حتى انهارت حالة الرجل الهرم صحيا ومعنويا .

وكثيرا ما كان يذهب لزيارة ابنه فى السجن . وقد وكل محاميا للدفاع عنه . وقدم التماسات كثيرة لبعض الجهات . واشترى شارة للكنيسة . كما اهدى مامور السجن الذى احتجز فيه اينسيم كاسا من الفضة كتب عليها : « كل نفس تعرف طاقتها » ومعها ملعقة طويلة من الفضة ايضا .

وكانت فرفارا لا تنفك تكرر قولها : « ليس لنا احد يمد لنا يد العون ، لا احد مطلقا يجب علينا ان نرجو احد النبلاء فى ان يكتب للسلطات العليا ... كان يجب ان يتركوه طليقا حتى يحين يوم المحاكمة ... لماذا يضطرون الغلام لهذه الحياة المملة ؟ » .

ولاشك انها هى الاخرى كانت حزينة ، ولكنها ايضا ازدادت بدانة ونضارة ، وظلت كعادتها تشعل المصابيح أمام الايقونات ، وتشرف على سيادة النظام فى البيت ، وتقدم لزائريها مربى التفاح والجيلاتين . اما اكسينيا وزوجها الاصم فكانا يعملان فى الدكان .

وكان العمل فى المشروع الجديد قائما على قدم وساق ، وهو مشروع مصانع الطوب فى بوتيكيفو ، وكانت اكسينيا تذهب الى هناك كل يوم تقريبا فى عربتها التى كانت تقودها بنفسها ، واذا ما قابلها احد تعرفه فى الطريق اومات اليه باشارة من راسها الذى يشبه راس الثعبان فى حقول الشوفان ، وابتسمت له ابتسامتها الساذجة الغامضة .

وكانت ليبا تقضى وقتها كله فى مداعبة طفلها الذى ولدته قبيل عيد الفطر . وقد كان طفلا نحيلا ، ضئيل الجسم ، ضعيف البنية ، لا يكاد يصدق من يراه انه يستطيع الصياح والنظر فيما حوله ، وبالرغم من كل هذا ، فقد كان آله يعتبرونه كائنا بشريا ، واطلقوا عليه اسم نيكيفور .

وكانت مداعبة ليبا له تنحصر فى ان تضعه فى مهده ثم تسير نحو الباب وهناك تنحنى وتقول :

« نهارك سعيد ، بانيكيفور اينسيمنش ! » .

وبعد ذلك تقبل نحوه عدوا وتنهال عليه تقبيلا ، ثم تعود نحو الباب من جديد وتنحني وتقول :

« نهارك سعيد ، بانيكيفور اينسيمنش ! » .

وكان الطفل يرفرف بساقيه الصغيرتين الحمراوين وهو يضحك ويصيح في آن واحد ، بالضبط كما كان يفعل بيليساروف النجار .

واخيرا حدد يوم للمحاكمة ، وسافر الرجل الهرم الى المدينة قبل الموعد بخمسة ايام ، وعلم في القرية ان المحكمة استدعت بعض فلاحيها لسماع شهادتهم ، وكان من بينهم الرجل الهرم الذي كان يعمل لدى آل تسيبوكين .

وكان من المعروف أن المحاكمة قد حدد لها يوم الخميس ، ولكن يوم الاحد التالي قد انقضى دون أن يرجع الرجل الهرم أو أن يعلم أهل بيته عنه أي خبر . وقبيل الغروب من يوم الثلاثاء جلست فرفارا كعادتها منذ سافر زوجها ، أمام شباكها المفتوح تتطلع الى قدوم زوجها او الى سماع بعض أخباره . وكانت ليبا تداعب طفلها في القاعة المجاورة وتهدهده وتغني له بقولها :

« ستكبر ، وتكبر حتى تصبح رجلا ، وسنخرج ، انا وانت ، للاشتغال بالأجر لدى الآخرين ، سنعمل سويا ! سويا ! سويا ! » .

وسمعتها فرفارا . وصاحت فيها بامتعاض : « ما حاجته الى الاشتغال بالأجر . ايتها المتوهة ؟ انه سيكبر ويصبح تاجرا ! » .

وحينئذ أخذت ليبا تغني بصوت منخفض . ولكنها كانت تنسى نفسها من حين لحين . فترفع صوتها من جديد وتقول :

« ستكبر ، وتكبر ! وسنخرج للعمل سويا ! » .

وتجيبها فرفارا . وقد فرغ صبرها : « هانت ذي تعودين الى هرائك ! » .

فكفت ليبا عن الغناء ، وذهبت الى قاعة فرفارا ، حيث وقفت في مدخلها ، ونيكيفور بين ذراعيها ، وراحت تسأل :

« لماذا احبه الى هذا الحد ، يا امي ؟ لماذا احس نحوه بكل هذا الانعطاف » ثم يتهدج صوتها وتغرورق عيناها بالدموع وتقول :

« من هو ؟ وما هو ؟ انه خفيف كالريشة ، ضعيف ضئيل الجسم ، ولكني احبه واعتبره كائنا بشريا . انظري اليه ، انه لايستطيع أن يفوه بكلمة ، بأي كلمة ، ومع ذلك فانا أفهم كل ما يريد بمجرد النظر الى عينيه » .

وعادت فرفارا الى تطلعها ، ووصل الى سمعها ضجيج قطار الماء الذى وصل من توه الى المحطة . ولمعت فى خاطرها فكرة انه قد يكون هذا القطار نفسه هو الذى يقل زوجها الى بيته . ولذلك لم تسمع كلمات ليبا ولم تفهم منها شيئا ، ولم تلق بالا الى مرور الثواني والدقائق ، وانما ظلت جالسة فى مكانها ترتجف، ولكن لا من الخوف ، بل من الاستطلاع العنيف الممض . وبعد قليل سمعت ضوضاء عربة محملة بالفلاحين تمر أمام المنزل . ولم يكن هؤلاء الفلاحون الا الشهود الذين اقبلوا بقطار الماء . ولم تكد العربة تتجاوز باب الدكان حتى قفز العامل العجوز منها وهى سائرة ، وسار متجها نحو فناء المنزل . واستطاعت فرفارا أن تسمع اصوات الناس فى الفناء يقبلون عليه محيين متسائلين ، وهو يجيبهم بصوت مرتفع :

« الحرمان من الحقوق ومن الاملاك جميعا ، سيبيريا ، اشغال شاقة ست سنوات » .

وفى هذه الاثناء خرجت اكسينيا من الباب الخلفى للدكان حيث كانت تقوم ببيع شيء من البترول ، واقبلت نحو العامل وهى تحمل القارورة فى احدى يديها والمحقن فى اليد الأخرى وقطعة نقد فضية بين أسنانها ، ثم تمتمت متسائلة :

« وأين الوالد ؟ » .

واجاب العامل : « فى المحطة ، وقد قال انه لن يأتى الا بعد أن يخيم الظلام » .

وحين ذاع الخبر بأن انيسيم قد قضى عليه بالاشغال الشاقة ، اخذت الطباخة تولول فى المطبخ باعلى صوتها كما لو كان قد قضى نحبه . وذلك لاعتقادها ان اللياقة تقضى منها ذلك .

وكان مما قالته : « لماذا تفارقنا يا أينسيم جروجورتش . لماذا تفارقنا ياانسرنا اللامع ؟ » .

واستيقظت الكلاب على ضوضاء المتسائلين ، واخذت فى النباح . وسارعت فرفارا الى الشباك . ووقفت حزينة تطوح جسمها من جانب الى جانب . ثم صاحت بالطباخة بصوت حاولت أن يكون مرتجفا :

« كفى نحيبا . كفى نحيبا ياستيباناديا ! استحلفك بالمسيح الا تزعجينا بنحيبك ! » .

ولم يتذكر احد ان يضع السموار على النار ، كما لو كانوا قد أصيبوا جميعا بالذهول الا ليبا التي لم تكن لديها اية فكرة عما حدث ، فاستمرت تهدهد طفلها وتداعبه .

وحين عاد الرجل الهرم من المحطة ، لم يحاول أحد ان يوجه اليه اي سؤال . اما هو فقد القى عليهم كلمة التحية ، ثم ذهب يطوف بالحجرات في صمت . وحينما دعى الى العشاء رفض ان يتناوله .

وحينما اختلت به فرفارا قالت له : « ليس هناك أحد يمد الينا يد المساعدة ، لقد طلبت اليك أن ترجو احد النبلاء ، ولكنك لم تسمع كلامي .. كان يجب أن تقدم التماسا » .

فقال وهو يلوح بيديه في الهواء : « لقد فعلت كل ما في مقدوري أن افعله ! وقد ذهبت بعد صدور الحكم الى السيد الذى قام بالدفاع عن اينسيم ، فقال لي : ليس في مقدورك الآن أن تفعل شيئا ، فقد فات الأوان . واينسيم نفسه قال لي ايضا هذه الكلمات بنصها : لقد فات الأوان ! ومع ذلك فقد كلمت المحامي لدى مغادرتي دار المحكمة ، ونقدته مبلغا من المال تحت الحساب ... وسانتظر اسبوعا ، ثم اذهب اليه مرة اخرى اننا على اية حال تحت رحمة الله » .

وقام الرجل الهرم مرة اخرى يجول خلال الحجرات في صمت ، وحين عاد الى فرفارا قال لها :

« لابد ان اكون مريضا . ان راسي مخلخل كالضباب . ولم أعد قادرا على التفكير السليم » .

قال ذلك ثم اغلق الباب حتى لا تسمع ليبا ما يدور بينهما . وواصل كلامه قائلا :

« اني قلق بالنسبة لنقودي . اتذكرين ان اينسيم قد احضر لي تلك القطع النقدية الجديدة من ذات الروبل ونصف الروبل ، وان ذلك كان قبل الزواج مباشرة ، اى في الاسبوع التالي لعيد الفصح ؟ لقد تخلصت من جزء من هذه النقود وخلطت الجزء الباقي بنقودي ... ومما يحضر بذاكرتي انه لما كان خالي دميتري فيلاتتش (رحمه الله !) حيا ، كان من عادته أن يذهب لشراء السلع من القرم أحيانا ، ومن موسكو أحيانا اخرى ، وكانت له زوجة . وكانت من عادة هذه الزوجة ان تنتهز فرصة غياب زوجها،

كما ذكرت ، لتتصل برجال آخرين . وقد انجبا ستة اطفال وكان خالي ، اذا اسرف في الشراب بعض الشيء ، يضحك ويقول : « ليس في استطاعتي أن اعرف أيهم أولادي ، وأيهم أولاد غيري» وهكذا ترين انه كان رجلا مرحا يأخذ الأمور على علاتها . والآن اراني لا استطيع ان اعرف اي نقودي صحيحة وأيها زائفة . بل انها تبدو كلها في نظري زائفة » .

ـ « لا تقل ذلك ! استحلفك بالله الا تقول ذلك ! » .

ـ « نعم ، أراني ، اذا ذهبت مثلا الى المحطة لشراء تذكرة سفر واخرجت من كيسي ثلاثة روبلات لادفع ثمنها ، أروح أتساءل عما اذا كانت هذه النقود زائفة . فلابد أن اكون مريضا » .

فقالت فرفارا وهي تهز رأسها : « اننا جميعا تحت رحمة الله. قل في ذلك ماشئت يابتروفتش . ولكن يجب ان تعلم ان هذه هي الحقيقة ...ليس هناك اى شيء بمناى عن سطوة الاقدار . وانت لم تعد في سن الشباب . واذا دهمك الموت ، فقد تساء معاملة حفيدك . والواقع اني في قلق دائم حول مصير نيكيفور . فقد ذهب والده الى السجن ، وامه ليست الا فتاة معتوهة ... ويحسن بك ان تتنازل له ، على الاقل ، عن قطعة الارض التي في بوتيكيفو. نعم يحسن بك ان تفعل ذلك يا بتروفتش ! وواصلت فرفارا كلامها بغية اقناع الرجل الهرم ، فقالت : « فكر في ذلك جيدا ، انه طفل صغير لطيف . ومن العار ان يترك تحت رحمة الاقدار .. اذهب منذ الغد وحرر تلك الوثيقة ، والا فما فائدة التسويف ؟ » .

وقال تسيبوكين : « نعم لقد نسيت هذا الغلام ... ولم اره هذا اليوم . انه طفل لطيف . أليس كذلك ؟ نعم . نعم . لندعه يكبر . وليبارك لنا الله فيه . » .

قال ذلك ، ثم فتح الباب وأشار الى ليبا بابهامه . فجاءت تحمل الطفل بين ذراعيها .

فقال لها : « اذا احتجت الى اى شيء ، ياعزيزتي ليبا ، فما عليك الا ان تطلبيه اننا لا نرد لك طلبا . ولا نرجو الا أن تكوني على خير ما تحبين » . ثم رسم علامة الصليب على الطفل وواصل كلامه قائلا : « اعتني بحفيدي . لقد فقدت ولدي . ولكن حفيدي ما زال لدي » .

ولم يكد ينتهى من كلامه حتى كانت العبرات تسيل فوق خديه. فزفر زفرة حزينة ثم حيا ليبا وانصرف . وذهب الى فراشه حيث لم يلبث أن استغرق فى نوم عميق بعد سبع ليال قضاها فى سهاد وقلق .

- ٧ -

وذهب الرجل الهرم الى المدينة حيث قضى فيها بضعة ايام . وجاء شخص ما الى اكسينيا واخبرها انه انما ذهب لكى يرى احد الموثقين لأمور تتعلق بوصيته . وانه اوصى لحفيده نيكيفور بقطعة الارض التى كانت تستغلها لصناعة الطوب . وقد قيل لها ذلك فى الصباح حيث كان ذلك الرجل الهرم يجلس لتناول الشاى مع فرفارا أمام الباب تحت شجرة الزيزفون. فما سمعت اكسينيا هـذا الكلام حتى اغلقت بابى الدكان ، الباب الذى يطل على الشارع والباب الذى يطل على الفناء وجمعت المفاتيح التى فى حوزتها كلها والقت بها على الارض تحت قدمى الرجل الهرم .

ثم صاحت بأعلى صوتها والدموع تسيل من عينيها : « لن أشتغل لكم بعد اليوم ! اذ يبدو اننى لست زوجة أبيكم . بل مجرد خادمة ! ولذلك كثيرا ما اسمع الناس يتضاحكون ويقولون : لقد وجد آل تسيبوكين لانفسهم خادمة لطيفة ! ولكنى لم أؤجر نفسى لكم ولست متسولة . ولا مقطوعة من شجرة ، ان لى اما وأبا»

ولم تجفف اكسينيا دموعها ، بل ظلت تحملق فى وجه الرجل الهرم بعينين تسبحان فى الدموع وتتوهجان بنار الحقد والريبة ، وقد احمر وجهها وعنقها من شدة الغضب وراحت تصيح بأعلى صوتها :

« لن اعمل لكم منذ الآن ! لقد بليت ! فحينما يتعلق الامر بالعمل والجلوس فى الدكان طول النهار والسهر ليلا من اجل الفودكا ، اراكم تفكرون فى ، ولكنكم ، اذا أردتم التنازل عن قطعة من الارض لم تفكروا الا فيها ! الا فى زوجة السجين وشيطانها الصغير ! انها هنا السيدة ! انها ربة البيت ، وما أنا الا خادمة لها . هيا تنازلوا لها عن كل شىء ، تلك الحداة المفترسة . تنازلوا لها عن كل شىء ، وليكن لها حبل المشنقة الذى تشنق به ! ولكنى سارحل الى بيتى وابحثوا لكم عن معتوهة أخرى ، أيها الطغاة الملاعين ! » .

ولم يكن قد تاتى للرجل الهرم ان اساء معاملة احد اولاده او عاقبه فى يوم من ايام حياته . بل لم يكن قد توهم ان احدا من اهل هذا البيت يستطيع ان يكلمه بجفاء او يعامله بغير احترام . ولذلك لم يكد يسمع صياح زوجة ابنه حتى صعق من هول المفاجأة وسارع الى دخول البيت حيث اختبأ خلف خزانة الملابس . اما فرفارا فقد ارتج عليها واصيبت بالذهول ولم تستطع حتى مجرد النهوض من مكانها ، فبقيت حيث هى تهش بذراعيها كما لو كانت تطرد نحلة توشك أن تنقض عليها .

وراحت تتمتم بصوت مذعور : « ما هذا ، ما هذا ! الا بد لها من رفع عقيرتها الى هذا الحد؟ ان الناس سيسمعوننا ! الا تستطيع أن تهدىء من روعها بعض الشىء ... بعض الشىء فقط ! » .

وظلت اكسينيا تصيح بأعلى صوتها وتقول : « لقد تنازلتم عن بوتيكيفو لزوجة المسجون فيها ، اعطوها كل شىء ، أما أنا فلا ريد منكم شيئا ! الى الجحيم انتم وما تملكون ! انكم عصابة من اللصوص ! وقد رايت منكم ما فيه الكفاية ، وسئمت احوالكم ! ورايتكم تسرقون عابرى السبيل والمسافرين ، ايها الفجرة ، رايتكم تسرقون الشيب والشبان ! اتعرفون الفودكا دون ترخيص ؟ ومن الذى زيف النقود ؟ ان صناديقكم مفعمة بالنقود المزيفة ولذلك لم تعودوا فى حاجة الى ؟ » .

وفى هذه الاثناء تجمعت جماهير غفيرة أمام الباب الكبير المفتوح على مصراعيه ، وأخذت تنظر داخل الفناء .

وواصلت اكسينيا صياحها قائلة : « يجب ان يعرفكم الناس ! لابد ان افضحكم امامهم ! يجب ان يحرقكم الخزى والعار ! وسترون انكم ستركعون على ركبكم تحت اقدامى ! » .

ثم صاحت بالرجل الاصم : « ستيبان ! لنذهب معا الى بيتنا فى هذه الدقيقة عينها ! لنذهب الى بيت ابى وامى ! لن أعيش مع المحكوم عليهم ! احزم متاعنا ! » .

وكان هناك حبل معلق عبر الفناء وعليه بعض الملابس المغسولة

فنزعت من بينها بعض ثيابها التى كانت لا تزال مبللة ، وقذفت بها بين ذراعى الرجل الاصم . ثم أخذت تروح وتجىء فى حركة هستيرية وتنتزع كل الملابس التى على الحبل وتلقى بها فوق الارض وتدوسها بقدميها .

وتمتمت فرفارا قائلة : « أوه ، أوه ، أوقفوها ! ماذا دهاها ؟ أستحلفكم بالله ان تعطوها بوتيكيفو ! » .

واخذ الناس فى الخارج يتهامسون قائلين : « يا لها من فاجرة ! انها فاجرة ! أرأيتم قط مثل هذه الثورة العارمة ؟ » .

وهجمت اكسينيا على المطبخ حيث كانت ليبا وحدها تقوم بغسل الملابس بعد أن تركتها الطباخة لتنظيف بعض الملابس الكتانية فى النهر . وكان البخار يتصاعد من قدر الغسيل ومن طست موضوع بجانب الموقد ، والمطبخ كله ملىء بالبخار والضباب ، وكانت هناك كومة من الثياب غير المغسولة متراصة فوق الارض ، وكان نيكيفور ملقى على كرسى قريب من كومة الثياب حتى لا يضار اذا تأتى له ان يقع من فوقه ، وقد اخذ يركل الفراش بساقيه الحمراوين المعروقتين . وبينما كانت ليبا تتناول قميصا لاكسينيا من بين الكومة وتلقى به فى القدر ، فاجأتها هذه الاخيرة ومدت يدها نحو مغرفة كبيرة ملأى بالماء المغلى وموضوعة فوق المنضدة ... ثم نظرت اليها نظرة مفعمة بالحقد ، وجذبت منها القميص باليد الاخرى وهى تقول : « لايصح لأمثالك ان يمسسن ملابسى . أنك زوجة رجل محكوم عليه ، وينبغى لك ان تلزمى مكانك وتعرفى قدرك جيدا ! » .

وحملقت ليبا فى وجهها طويلا محاولة بكل جهدها أن تفهم ماذا تريد ولكنها لم تكد توجه نظرتها نحو الطفل حتى فهمت هدفها ، فجمدت اطرافها وتسمرت فى مكانها من شدة الرعب .

وصاحت اكسينيا فى وجهها قائلة : « هذا هو الذى تتخذينه ذريعة لسرقة ارضى ! » .

ولم تكد تنطق هذه الكلمات حتى تناولت المغرفة المليئة بالماء المغلى وصبت ما فيها على نيكيفور .

وعلى الأثر دوت صرخة لم يسمع مثلها قط فى اكليبفو من قبل حتى كان من الصعب على أى سامع ان يصدق ان مثل هذه الصرخة يمكن أن تصدر عن مخلوقة ضعيفة عجفاء مثل ليبا . وبعدها خيم السكون التام على الفناء . وذهبت اكسينيا الى البيت فى صمت وعلى وجهها تلك الابتسامة الغريبة البريئة ... اما الرجل الاصم الذى كان يذرع الفناء طولا وعرضا وفى يده الملابس المبللة فقد بدا يعلقها على الحبل من جديد فى سكون وصمت ، ولم يجرؤ احد من اهل المنزل على الذهاب الى المطبخ واستطلاع ما حدث الا بعد ان عادت الطباخة من النهر .

— ٨ —

ونقل نيكيفور الى مستشفى المجلس الاقليمى حيث فاضت روحه حوالى المساء . ولم تنتظر ليبا حضور أحد ، بل لفت جثة طفلها فى أحد الاغطية وتوجهت بها الى البيت .

وكان المستشفى يحتل مبنى جديدا فسيح الشبابيك ، يقع على قمة التل ، وكان فى هذه اللحظة يتوهج تحت اشعة الشمس الغاربة ، ويبدو كما لو كان شعلة من لهب وكانت القرية تمتد على مسافة ما أسفل هذا التل . فاتجهت ليبا فى الطريق المنحدر حتى وصلت الى حافة غدير خارج القرية فجلست تستريح بعض الوقت . وفى هذه الاثناء اقبلت امرأة تجر حصانا ، وعرضت عليه الماء ، ولكنه ابى أن يشرب .

ويبدو أنها دهشت لهذا الاصرار ، فقالت تسأله بصوت رحيم : « لماذا لا تشرب ؟ ماذا بك ؟ » .

وكان هناك غلام صغير يجلس مقعيا على حافة الماء ويعمل فى غسل حذاء والده . وفيما عدا هؤلاء لم يكن يبدو فى المكان اى كائن حى ، لا فى القرية ولا فوق التل .

وقالت ليبا وهى تنظر الى الحصان : « انه لايريد ان يشرب » .

وبعد ذلك ذهبت المرأة بحصانها والغلام بحذائه ، ولم يبق احد على الافق كله . وكانت الشمس قد اختفت تحت غطائها الذهبى القرمزى العريض ، وانتشرت السحب الارجوانية فى السماء كما لو كانت تشيع الشمس الى مخدعها . وفجأة انطلق بالنعيق من مكان ما احد الطيور الجارحة ، وقد بدا صوته مدويا حزينا له زئير كخوار البقرة المحبوسة فى حظيرتها . وكان نعيق هذا الطائر الغامض يسمع كل ربيع ، دون ان يعرف أحد اى نوع من انواع الطيور هو ولا اين يعيش . وانبعثت تغاريد البلابل من كل مكان فوق التل وحول المستشفى وفى الخمائل المحيطة بالغدير وفى الجانب الآخر من القرية وفوق الحقول جميعها . وبدأ الهدهد يصيح كأنه يحاول أن يخبر أحد النـاس بسنه ثم يخطىء فى الحساب فيبدأ من جديد . وراحت الضفادع تتصايح فى الغدير وتنادى بعضها بعضا بصوتها الأجش المختنق . وكان السامع يسمعها تقول : « اى تى ناكافا . اى تى ناكافا »(١) » !

وهكذا اخذ الصخب يبعث من كل مكان الى حد انه كان يخيل للمرء أن هذه المخلوقات تصيح وتغنى لغاية مقصودة . وهى الفرار من النوم فى هذه الليلة من ليالى الربيع ، ولكى تستمتع جميعها ، حتى تلك الضفادع المنحرفة المزاج ، بكل لحظة من لحظاتها اليست الحقيقة اننا لا نعيش الا مرة واحدة ؟..

واشرق الهلال الفضى فى السماء التى كانت قد رصعت بالكواكب . ولم تكن فى ذهن ليبا اية فكرة عن طول المدة التى قضتها فى الجلوس بجانب الغدير . ولكنها لاحظت بعد أن نهضت من مكانها وشرعت فى المسير ان كل شخص فى القرية قد آوى الى فراشه وان الاضواء كلها قد اطفئت وكان لايزال بينهـا وبين اكلييفو نحو اثنى عشر فرسخا . ولكنها كانت على درجة من الضعف تحول بينها وبين التفكير فى الاهتداء الى الطريق القويم . فكانت ترى القمر الآن يضىء امامها تارة وعن يمينها تارة وعن يسارها تارة أخرى . وتسمع

(١) عبارة روسية معناها : بالضبط انت سيىء الحال الى هذا الحد

الهدهد يناديها بصوته الحاد وكأنه يضحك منها ويسخر من حالها ويقول : « لقد ضللت طريقك ! لقد ضللت طريقك ! » وظلت تسير وتسير بخطا واسعة وهي شاردة اللب . حتى انها لم تتبين انها فقدت منديل راسها ... وراحت تحملق في السماء وتتساءل : اين روح ابنها الصغير الآن ـ اهي، ياترى، تسير معها وتترسم خطاها. ام انها راحت تحملق في السماء العليا بين الكواكب ، وقد نسيت كل شيء عن امها ! آه ، ما اشد الوحدة التي تشعر بها في الحقول ليلا حين تسمع الغناء من كل جانب وانت لا تستطيع الغناء . وتقرع اذنيك صيحات المرح تلاحقك في كل مكان وانت نفسك لا تستطيع أن تمرح . وحين ترى القمر يطل من السماء وحيدا مثلك دون أن يبالي بما اذا كان الفصل ربيعا أم شتاء . وبما اذا كان الناس احياء أم أمواتا .. فمن الأليم ان يظل المرء وحده اذا كان قلبه مثقلا بالاحزان . ولو ان ليبا في هذه اللحظة مع امها او مع المسمار أو مع اى انسان آخر ربما خف عنها وقع المصيبة بعض الشيء .

استمر الطائر الجارح في نعيقه : « بو ! بوهو ! »

وفجاة استطاعت ليبا ان تميز صوت رجل يقول :

« هيا ، يافافيلا ، علق الحصان ! » .

ورات امامها على بعد خطوات منها نارا خبا اوارها ولم يبق منها الا وميض يلمع بجانب الطريق . وسمعت ضوضاء خيل تلوك بعض الطعام في افواهها . واستطاعت عيناها في الظلام أن تميز صورة عربتين . احداهما فوقها دن كبير . والاخرى وهي أقل منها ارتفاعا ، محملة ببعض الاكياس . ولمحت شبح رجلين . أحدهما يمسك في يده حصانا ويتجه به نحو احدى العربتين ، والآخر يقف أمام النار دون حراك وقد وضع يديه خلف ظهره . وكان هناك كلب يزمجر في مكان ما بالقرب من العربتين . وفجاة توقف الرجل الذي يقود الحصان وقال :

« هناك شخص ما ينحدر مقبلا نحونا » .

وصاح الرجل الآخر بالكلب قائلا : « اهدأ ، ياشريك ! » .
وكان صوته ينبيء بأنه رجل هرم . وما ان سمعت ليبا هذه الاصوات حتى توقفت فى مكانها ، وقالت :

« كان الله معكم ! »

فاقترب منها الرجل الهرم ، دون ان ينبس بكلمة باديء ذى بدىء ، ثم قال :

« أسعد الله مساءك ! »

وردت عليه ليبا التحية ، ثم قالت :

« الا يمكن أن يعضنى كلبكم ، ياوالدى ؟ »

وأجاب الرجل : « كلا ، كلا ، تستطيعين المرور . انه لن يمسسك بسوء » .

فقالت ليبا بعد فترة صمت : « كنت فى المستشفى ، حيث مات ولدى الصغير . وهاأنذا احمل جثمانه الى البيت » .

ويبدو ان الرجل الهرم قد ارتاع لما سمعه منها ، لانه سارع يتركها وهو يقول :

« لاتجزعى ، ياعزيزتى . هذه ارادة الله » . ثم التفت الى صاحبه وصاح به قائلا :

« هيا ، يا غلام أسرع ، الا يمكنك أن تسرع ؟ » .

فأجاب الغلام : « قوسك غير موجود هنا . لم أستطع العثور عليه » .

فقال الرجل الهرم : « انك غلام لا نفع فيك ، يافافيلا ! »

والتقط الرجل الهرم قطعة فحم ملتهبة من فوق الارض ونفخ فيها حتى اضاءت عينيه وأنفه : وبعد أن وجدوا القوس اقبل بها فى يده نحو ليبا ! ثم نظر فى وجهها ، وكانت نظرته تنم عن الحنان والشفقة . وقال :

« انك أم . وكل أم تحب طفلها » .

قال ذلك ، ثم تنهد وهز رأسه . وألقى فافيلا بشيء ما على النار ، ثم داس عليها بقدمه ، وفى الحال ساد المكان ظلام دامس ،

وتعثرت الرؤية من جديد فلم يبق هناك امام البصر الا الحقول الممتدة الشاسعة والسماء المرصعة بالنجوم وصياح الطيور الذى حال بينها وبين النوم حتى الآن ، وظل طنين الفراش الذى كان قد تجمع حول النار يدوى فى المكان .

ولكن لم تمض دقيقة او دقيقتان حتى اصبح فى مقدور البصر ان يميز العربتين والرجل الهرم وفافيلا النحيل من جديد. واخذت عجلات العربتين تقرقع . وهما تجران الى الطريق العام .

وسألت ليبا الرجل الهرم قائلة : « اانتما قديسان ؟ »

ـ « كلا . اننا نقطن فيرسانوفو . »

ـ « كلما نظرت الى شعر قلبى بالانطلاق . اما الغلام الذى معك فانه مثال الوداعة والهدوء . لذلك ظننت فى نفسى انكما قديسان. »

ـ « الى اين تذهبين ؟ »

ـ « الى اكلييفو » .

ـ « اركبى معنا ، وفى وسعنا أن نتركك بالقرب من كوزمنكى ومن ثم يمكنك ان تواصلى الطريق مباشرة ، اما نحن فسنعرج الى اليسار . »

وركب فافيلا العربة التى عليها البرميل ، وركب الرجل الهرم العربة الاخرى ومعه ليبا . وسار الركب فى طريقه ببطء ، وكانت عربة فافيلا هى التى تتولى القيادة .

وقالت ليبا : « لقد ظل ولدى طول النهار يقاسى أمر الآلام. وكان ينظر الى بعينيه العزيزتين نظرة كلها عطف وحنان ، كما لو كان يود أن يقول لى شيئا ، ولكنه لايستطيع . رحماك يارب ! رحماك يا أم الاله المقدسة ! وكثيرا ما كنت أسقط على الارض من شدة الحزن ، فحيث كنت اقف بجوار فراشه لا افادره دقيقة واحدة . خبرنى ياوالدى ، لماذا يكتب على طفل صغير ان يعانى كل هذا الألم قبل موته ؟ نعم ، ان الآلام تغسل ذنوب الكبار، سواء أكانوا رجالا أم نساء ، ولكن لماذا يتألم طفل صغير لم يرتكب الما ؟ لماذا ؟ »

وأجاب الرجل الهرم : « ومن يدري ؟ »

وواصل الركب سيره في صمت لمدة نصف ساعة ، ثم قال الرجل الهرم :

« ليس في مقدور أحد ان يعرف الغايات والاهداف جميعها . فالطائر له جناحان وليس اربعة أجنحة ، لأن الجناحين يكفيانه لكي يطير ، ولكن لم يتح للانسان أن يعرف كل ما يمكن أن يعرف ، وانما اتيح له ان يعرف نصفه أو ربعه فحسب . ذلك انه لايعرف الا ما يساعده في حياته » .

وقالت ليبا : « أعتقد اني أشعر ببعض الراحة لو سرت على قدمي ، ياوالدي ، فان هزات العربة تهز قلبي هزا » .

فأجاب الرجل : « لا تبتئسي ، ابقي حيث أنت » .

واخذ يتمتم ويرسم على فمه علامة الصليب .

ثم راح يكرر : « لا تبتئسي . فان حزنك هذا ليس الا نصف حزن والحياة طويلة ولايزال فيها خير وشر » . واخذ يتلفت فيما حوله ، ويقول متعجبا : « اوه ! ما اكبر روسيا ، أمنا ! لقد جبت روسيا كلها من اقصاها الى اقصاها ، ورأيت كل ما يمكن ان يرى فيها ، ولذا تستطيعين أن تصدقيني ، ياعزيزتي ، حين اقول لك انه لايزال امامك في الحياة خير وشر . فقد قطعت طريق سيبريا كله على قدمي ، وذهبت حتى نهر آمور وجبال التاي ، واقمت في سيبريا ، واشتغلت فيها بفلاحة الارض ، ثم شعرت بالحنين نحو أمنا روسيا فعدت الى قريتي . عدت اليها سيرا على القدم . واتذكر اني كنت في ذات مرة أعبر احد الانهار في قارب وكنت نحيلا عاري الجسم حافي القدمين اكاد اتجمد من البرد واحاول قضم كسرة من الخبز ولمحني سيد مبجل كان يعبر النهر على القارب نفسه رحمه الله اذا كان قد مات ، فنظر الى الرجل باشفاق وسالت الدموع من عينيه ، ثم قال : « خبزك أسود ، وحياتك سوداء » . وحين رجعت الى قريتي لم يكن لي فيها عيش ولا بيت ، كما يقولون ، ولم تكن لي زوجة اذ كنت قد تركتها في سيبيريا ، في

القبر . واخذت اشتغل لدى الآخرين بالاجر اليومى . فماذا تظنين؟ بعد ذلك كان هناك خير كما كان هناك شر . والآن لا أرانى أرغب فى الموت ياعزيزتى بل أود ان احيا عشرين سنة اخرى . وهكذا لابد أن يكون ما رأيته من خير يرجح ما لقيته من شر . آه ، ولكن ما اكبر روسيا ، أمنا.» ثم راح ينظر ذات اليمين وذات الشمال ويتلفت خلفه .

وقالت ليبا : « والدى ! اذا مات شخص فكم من الايام تظل روحه تسير على وجه الارض ؟ »

ــ « من يدرى ؟ انتظرى حتى اسأل فافيلا ، فقد كان فى المدرسة . انهم فى ايامنا هذه يعلمونهم كل شىء ــ فافيلا ! »

ــ « دوهين ؟ »

ــ « اذا مات شخص ما ، يافافيلا ، فكم من الايام تظل روحه تضرب فى فجاج الارض ؟ »

وأوقف فافيلا حصانه قبل أن يجيب ، ثم قال :

« تسعة ايام . ولكن حين مات عمى كيريلا بقيت روحه فى الكوخ ثلاثة عشر يوما . »

ــ « كيف عرفت ذلك ؟ »

ــ « لقد ظل الصرير ينبعث من الموقد طوال ثلاثة عشر يوما » .

وقال الرجل الهرم : « حسن جدا . استأنف سيرك » . وكان يبدو فى نبرات صوته انه لم يصدق كلمة واحدة مما قاله فافيلا.

وبالقرب من كوزمنكى عرجت العربتان الى الطريق العام ، ونزلت ليبا لتواصل سيرها على قدميها . وكان نور الصباح قد بدأ فى البزوغ ولكنها حين اخذت تنزل المنحدر المؤدى الى الوادى . لم تستطع ان ترى كنيسة اكلييفو ولا اكواخها لأن الضباب كان يغطيها . وكان الجو بارداً ، وقد خيل اليها ان الهدهد نفسه لايزال يواصل نداءه .

ولما وصلت ليبا الى البيت لم تكن الماشية قد خرجت للرعى بعد وكان الناس جميعا يغطون فى النوم فجلست تنتظر على عتبة الباب

الكبير وكان الرجل الهرم أول من خرج اليها ، ولم يكد يراها حتى فهم كل شيء . فبقى فترة من الزمن لا يستطيع النطق ، وظل واقفا فى مكانه يتمتم بالفاظ غير مسموعة .

واخيرا قال : « آه يا ليبـــا ، انك لم تستطيعى أن تعتنى بحفيدى ... »

وهبت فرفارا من نومها . ومدت يدها نحو وجهها وانفجرت بالبكاء ، ثم اخذت تضع الطفل الميت فى نعشه .

وكانت فى هذه الاثناء لا تفتأ تكرر قولها : « كان طفلا صغيرا حلوا ... لم يكن لك الا طفل واحد ، ولم تستطيعى المحافظة عليه ، أيتها المعتوهة . »

واقيمت الطقوس الجنائزية من الصباح الى المساء . ودفن الطفل فى اليوم التالى . وبعد الجنازة انقض الضيوف ورجال الدين على الطعام بشره حتى كان يخيل لمن يراهم انهم لم يذوقوا طعم الغذاء منذ أيام وايام وقامت ليبا بخدمة الجالسين على المائدة فكان القس يرفع اليها راسه من حين لحين ، وفى يده الشوكة وفى طرفها قطعة من الفطائر الملحة ثم يقول :

« لا تحزنى على طفلك . لأن مملكة السماء لا توهب الا من اجل امثاله » .

ولم تدرك ليبا تمام الادراك أن نيكيفور قد ذهب وانه لن يعود قط ، الا بعد انصراف المدعوين ، وحينئذ أخذت فى البكاء . ولم تعرف فى أى غرفة تنام ، لأنها شعرت بانه لم يعد لها مكان فى هذا البيت منذ ان مات وليدها ، وانه لم يبق لها ما يربطها به ، وانها غير مرغوب فى بقائها ، وكان الجميع يشعرون نحوها بهذا الشعور .

وفجاة ظهرت امامها اكسينيا التى كانت قد ارتدت ملابس جديدة وغطت وجهها بالمساحيق بمناسبة الجنازة ، ثم صاحت بها قائلة : « لماذا هذا العويل ؟ كفى ! » .

وحاولت ليبا أن تتوقف عن البكاء بالفعل ، ولكن ذلك لم يزد

اكسينيا الا صياحاً فراحت تضرب الأرض برجلها وتصرخ :

« الا تسمعينني ؟ الى من تظنين انى أوجه كلامى ، اخرجى من هنا واياك أن ترينا وجهك مرة ثانية ، ايتها الحقيرة ! اخرجى!».

فتحرك الرجل الهرم من مكانه ، واخذ يقول بكل لطف : «هيا ، هيا ياعزيزتى اكسينيا ... من الطبيعى أن تبكى ، فقد مات طفلها ... » .

فأخذت تكرر كلماته فى تهكم ، وتقول : « من الطبيعى ، من الطبيعى انها تستطيع أن تبيت هنا هذه الليلة ، ولكن عليها أن تحزم متاعها وترحل منذ الغد ! » وعادت تكرر من جديد : « من الطبيعى » ثم ضحكت وعادت أدراجها الى الدكان .

وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى خرجت ليبا عائدة الى ترجيبفو ، الى أمها .

– ٩ –

والآن أعيد دهان سقف الدكان وبابه الحديدى . وأصبحا يلمعان كما لو كانا جديدين . وأصبحت الازهار تنمو فى الشبابيك كسابق عهدها ونسى الناس او كادوا ينسون كل ما حدث لآل تسيبوكين منذ ثلاث سنوات .

لايزال الرجل الهرم ، جريجورى بتروفتش ، يعتبر رب البيت. ولكن الحقيقة أن كل شىء قد انتقل الى يد اكسينيا ، فهى التى تشترى وتبيع ولا يمكن لأمر أن يبرم دون موافقتها . وصناعة الطوب تسير على ما يرام . فقد أصبح ثمن الالف منه اربعة وثلاثين روبلا ، وذلك لشدة الاحتياج اليه من أجل السكك الحديدية . فترى الفتيات والنساء يشتغلن طوال النهار فى حمله الى المحطة ووضعه فوق العربات فى مقابل خمسة وثلاثين كوبكا فى اليوم .

وقد شاركت اكسينيا آل خريمين فى مصانعهم ، التى أصبح اسمها « مصانع آل خريمين الصغار وشركاهم » . وقد افتتحت

حانة أمام المحطة ، واصبحت آلة الموسيقى القيمة تسمع فى هذه الحانة بعد ان كانت تسمع فى المصانع ، وكان ممن يترددون على هذه الحانة وكيل مكتب البريد الذى انشأ له ، هو الآخر، تجارة لحسابه الخاص ، وكذلك يفعل ناظر المحطة . وقد أهدى آل‌خريمين الصفار الى الرجل الاصم ساعة ذهبية ومنذ ذلك الحين لا يكاد يرى الا وقد أخرجها من جيبه ووضعها أمام اذنه .

ويقال فى القرية ان اكسينيا اضحت ذات سلطان عظيم ، ولابد ان يكون ذلك صحيحا ، اذ لو رايتها وهى ذاهبة فى عربتها الى مصانع الطوب فى الصباح ، وعلى وجهها تلك الابتسامة البريئة ، ومخايل العز والسعادة تشع من‌كل‌كيانها ، وقد اخذت تصدر الاوامر والنواهى، لو رايتها فى هذه الحال لم يسعك الا أن تشعر بجبروتها . واصبح الناس جميعا يخشون بأسها ، سواء أكان ذلك فى البيت أم فى القرية أم فى المصنع واذا تأتى لها أن تدخل مكتب البريد ، قفز وكيل المكتب من مكانه وهو يقول :

« اجلسى يا اكسينيا ابراموفنا . تفضلى بالجلوس ! » .

وذات يوم كانت اكسينيا تشترى حصانا من رجل من الاعيان متوسط العمر انيق الهندام يلبس ثيابا ثمينة ويحتذى نعلين من الجلد اللامع . فسحر الرجل بمعسول حديثها حتى انه باعها الحصان بالثمن الذى قدرته هى نفسها . وقد احتفظ بيدها فى يده مدة طويلة ، وهو يحملق فى عينيها المرحتين البريئتين ، ثم قال :

« انا منى استعداد لفعل اى شىء فى العالم من أجل امرأة مثلك يا اكسينيا ابراموفنا . ولكن اخبرينى : متى نستطيع ان نلتقى دون أن يعكر صفونا أحد ! » .

فأجابت : « متى تشاء ! » .

ومنذ ذلك الحين اصبح الرجل متوسط العمر لا يترك يوما دون ان يحضر فى عربته الى الدكان لكى يحتسى شيئا من البيرة . والحقيقة ان هذه البيرة رديئة الصنع مرة الطعم كخشب الكينا ، حتى ان الرجل يهز راسه تأففا منها ، ولكنه لا يتردد عن افراغها فى جوفه .

لم يعد تسيبوكين الهرم يتدخل في مسائل العمل . ولم يعد يحمل اى نقود فى جيبه . لأنه لا يستطيع أن يميز بين الصحيح منها والزائف ، ولكنه لايذكر شيئا عن ذلك ، لأنه يخشى أن يعلم الناس بانهياره ، وقد اصيب بمرض السهو حتى انه لم يعد يفكر فى الطعام ما لم يوضع امامه . ولكنهم تعودوا أن يجلسوا على مائدة الطعام بدونه ولذا كثيرا ما تقول فرفارا :

« لقد ذهب الى فراشه دون أن يتناول طعام العشاء » وهى تقول ذلك بكل هدوء لانها تعودت عليه هى الاخرى . ويرى كل يوم وهو يغادر بيته لابسا معطفه الفرائى سواء اكان ذلك فى الصيف ام فى الشتاء ، الا فى ايام الصيف التى يشتد حرها ، فانه لايخرج من البيت . ومن عادته ان يطوف فى شوارع القرية بمعطفه الشتائى وقد رفع ياقته الى اعلى ، حتى ينتهى الى الطريق المؤدى للمحطة فيواصل السير فيه ، وقد يذهب للجلوس من الصباح حتى المساء على احد المقاعد التى أمام الكنيسة . وهناك يظل دون حراك ، حيث يلقى عليه المارة بتحياتهم ، ولكنه لايرد عليهم قط ، لانه لا يزال يحتفظ ببغضه للفلاحين . واذا تصادف وأجاب على سؤال وجه اليه ، كان جوابه منطقيا مهذبا ، ولكنه يمتاز دائما بالايجاز الشديد .

ويشاع فى القرية ان زوجة ابنه قد طردته من منزله الخاص وحرمته الطعام والشراب وانه يعيش الآن على احسان المحسنين . ويطرب بعض الناس لهذه الاشاعة ، وبعضهم يأسى لمصير هذا الرجل الهرم .

اما فرفارا فقد زاد جسمها بدانة ووجهها نضارة ولمعانا . وظلت على عادتها فى تقديم الاحسان للفقراء ، ولم تحاول اكسينيا ان تمنعها من ذلك ، وكذلك ظلت كمية المربى التى تصنع كل عام على ما كانت عليه من قبل الى حد انها لا تنفد حتى بعد نضج الشليك الجديد فى العام القادم ، مما يحزن فرفارا أو يكاد يثير دمعها الحديث لحيرتها فيما يمكن ان تعمل به .

وقد بدا الناس ينسون اينسيم . وفى ذات مرة جاء منه خطاب منظوم محرر على طريقة العرائض الرسمية ومكتوب على صحيفة طويلة عريضة بالخط الذى كان يرسل به خطاباته قبل الزج به فى السجن . ومعنى ذلك ان صديقه ساموردوف كان بجانبه يقضى حكما بالسجن هو الآخر وقد كتبت العبارة التالية تحت الكلام المنظوم بخط ردىء لايكاد يقرأ : « انى دائم المرض وفى حالة جد تعسة ، استحلفكم بالله أن تساعدونى » .

وفى يوم مشمس من أيام الخريف كان تسيبوكين الهرم يجلس على طرف مقعد طويل أمام الكنيسة وقد رفع ياقة معطفه الشتائى حتى اخفى كل وجهه ولم يظهر منه الا طرف انفه وقمة قلنسوته ، وكان يجلس على الطرف الآخر بيليساروف المقاول وبجانبه ياكوف خفير المدرسة وهو رجل هرم يبلغ السبعين من عمره لا اسنان له . واخذ السمار والخفير يتكلمان فيما بينهما . فقال ياكوف بلهجة تتسم بالقسوة :

« يجب على الاولاد ان يرعوا الاشخاص المسنين... وان يبجلوا آباءهم وامهاتهم . ولكنها ، أعنى زوجة الابن ، قد جردت حماها من بيته واصبح الرجل الهرم لا يجد ما يقتات به ، وقد ضاقت الدنيا فى وجهه فلم يعد يجد لنفسه ماوى. وهاهو ذا لم يتناول طعاما ولا شرابا منذ ثلاثة ايام . » .

وقال السمار متعجبا : « ثلاثة ايام ! »

فاجاب الخفير : « نعم . وهو الآن يجلس بيننا دون أن ينبس بكلمة ذلك لانه اضعف من ان يقوى على الكلام . فلماذا يكتم فى نفسه كل هذا ؟ يجب عليه أن يستعدى عليها القانون. والا فانها هى التى سوف تظفر به فى المحاكم » .

ولم يستطع السمار أن يتبين كلمات الخفير، فتساءل مستفسرا : « ماذا تظفر فى المحاكم ماذا تقول ؟ » ثم قال :

« انها ليست مخلوقة سيئة ، ولها قدرة غريبة على العمل .

والنساء عادة لا يخلون من شيء من هذا القبيل ... اعنى بعض الهنات . » .

وواصل ياكوف كلامه ، وهو يكاد ينفجر من الغضب فقال :

« اقول انه من الأليم ان يكون لك بيت مملوك لك ، ثم يأتى غيرك فينتزعه منك . فماذا تظن فى نفسها ؟ هذه الجاحدة ! » .

وكان تسيبوكين يصغى الى كلامهما دون حراك .

فقهقه السمار قهقهة عالية ، ثم قال :

« وماذا يهم أن يكون البيت الذى تسكنه ملكا لك أم ملكا لغيرك ، مادام دافئا خاليا من مشاجرات النساء !.. واتذكر انى فى شبابى كنت اعز نستاسيا الى اقصى حد ، اذ انها كانت مخلوقة وديعة . وكانت لا تفتأ تقول لى : اشتر بيتا ، ياماكرتش ، اشتر بيتا ! اشتر حصانا ! وحتى حين حضرتها المنية ، كان آخر ما تلفظت به : اشتر لك عربة ياماكرتش ، حتى لا تضطر الى السير على قدمك ، ولكن الشيء الوحيد الذى استطعت أن اشتريه لها لم يكن الا قطعة من الفطير المتبل ولا شيء غير ذلك » .

واستمر ياكوف يقول دون أن يصغى الى السمار: « ان زوجها أصم ، ومعتوه ، معتوه حقيقى ، لايمتاز مخه عن مخ الاوزة . فما يمكنه ان يفهم ؟ الواقع انه فى وسعك ان تقرع راس الوزة بمطرقة دون ان يساعدها ذلك على فهم اى شيء . » .

ونهض السمار ليذهب الى بيته بجانب المصنع ، فنهض ياكوف أيضا ، وسارا معا حيث واصلا حديثهما وبعد أن ابتعدا عن المكان بنحو خمسين خطوة نهض تسيبوكين الهرم بدوره وسار فى اثرهما بخطا بطيئة مترددة كما لو كان يسير على الجليد .

كان المساء قد بدأ يزحف على القرية ، واختفت اشعة الشمس الا من فوق قمة الطريق الذى ينحدر الى القرية ملتويا كالافعى ، حين كانت بعض عجائز النساء يسرن عائدات من الغابة وعلى رءوسهن السلال المملوءة بالفطائر وبجانبهن بعض الاطفال يعدون ويمرحون . وكان فريق آخر من النساء والفتيات يسرن عائدات

من المحطة حيث كن يعملن فى حمل الطوب ووضعه فى العربات .
وكان تراب الآجر الأحمر يغطى انوفهن وخدودهن واسفل أعينهن .
وكن جميعا يغنين وعلى راسهن ليبا تغنى وتصفر بصوت حاد بهيج،
وتديم النظر الى السماء كما لو كانت تحمد الله على ان النهار قد
ولى بخير وأنه قد آن الاوان لكى تأخذ قسطها من الراحة .
وكانت أمها ، براسكوفيا عاملة المياومة تحمل صرة فى يدها وتسير
مع الجمهور مبهورة الانفاس كعادتها .

وقالت ليبا للمسمار حين قابلته : « مساء سعيد ، ياماكارتش!
مساء سعيد ياعزيزى ! » .

واجاب المسمار بنغمة مفعمة بالمرح : « مساء سعيد ياعزيزتى
ليبا ! » ثم زفر زفرة عميقة ، وقال : « رحمة بالنجار العظيم،
ايتها النساء والفتيات ! هو هو ! اوه ، يا اطفالى ، يا اطفالى !
أوه يا محاورى العزيزة ! » .

واستمر المسمار وياكوف فى سيرهما ، وهما يواصلان حديثهما
بكلام مسموع ! وفجاة التقت الجماعة بتسيبوكين الهرم ، فساد
الهدوء الحاضرين جميعا وفى هذا الحين كانت ليبا وامها فى المؤخرة،
فلما اقترب منهما تسيبوكين الهرم انحنت ليبا أمامه ، وقالت :

« مساء سعيد ، ياجريجورى بتروفتش ! » .

وكذلك انحنت أمها . وتوقف الرجل الهرم ، واخذ يحملق فيهما
فى صمت وارتجفت شفتاه واغرورقت عيناه بالدموع . وتناولت ليبا
قطعة من خبز الشوفان من الصرة التى مع أمها ، وقدمتها اليه ،
فتقبلها وبدأ يقضمها باسنانه .

وكانت الشمس قد غربت ، واختفت اشعتها حتى من قمة
الطريق . واخذ الظلام يرخى سدوله والجو يزداد برودة . وواصلت
ليبا وامها طريقهما ، وهما لا تكفان عن رسم علامة الصليب على
وجهيهما .

« تمت »

اشترك فى روايات الهلال

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة : السيد /هاشم على نحاس
جدة ــ ص . ب رقم ۹۳
المملكة العربية السعودية

البرازيل : M. Miguel Maccul Cury,
B. 25 de Maroc, 990
Caixa Postal 7406.
Sao Paulo, BRASIL.

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

هـــــذه الروايـــة

انطون تشيكوف « ١٨٦٠ - ١٩٠٤ » هو واحد من أعظم كتاب القصة فى العالم ، بل ان بعض النقـــاد يرى انه أعظم كاتب قصة قصيرة ظهر فى الأدب العـالمى على الاطلاق ، وذلك لما يتميز به من خيـــال خصب ، وذكاء ، وشـــاعرية ، وسخرية عميقة ، بالاضـــافة الى ما فى أدبه من فلسفة عالية ، وعطف حقيقى على الانسان ومشاكله التى يعانيها فى المجتمع والحياة٠ ومن هنا كانت قصصه متعة لا مثيل لها ، وهى فى نفس الوقت ثقافة انسانية رفيعة ، فما اكثر ما يقدم لنا تشيكوف فى قصصه من الشـخصيات الطريفـــة ، والمواقف الرائعة ، وما اكثر ما يقدم الينا من حقائق عن النفس الانسانية ، وعن العذاب الذى يعانيه البشر فى هذه الدنيا ، كل ذلك فى سهولة ورقة وعذوبة وشاعرية ٠

وهـــذه المجموعة من قصص تشكوف والتى اختارها وترجمهـا النـــاقد الكبير الدكتور محمد القصاص هى أروع ما كتب تشيكوففى مجالالقصة والرواية القصيرة، وقد ترجمها الدكتور القصاص ترجمة رائعة امينة ٠

وقد قدمنا فى الشهر الماضى القسم الأول من هـذه المجموعة البديعـــة من قصص تشيكوف ، ونقدم فى هـــذا الشهر القسم الثانى والأخير منها ٠







www.ibtesama.com